غنام محمد غنام

أَشْجَارُ المَرَايَا

مجموعة قصصية



الطبعة الثانية

2026

أشجان المرايا

قصص خارج حدودها

غنام محمد غنام

2026

أشجان المرايا

قصص خارج حدودها

- غنام محمد غنام
- الطبعة الثانية: 2026
- رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية: (PS: -143-2025)

تنبيه:

أيها القارئ العزيز:

لا تنتظر منّي حياداٍ...

هنا أنحاز للمخيم بكل جرح يلمع تحت شمس اللجوء، وكل حكاية تنبت بين الخيام. لا تبحث هنا عن دموع تبكيك، أو حماسة تلهب مشاعرك، بل عن قناعة تُغيّرك.

هذا المكان ليس طوباً وصراخاً فحسب، بل أصل الحكاية وجذر الأسئلة التي تُقلقك في الليل. تحت قبَّة الخيمة - حيث تُعلَّق الأحلام وتتشظَّى المرايا - سأدفعك إلى مواجهة ذاتك، لا متفرِّجاً، بل الشريك الفاعل في السؤال:

ماذا لو كنت هنا؟

المخيم في نصوصي ليس خلفية، بل قلباً يخفق بدم الذاكرة وبذور التمرُّد. فاقرأني كما أقرأ نفسي: عاشقاً لهذا المكان الذي يحملنا - رغم كل شيء - فوق حافة الوجود، وحاملاً لك عبء السؤال:

أيُّ عالم تريد أن تصلح بعد أن تقرأ؟

هذه القصص ليست سرداً يُروى ليُنسى، بل ضربة إزميل تُهشّم قناعاتك القديمة، فتحدث شرخاً في صمتك، وتضيء زاوية من عالمك لم ترها من قبل.

سأُريك كيف يولد التمرّد من تحت الصفيح، وكيف تبنى القيم من بين الركام. لن تكون قارئاً، بل شريكاً في الحكاية لتغيير نفسك أولاً، ثم عالمك.

فهل أنت مستعد لأن تحرق ما تعرفه عن الحب، والعدل، والوطن، والقضية، قبل أن تدخل أرض حكاياتي؟

إهداء

إلى فلسطين... الأرض التي تُعلّمنا أن للقصص جذوراً أعمق من الحكايات.

إلى الشعب الفلسطيني الصامد، الذي يقاوم بقلب لا يعرف الخوف، وروح لا تعرف اليأس

إلى أبناء غزة، الحصن المنيع، الذين يكتبون بأرواحهم وأجسادهم ملحمة صمود لن تنساها الأجيال

إلى أرواح الشهداء الذين ارتقوا إلى السماء، حاملين معهم عبق الحرية ونداء الوطن

إلى الأسرى الذين يقاومون خلف القضبان، ويحولون السجون إلى منابر كرامة، والجرحى الذين يحملون في أجسادهم قصصاً من الألم والأمل.

وإلى كل معلم ومعلمة، وإلى كل تربوي يبحث عما يغذي به عقول طلابه بالنافع والمفيد، ليكونوا جيلاً واعياً يحمل راية العلم والحرية

وإلى كل محب للغته ووطنه، وإلى كل فلسطيني يؤمن أن التحرير قريب، وأن العودة حتمية

هذه الكلمات هي وقفة إجلال لكم، ولإيمانكم الذي لا يتزعزع، ولإصراركم الذي يضيء درب الحرية

المقدمة

في عالم تتناثر فيه الحكايات مثل أوراق الخريف، تأتي ‹أشجان المرايا› لتصطاد اللحظات التي لا نراها. تلك التي تختبئ في زوايا الروح وبين أضلعنا، وفي شقوق مدننا المهشمة.

هذه المجموعة القصصية هي أولى خطوات الكاتب في عالم السرد، وُلِدَت من رحم المخيم وأسئلته الوجودية، ومن سنوات طويلة من المراقبة والتأمل. هنا لن تقرأ قصصاً تقليدية. ستدخل إلى عوالم متداخلة، شخصيات قد تكون أنت، أو جارك، أو ذلك الغريب الذي لم تتبادل معه نظرة واحدة.

ستقابل طفلاً يحمل مفتاح بيته المدمر كتميمة، وامرأة تجد في صمتها لغة أصدق من الكلام، ورجلاً يكتشف أن حياته مجرد حكاية كتبها آخرون عنه. سترى نفسك في مرايا هذه الشخصيات، حتى لو اختلفت الظروف والأشجان. لأننا في النهاية نتشارك ذات الهواجس: الخوف والحب، الانتظار والبحث عن معنى في عالم يبدو أحياناً بلا معنى.

كتبت هذه النصوص القصصية بلغة عربية راقية، لكن دون تعقيد، لأنّ الكاتب يؤمن أنّ الجمال لا يكمن في المصطلحات الصعبة، بل في القدرة على قول الأشياء العميقة بكلمات بسيطة. هذه المجموعة تحاول أن تكون جسراً بين التراث السردي العربي، وبين لغة العصر، لتثبت أنَّ قصتنا الفلسطينية - والعربية عموماً - يمكن أن تُروى بطرق جديدة دون أن تفقد جوهرها.

يمكن للمعلمين استخدام هذه القصص كنقطة انطلاق لمناقشات صفية حول الهُوية واللغة، أو حتى الكتابة الإبداعية، فهي تقدم مادة غنية للحوار دون أن تكون وعظية.

في النهاية، ‹أشجان المرايا› هي دعوة لك أيها القارئ:

ربما تكتشف أن هناك أبوابًا لم تكن تعلم بوجودها أصلاً في نفسك.

مركز بيت المقدس للأدب -فلسطين- البيرة



غنام محمد غنام

قاص وتربوي فلسطيني من مواليد مخيم الجلزون عام 1972، يحمل في ذاكرته حكايات كفر عانا المهجّرة قضاء يافا. جمع بين العمل التربوي والكتابة الإبداعية، فكانت المدرسة فضاءً للتعليم، وكانت القصة مساحةً لحفظ الذاكرة وصون الحكاية الفلسطينية.

حاصل على درجة الماجستير في الإدارة التربوية، ويشغل منصب مدير المدرسة الإسلامية الثانوية للبنين في البنيرة. صدر له كتاب «دليل العائلة الذكية» وهذه المجموعة القصصية «أشجان المرايا»، إلى جانب العديد من المقالات الأدبية والتربوية.



من أعماله:

أشجان المرايا (مجموعة قصصية) | دليل العائلة الذكية (كتاب تربوي)

ومقالات أدبية وتربوية منشورة.

رؤيته

يؤمن أن الأدب شهادة على الإنسان والزمن، وأن القصة القصيرة هي الفن القادر على التقاط لحظة كاملة من الحياة بكلمات قليلة وأثر طويل.

"القصة القصيرة أقصر طريق إلى القلب... وأطول طريق في الذاكرة"



الطبعة الثانية

2026



شكر وتقدير

بقلب ممتنٍ وكلمات لا توفيكم حقكم، أرفع جزيل امتناني إلى:

- رفاق الدرب الأدبي:

- للأصدقاء والزملاء الذين منحوني وقفاتهم النقدية الثمينة، وتفاعلوا مع النصوص بصدق، فكانت ملاحظاتهم مِشرطَ جراحٍ يُصلح لا يجرح، خاصة:
  - الأديب وليد الهودلي (الذي رأى في كلماتي ما لم أره).
  - الدكتور نديم شراب (بصيرته الأكاديمية التي وسّعت آفاق النصوص).
  - المعلم إبراهيم مصباح والمعلمة إسلام حجازي (بلمساتهما التي جعلت الحكايات أقرب إلى الواقع).

- عائلتي، حصنِي الأخير:
  - إلى أهلِي الذين زرعوا فيّ حب الحكاية منذ الطفولة، وجعلوني أرى في كل قصة إرثاً فلسطينياً يُروى.
  - إلى زوجتي، التي تحملت سهراتي الطويلة مع القلم، وكانت أول قارئةٍ تمسح دمعتها على سطر، أو تُبدي ابتسامتها على آخر.

- كل من آمن بالكلمة:

لكل من قرأ مُسوَّدة، أو شجع بكلمة، أو شارك برأي... أنتم صنعتم لهذه المجموعة أجنحةً لتطير بها إلى أيدي القراء.

الشكر كلمة صغيرة لحضور كبير مثلكم... فاقبلوها مع محبة لا تنتهي، ودعاء أن يبارك الله فيكم كما باركتم عملي.

المحتويات

الرقم	القصـــــة	الصفحة
.1	رصيف أم محمود	9
.2	اسيا.. (قصة طفلة من سوريا)	17
.3	الجميزة	21
.4	الحاجز (إهداء إلى شهيد يوم الأرض أحمد الشيخ اللحام)	33
.5	ميلاد في سوق القطانين (إهداء إلى روح الشهيدين ليث الخالدي وعبد الرحمن قاسم)	39
.6	الممر	49
.7	الموءودة	56
.8	اليد المرتجفة	66
.9	الزيارة	76
.10	خمس درجات وزقاق	81
.11	على أطراف الوادي	90
.12	كمامة	105
.13	نهر بضفتين (مستوحاة من أحداث حقيقية)	110
.14	الخيمة (99)	118
.15	الكنعانية: أسطورة الحوار والصمود	128
.16	عرين	133
.17	واستوت على الجودي	144
.18	رحلتي مع العصا (قصة عن الاستغفار)	156
.19	العم ربيع	163
.20	ظلال الشاشة والندم	166
.21	هند لم تكن مجرد رقم	170
.22	المسير	174

رصيـفُ أمّ محمـود

أعرف دكّاني أكثر من وجهي في المرآة. في زاوية السوق حيث رائحة البُنِّ تختلط بعبق التوابل، أقف خلف طاولتي منذ ثلاثين عاماً. أطحن القهوة بحركات آلية، أسمع همسات الزبائن وضحكاتهم، وأشهد على قصص الشارع التي تتكرّر أمامي.

لم أكن مجرّد بائع. كنت سجّان ذكريات في المكان. في زاوية أخرى من الرصيف، لا يصله صخب السّوق، وفي استراحة بين غليان القهوة وصرير الباب، أرفع نظري نحو الزاوية الأخيرة من الرّصيف. تجلس بمفردها هناك، جميلة بوقارها وهادئة ونسيم الرّيف يحيط بها، امرأة يعرفها الرّصيف من نداءات زبائنها: "أمّ محمود".

في ساعة من النّهار يلوح على محياها الحزن، وظلّ غيمة عابرة. تتحرّك بنشاط بعد ستة عقود أو أكثر، تحملها في ملامحها وخطواتها.

ثوبها أسود مطرّز بِلُغةٍ لا يفكُّ رموزها إلا من وُلِدَ في فلسطين، كُلُّ غرزة حرف من القضية، وكلُّ خيط سطر من أسفار الحق المغتصب. "الغرزة الفلاحيّة" تحمل في انحناءاتها عبق زيتون جنين، و"غرزة" تحاكي تضاريس الجليل حين تعانق السماء. أما "غرزة الياسمين" فتسرد سرَّ بيت في غزّة صار أرضاً، و"غرزة الحنظل" فتصفع من يقرأها بوعي العودة الذي لا يموت.

حين تتحرّك أمُّ محمود يئنُّ الثوب، فالمِغزل الذي نسجه كان يَخْطُطُ خريطة فلسطين بكل حكاية مَخْبُوءةٍ تحت الجلابيب. العين الغريبة ترى زخارف جميلة. أما ابن الأرض فيسمع في كُلِّ عقدة صرخة "يافا"، ويلمس في تقاطعها خيوط وميض قنديل من "لُدّْ". وبين كل غرزتين تنادي "القدس" كل الخيوط لتجتمع حولها لتفك حصاراً من خيوط دخيلة ستغيرها. ثوب أم محمود وثيقة منسوجة بإبرةِ المقاومة. يحيط بخصرها حزام عريض مُزيّن، يقسم الثوب إلى نصفين، لترى فلسطين نفسها تنعكس في تلك القسمة، فتذكرني بجرح لم يندمل. وأنا أتأملها لا بد أن يخطر في بالي:

- الحياة تأخذ منّا أجمل ما نملك، تخطف اللحظات والأماكن التي نحبّ، وتترك خلفها أثراً من ألم يلون ملامحنا، وشاهد على ما فقدناه.

هنا في زاوية الدّكان، أجلس وأرقب الشارع وهو يغلي. مرجل على نار "انتفاضة الحجارة". أقابلها وجهاً لوجه، كما يقابل الجائع رغيفه قبل أن يشقه إرباً. لكن أيام الإضراب الشامل تأتي، فنطوي أبواب محالنا بشعار على الجدار "هذه أرضنا ترفض أن تكون وطناً للمحتلين"

الشوارع تتحول إلى موجة من الحجارة والإطارات المشتعلة، "والقبعات الخضر" تفرُّ من سطوة الصبية ومن حجارتهم وغضبهم. ويفرض حظر التجول علينا، فنبقى خلف الجدران نسمع صفير الرصاص، وأقدام الجنود تدقُّ الأرصفة. حتى الزيتون في ساحة البيت الخلفية تسقط أوراقه، وأنا أعدُّ حجارة ابني التي يخبئها تحت الوسادة، فهي بذور لغد لا بدَّ آت.

الدكان خيمة انتظار. ورغيف الغداء يتحجر، والكرسي يتذكر وزن الجالسين عليه قبل أن يحملهم الرصاص إلى عالم الشهداء. وأنا أمسك بمفتاح الدكان وأتمتم بالوصية، وأعرف أنَّ الحجارة التي تتهادى من سطح دار الجار هي لغة الأرض حين تتكلم.

منذ أعوام وهي تجلس على مقعدها الصغير الذي نسميه "القَرْطة"، تبقى هناك وأمامها "بسطة" منظمة بعناية، تعرض خيرات الأرض وغنائمها وتعتني بها، فتبلّلُها بالماء وتقلّبها برقّة، تُعدّها وتحصيها، تتلمس فيها ذكريات عزيزة. أراها تتأملها بحزن، وتتذوق مرارة نبتت في أرض تربطها بها قصة قديمة من الألم والفقد. وأشعر أنها تتفقد أولادها الذين أنجبتهم تلك الأرض: "الزعتر الأخضر، العكوب الشّوكي، السّبانخ الطّازج، النَّعنع الفوّاح، البقدونس الأخضر، كومة من الخبيزة والجرجير... وعلى الطرف رزمٌ من البصل الأخضر." كل ورقة تحمل قصّة، وكلّ رزمة تهمس بحكاية.

تلمع عيون أمّ محمود السّوداء تحت الشمس، وتترصد حولها. خلفها تتداخل أصوات البائعين مع ضجيج "الحِسبة"، ويطلّ مقهى "أبو جلال" عن يمينها، وملحمة "أبو وديع" عن يسارها.

ألاحظ أنَّ أحداً منهم لم يمنحها الاهتمام الذي منحته إياها، ولم أرها تدخل دكاناً غير دكاني لطلب حاجة ما. فمقولة "المحبة من الله" قد وجدت طريقها إلى قلبي قبل دكاني، جعلت منها زائرة دائمة، تحمل معها كل مرة شيئاً من دفء الريف وصدق العاطفة.

بجانبها تقبع عدّة صُرر سوداء مغلقة بإحكام، أسرار لا تفصح عن نفسها. لا تعرضها للزبائن ولا تبيع منها شيئاً. وكثيراً تساءلت:

- ما قصتها؟ ما الذي تخبئه تلك الصُّرر؟ ولماذا تبقى مغلقة؟

لم أجرؤ على سؤالها، فربما تحمل في طياتها حكاية لا أستطيع فهمها بعد. فتلك الصُّرر تختفي واحدة تلو الأخرى، وأشخاص قلائل يأتون ويأخذون منها صُرّة دون أن يدفعوا ثمنها. لفتوا انتباهي مرّة، فجميعهم متقاربون في العمر والهيئة.

- من هم؟ ولماذا يأتون؟ وما تلك الصُّرر التي تمنحها أم محمود دون مقابل؟

أقول في نفسي وأنا أتأمل هذا المشهد الغامض: كم هي عظيمة أخلاق الطبيعة لتعطي بلا حدود وبلا شروط. تعطي كلّ شيء. هل هي هدايا أم رسائل؟ أم مجرد لمسة إنسانية في عالم ينسى أحياناً معنى العطاء؟

في غمرة ذكريات الماضي وأثقاله تتجسد صورة أمّ محمود في مخيلتي، أتخيلها حملت عبء الحياة قبل أن تحمل زهرة عمرها. طفولة مقتطعة من زمن مضى وحلم لم يكتمل، انزاحت براءتها تحت وطأة الظروف القاسية.

الجلوس الطويل في الدّكان يعلمك أن تتخيل، أن تعصف بذهنك لأبعد مدى في نسج القصص والخيالات، فأتخيلها في يوم زفافها المفترض، جسداً ناحلاً يحمل ثياب العرس، وقلباً يرفض أن يصدّق أنه لم يعد لها من مأوى إلا بيت رجل سيشاركه قلبها مع أُخرى. والدها الأرمل أشيب الشعر يقف بجانبها، يزفّها إلى عريس اختار أن يتزوج عليها بثانية. واقف هناك وشاب شعره قبل أوانه من هول النكبة، تسلّم إليه مصيرها أمانة لم يعد بمقدوره حملها. أمها غائبة بجسدها حاضرة بروحها، لأنَّ رحلة اللجوء لم تترك لها وقتاً لتتعلم كيف تكون ابنة قبل أن تُجبَر على أن تكون زوجة. مخضبة بالحناء وجميلة كزهرة برية تحني رأسها بخجل، بينما تزفّها زغاريد نسوة الحارة والقريبات، ليودعن طفولة لم تكتمل.

خلفها عربة تحمل "عفش" بيتها المتواضع من أربع فرشات قطنية ولِحافان مورّدان، وست مخدات حريرية، وصندوق خشبي أخضر يحظى بعناية العتّال. وفي خلفية المشهد يلهو صبيان وبنات بجمع حبات "الملبّس" المتناثرة. وهي تتأمّل كل هذا من أسفل طرحتها، وتسأل نفسها:

- هل هذه بداية سعادتي أم نهايتها؟

في هذا المشهد المتناقض يظهر وجهها الصغير مستسلماً. ربما رضيت بالقسوة لأنها لم تعرف غيرها، أو لأن الحياة علّمتها أنَّ الدموع لا تغير من الواقع شيئاً. فأسئلتها تظل معلّقة في الفراغ. لماذا تُعطى لرجل لا يكفيها؟ ولماذا عليها أن تفقد دفء الأمومة لتجد نفسها في عالم لا يرحم الضعفاء؟

هكذا أراها في مخيلتي ولا أعرف إن كانت قصتي صحيحة، أو نسج خيال جاء من الفراغ. امرأة ولدت من رحم المعاناة، وحكم عليها أن تكبر قبل أوانها. وأردّ عليها في خيالي: أم أنَّ أكبر أمنياتك أن تصبحي عروساً.

من المتوقع لاحقاً أنَّها أنجبت خمسة أولاد وثلاث بنات، تزوَّجوا ثمَّ سافر بعضهم، قد يكون أحدهم معتقلاً بالمؤبد، وزوجها توفي بالجلطة؛ لأنَّ أحدَهم استشهد في الانتفاضة. فحياتنا فيها الجميل ويلحقه الحظُّ العاثر، الذي يمكن أن يحدث لأيّ إنسان. هل ستختلف حياة أمِّ محمود عن الجميع؟

فوق الرّصيف تجلس أم محمود منذ أعوام غاب عني عدّها، وبيننا بضعة أمتار، لكنها مسافة لا أجرؤ على عبورها. كم مرة أردت أن أسألها عن أيامها هنا التي تخيلتها طرقاً جبلية تأخذني معها إلى أعلى نقطة من الخيال، كيف كانت تبدو هذه الساحة في زمن لم أعرفه. لكنَّني أعرف أنَّ إجابة من زمن الخمسينيات ستكون مختلفة عن كل ما أعرفه.

أقترب أو أتقرّب منها كل يوم، فأختار ما أحتاجه من بضاعتها ولا أساومها، ولا أفتش في السلع. كل شيء واضح هنا وصريح، بلا حاجة لكلمات زائدة. في الصباح نتبادل التحية:

- صباح الخير يا أم محمود.

- صباح الخير يا أبو نضال.

هذا كل ما في الأمر. لا أحاديث جانبية ولا أسئلة عن الأحوال ولا تفاصيل عن الحياة. مجرد اعتراف صباحي بوجودنا في نفس المكان والزمان. ربما هذه هي أصدق العلاقات التي لا تحتاج إلى "بروتوكولات".

أمّ محمود امرأة متديّنة ومتحدثة لَبِقة، أحمل لها الكثير من التَّقدير، عندما تقابلني تسألني عن حالي وصحتي وأولادي، تطلب تعبئة دلوها الصغير بالماء بلباقة لترشّها على خَضْراواتها، وتحتمي بمظلّة سوداء أيام المطر، وتختبئ في دكاني عندما يشتدُّ عليها الزّخُّ. تمضي الأيام وهي لا تخلف وعدها بالحضور، ترابط على الرَّصيف في فيح الصَّيف وبرد الشِّتاء وجمال الرَّبيع.

اليوم الأربعاء. الرصيف يبدو شاحباً. وحركة المارين قليلة أو نادرة. كل خطوة تتردد هنا تترك صدىً، مثل صوت دقات ساعة حائط في بيت مهجور. أحصي المارين واحداً بعد واحد، هناك رجل عجوز يسحب قدميه ويحمل سلّته على ظهره، وطفلان يجران حقائبهما المدرسية، وسيدة تهمس لنفسها وهي تمرُّ. حتى بائع الفول المجاور يبدو متضايقاً من هذا الصمت. يسألني بنظرة:

- هل لاحظت أنَّ اليوم مختلف؟

فأومئ برأسي متفقاً معه، وأنا أحدق في "القرطة" الخالية. وشمس الضحى التي تنتظرها بدأت اليوم تنسحب باكراً. فلا عجب. فمنذ أعوام لم تتخلف عن موعدها. عندما تأتي تنثر نوراً إضافياً على الرصيف، فتصبح الدكاكين العتيقة أكثر بهاء، وتتحول وجوه المارين أقل قتامة. الآن وأنا أقف أمام "قرطتها" أدرك السر، هي القلب النابض لهذا الرصيف، وتساؤلاتي:

- هل غيابها هو سبب هذا الخمود؟ أم أن المدينة تعاني أصلاً، وكنا نراها حية لأنّها كانت تتنفس من خلالها؟ أين ذهبت تلك السيدة التي حوّلت روتين الصباح إلى قصيدة؟

مساء أغلقت دكاني، وألف مفتاح القفل بين أصابعي، ويلتفت رأسي وجسدي معه نحو "القرطة". حسرة عميقة تتسلل إلى قلبي: لماذا غابت؟ أين هي؟

تمنيت لو أنني اقتربت منها أكثر، لو أنني عرفتها بعمق بدل أن أبقى أسيراً لغيابها. فعقدت العزم على ألّا يضيع يوم غد هباء، ووعدت نفسي بأن يكون لي معها حديث طويل.

جاء الخميس مسرعاً كما تمنيت، لكنّ أم محمود لم تحضر. وقفت أقتفي أثرها بحزن وانتظار وتعب. عيناي ترقبان الرصيف وتتأملان وجوه المنتظرين بجانب "البسطة" و"القرطة" التي تشكو غياب صاحبتها.

مسرات كثيرة يفتقدها العابرون، يقفون لحظات يدورون حول المكان، لقد أضاعوا شيئاً ويصرّون على البحث عنه. فأم محمود فقرة ثابتة في صفحة يومياتي ويومياتهم، فبدونها يفقد اليوم معناه، وتنقص قصتي شيئاً أساسياً. إن نقص شيء من حياة أيٍّ منا، يشعره بارتباك وقلق. كيف إن كانت تلك المرأة التي حوّلت ركنها الصغير إلى ميناءٍ يأوي الكثيرين؟

السؤال يتردد في أزقّة الحي. والرجال العائدون من العمل لا يعرفون من أين يشترون حاجياتهم دون أن تبتسم لهم. الأطفال لا يجدون من يدفع لهم بقطعة حلوى في أكياس البقالة. حتى قطط الرصيف تتجمع حول "قرطتها" تنتظر. في عيني العجوز الذي ينظر: "ربما مرضت" وفي دموع البائعة المجاورة التي تحاول إخفاءها؟ أم في ذلك الظل الطويل لشباب يدورون حول المكان، ويشيرون إلى مكان لم نعتد أن نبحث فيه عنها.

وصلت شمس الظهيرة، ودخل شاب الدكان تحيط برقبته كوفيّة سوداء، رفعها لتخفي أسفل وجهه، وعليه علامات التعب والضيق والضجر، وبقايا شُحَّار إطارات محترقة تلفُّ عينيه، قال بعد التحية:

- أين رصيف أمّ محمود؟

سؤاله بدا غريباً، ولكنَّني أحببت الاسم، نعم، إنه رصيف أم محمود فعلاً. أردِّد السؤال نفسه في عقلي:

- لكن أين هي؟

فأجبته: لا أعلم، ولكنَّها كانت تجلس هناك.

تردد بُرهة بالخروج، هزَّ رأسه ملتزماً الصَّمت، وعيونه تخفي سراً، ثمّ استطرد بصوت منخفض قائلاً:

- هل تركت لي شيئاً عندك؟

- لك! من أنت؟

- محمود...

استجمعت أفكاري، وتبادلنا النَّظرات المستغربة، قطبت جبيني، وابتسامة عابرة، أومأت له بعدم معرفتي. فخرج مسرعاً. يبدو أنّه تذكَّر شيئاً.

تجاوزت السَّاعة الخامسة مساء، وبصوت لا تكاد تسمعه أذناي ودَّعت المكان والرَّصيف. عائد إلى بيتي أحمل بين أصابعي فراغاً. زوجتي تلقاني عند الباب، وعيناها تتساءلان قبل شفتيها:

- وأغراض البيت؟ ألم تمرّ على أم محمود اليوم؟

أحني رأسي ولا أملك جواباً. أطلب منها الانتظار، قد يكون في الانتظار أمل بعودتها. فقاطع شرود ذهني أذان المغرب ليعيدني إلى مسار الحياة.

دخلت المسجد يوم الجمعة، الجو حزين والمصلون يتدافعون، وحركاتهم متشابكة لا تكاد تميز من يدخل ممن يخرج. اكتظاظ وأصوات "رحمات" تتردّد تسبق جنازة ستحمل بعد الصلاة.

رفعت عينيّ نحو الجدار المقابل، ملثمون يقفون. عشرة وربما أكثر، يرتدون ملابس سوداء، ويحملون علب رشّ الألوان. يد ترسم وأخرى تكتب شعاراً ورسائل إلى عالم لا يسمع. ليست فوضى بل حدث جلل بدأ يتكشف.

في المنتصف وقف رجل يرتدي كوفية حمراء يستند إلى الحائط، يحاول منع نفسه من السقوط. أمامه شاب يرتدي كوفية سوداء يحدّق به. لم يتحدثا، لكن التوتر بينهما كان كخيط مشدود على وشك الانقطاع.

اقتربت خطوتين. ورائحة الطلاء تختلط برائحة عرقهم. الشاب ذو الكوفية السوداء همس شيئاً في أذن صاحبه، فانتفض الرجل الأحمر كما لو أنه تلقى صعقة كهربائية. لفّ على نفسه وأشار نحو نهاية الزقاق. وفي لمحة اختفى الجميع تاركين صوت الحزن، وطبقة رقيقة من الطلاء الأسود لم تجف بعد.

حاولتُ أن أقرأ ما كُتب خلفهما، لكنّ ما ظهر لي كان اسماً واحداً: (محمود).

جلست وسط الجموع، وبدأ الخطيب يرثي الشهيد بصوت يهزّ الأعماق. كلماته تقطع القلب وتُذكّر بالثمن الباهظ للحرية. ثمّ توقف وبدأ يقرأ "بياناً" باسم "القيادة الموحدة للانتفاضة الفلسطينية". وما صدمني عندما قال:

- "أم محمود..."

صمتٌ تلا الكلمات، فالاسم نفسه. وتساءلت في حيرة وألم:

- أين تكمن حكاية أم محمود بكل هذا؟

- هل هي الشهيدة، أو أمّ الشهيد؟ أم هي رمز لفقدان أكبر؟

جلست أبحث بين الكلمات عن الحقيقة، وعن قصة لم تُحكى بعد في ذلك اليوم، كل شيء حولي يحاول أن يخبرني بقصة تلك المرأة الهادئة. أطفأت مسامعي ومشاعري، لأحاول تكرار الاسم مع نفسي؛ لأقنعها أنَّ الشَّهيدة المسجاة هناك هي "أمّ محمود".

ويكمل الخطيب: "لقد اغتالتها قوّة صهيونية خاصّة بين القدس ورام الله، عندما كانت تنقل سلاحاً إلى المنتفضين..."

لقد عادت شمس الظهيرة لتروي حكاية مختلفة، لم تكن أم محمود امرأة عادية، لم تكن مجرد جسد ينحني فوق "قرطة"، ولا وجهاً عابراً في زحام الرصيف وليست بائعة. لقد كانت الذاكرة الحية للرصيف كله، الحكاية السرية التي يهمس بها المارون هناك، الساعة الرملية التي تحفظ زمناً لن يعود، عندما تفتح بسطتها تفتح كتاب تاريخ لم نقرأ منه إلا سطوراً قليلة، والآن وقد غابت أدركنا أننا كنا نمرّ عليها مرور العميان، بينما هي تحمل أسرار المدينة تحت ثوبها.

الحقيقة أن أم محمود لم تتزوج ولم تنجب، كانت غنية بقلبها وإيمانها قبل أموالها. أنفقت أيامها وأموالها في سبيل الله ووطنها. وهي الصغرى بين أختين تعيشان في قرى رام الله، ورثت عن أبيها مالاً وعزاً، وورثت جرحاً عميقاً بفقدان أمها منذ زمن ليس ببعيد. وفي سنٍّ مبكرة تشكّل كرهها للاحتلال، حين استشهد خطيبها "محمود" دفاعاً عن أرضه. فحملت اسمه شعاراً، وتوشحت بدمائه رداء للعزّة.

أمضت بعد ذلك أحد عشر عاماً في سجون الاحتلال، تدفع ثمن مقاومتها سنوات من عمرها. وعندما خرجت كانت الانتفاضة في أوجها، فتحوّل الرصيف الذي تجلس عليه إلى نقطة لقاء للمنتفضين، توزّع عليهم السلاح والقنابل التي تشتريها من مالها الخاص. تخبئها في تلك الصُرر السوداء، وتغطيها بخيرات الأرض، لتزرع المقاومة وسط الخذلان.

في وقت قصير تمكّنت أم محمود من أن تحظى باحترام ومحبة الجميع. أصبحت "أمّاً" لكل "محمود" شغوف بفلسطين، لم تضع سياجاً بينها وبين الموت أو الحياة، بل عاشت حياة خشنة لم تفكّر فيها أبداً، لأنّ همّها الوحيد فلسطين.

عندما ابتعد الملثمون عن الشعار المكتوب على الجدار، ليُزفّوا الشهيدة، ظهر باقي الاسم: "أمّ"، لتكتمل العبارة: "أم محمود". فتساءلت وأنا أرى الدموع تملأ عيونهم:

- هل كانوا يحتضنون "أمّهم" هؤلاء "المحمودون"؟

سرنا في موكب التشييع بطريق لا نهاية له، طريق من الحزن والفخر. كل لسان فينا يردد حروف الوفاء للشهداء، وكل كلمة تحمل لهجة المقاومة والثأر. في هذا اليوم لم يكن هناك حد فاصل بين الأحلام والواقع، فرأيتها كما تخيلتها دائماً عروساً.

أم محمود في أجمل هيئة وفي أحلى زينة، لم تكن عروساً عادية. وراء جفنيها المطبقين تعتصِر وجوهاً لا تحصى. وجوه من أحبت وفقدت ومن قاومت، لم تكن شفتاها عابستين، بل مرتسمتين بابتسامة هادئة، تودع الدنيا وهي مطمئنة. لم تذرف دمعة واحدة تندب حظها، بينما نحن ذرفنا أنهاراً من الدموع خلف نعشها، ترتدي طرحتها البيضاء ملونة بدماء التضحية، دماء تشهد على حياتها التي عاشتها من أجل فلسطين.

زغاريد نسوة الحارة وقريباتها تزفها، لم تكن زغاريد فرح عادي. كانت أناشيد مقاومة وفخر. والصبيان يجمعون حلوى الشهادة، وهدايا الشفاعة من السماء لمن يستحقونها.

لقد أنجبت أم محمود المئات من "محمود"، كلّ واحد منهم يشكل جزءاً منها، يتبعونها في حياتها وفي مماتها.

حفل زفافها الخاص وداع مؤلم. يعرفون أنّها ستظلّ حية في قلوبهم وفي كل خطوة يخطونها نحو الحرية.

أم محمود قوة لا تنكسر لحب لا يموت. في موكبها تعهّدنا أن نكمل الطريق، لأنّها علمتنا أنَّ المقاومة ليست خياراً، المقاومة هي سبيل الحياة.

في اليوم التالي عدت إلى الدكان ووقفت. فالزمن قد توقف. تأملت الرصيف وتنهّدت بعمق، وصدري يحمل جبالاً من الحزن. الرصيف حزين وجاف، و"القرطة" وحيدة تواجه الكآبة وحدها وتتحدى الفراغ.

لم يكن لدي خيار إلا أن أجلس وأفكر. رأسي ثقيل بالأفكار التي تدور فيه. "القرطة" بقيت في مكانها بلا رفيق، فقلت: لا يمكن تركها هكذا. ظلت الكلمات عاجزة عن التعبير. فقررت أن أفعل شيئاً ولو كان بسيطاً.

حملت القرطة إلى دكاني، وتذكرت اللون الأخضر الذي تخيلته لصندوق عرسها. وأصبحت العتّال الذي يعتني بحملها، وحفرت عليها عبارة: "رصيف أم محمود".

محاولة متواضعة لأرثيها، ولأنّ فعل شيءٍ، أيّ شيء، أفضل من لا شيء. خضّبت حروفها باللون الأحمر. عاد إليّ سؤال الشاب الذي كان محفوراً في ذاكرتي:

- أين رصيف أم محمود؟

تساءلت في حيرة. كيف لم يخطر على بالي أن أسمّي الرصيف باسمها؟

فعلّقت القرطة على جدار الرصيف أمامي. لتصبح نافذة تطل على روحها، وتذكرنا بأنّها لم تغب، وستظل حاضرة في كلّ خطوة نخطوها، وفي كلّ نفس نتنفسه.

آسيا
(قصة طفلة من سوريا)

لم تعد الخريطة كما هي، الحدود تكسّرت تحت أقدام الوحوش، وتحول الوطن إلى متاهة من الدم والحطام. والظلم لبس وجه العدل، والباطل راح يخطب باسم الحق. الصوت الذي يعلو يظن نفسه النذير، والبندقية المترفعة تزعم أنها الخلاص. لكن الأرض وحدها تصغي إلى الحقيقة وتنادي: "الدماء واحدة، والوجوه التي غابت لا تعرف معنى الشعارات."

في زحام الخراب ووسط ضجيج لا يميّز بين أنين وضحكة، لم يعد أحد يعرف من المخطئ. أو إن كان هناك مخطئ، أو إن كان هناك حق يمكن القبض عليه دون أن يذوب بين الأصابع. ذلك اليوم رأيت "حارتي" تنهار على الشاشة، تتقطّع فيها الصورة كما تتقطّع أوصال المدينة، شيء في داخلي انكسر. فأنا أعرف تلك النافذة التي تطل على حلم مؤجل، نجونا به من الجنون لبعض الوقت، فصديقي هناك، وصوته يتسلل إليّ عبر مكالمة مشوّشة، يختلط صفيره بصوت الانفجارات، والزمن نفسه يتردد في اتخاذ قراره. ثم صمت عميق.

لم أستطع أن أبقى في الخفاء. لم أقبل أن يتحول صديقي إلى سطر في نشرة أخبار، أو رقم في إحصائية بلا ملامح، فالحرب لا تترك شيئاً كما كان. حتى الذكريات صارت شظايا، والوجوه التي عرفتها ذات يوم باتت أشباحاً تتلبس أقنعة جديدة. صباحاً نستيقظ على خرائط معاد رسمها بدماء جديدة، وكل ليلة تدفن حقائق أخرى تحت أنقاض البيوت. في هذا العالم المشوّه يمتزج الدّخان بأنفاس المحتضرين، لم يعد هناك فرق بين صوت القذيفة، وصوت الأجراس ونداء الأذان.

انطلقت في رحلة لأفتش في ركام الذاكرة بين أنقاض الوطن، لا لأبحث عن صديقي. لأبحث عن إجابة واحدة تؤرقني منذ سقط كل شيء:

- هل هناك من معنى لهذا الجحيم؟ أم أن الجنون انتصر ونحن فقط نبحث عن وهم نرتّق به أرواحنا؟

كشفت أنوار المركبة مشارف الحي المدمر، يلف السكون المكان، يرتدي كفناً كبيراً، لا يقطعه إلا أصوات دجاجات متألمة وجثة ديك مات صياحه. وقفت في وسط الحطام، وأبقيت هدير المحرك ينادي لعله يصل إلى آذان أحد ما. لا أعرف لماذا عدت إلى هنا، ربما لأنّ الذاكرة لا تموت، وتظل تنقر على جدران الروح حتى تجد ما تبحث عنه. هذا الحي فيه بيتي قبل أن تحوله الطائرات ببراميل متفجرة إلى ركام، وقبل أن يدفن تحت التراب صديق لي لم أستطع إنقاذه. هنا الغياب لعبة قاسية. يغيبون تحت الركام، وهناك من يغيبون في عيون من ينتظرونهم، والأقسى هم من يغيبون شيئاً فشيئاً بين أمواج البحار كل يوم، حتى لا يتبقى منهم سوى صورة تحمل اسمهم. فأتساءل بين كل هذا الدمار:

- هل كان صديقي حقيقياً؟ أم مجرد قصة اخترعتها كي أتحمل هذا الجنون؟

اليوم عدت لأن أحداً ما في حلم الظهيرة أخبرني أن بين هذه الحجارة المُسوّاة بالأرض رسالة بخط يده. رسالة قد تفسر دعوته لي للبحث عنه ودفن جثته. أخرجت المصباح من جيبي محاولاً تقوية نظري الغائر من التعب. وفي اليوم الثاني من البحث، ومن الأمل الذي يتضاءل مع كل ساعة. بدأت أتأمل الحطام الذي بدا بارداً. لساني لم يتوقف عن الدعاء، وأذناي تفرغان من الطنين، محاولتين التقاط أي همسة تنبض بالحياة.

لم أفهم لماذا اختاروا البقاء في هذا الحي العجوز. لقد تكسرت عظامه، ومالت مفاصله عند أول هزة. والآن هو يرقد فوقهم بجسده. صراخي عليهم يرثي أطلال منزل محبوبته، والأرض لم تخرج ما تخبئه في جوفها.

أمشي بين الأنقاض وأعرف أن الطرق تؤدي إلى المجهول. ربما سأجده وربما سأجد جثته، وربما لن أجد سوى دليل صغير على أنه كان هنا يوماً ما. سأستمر في البحث، لأن في هذه الرحلة المضنية معنى وحيداً باقياً:

- أن أسناننا لم تكسر بعد، وأن قلوبنا ما زالت تنبض رغم كل شيء. هل يسمعني أحد؟ هل هناك أحياء؟

فانحنى سمعي نحو كومة من الطوب، وكهف ضيق فاقتربت وانحنيت عند كل ثقب، محاولاً السماع، فسمعت أنيناً يختلط مع قطرات المطر وحفيف الرياح. صوت خافت يتسلل من بين الحطام، نبض خفيٌّ تحته، توقفت وحبست أنفاسي، وظننت لوهلة أن الجنون بدأ يتسلل إليّ. ثم عاد الصوت— بكاء طفلة ضئيل- ارتجاف عصفور جريح أقوى منه.

رميتُ نفسي على كومة الأنقاض، وأنا أسمع دقات قلبي في أذنيّ كالمطرقة. مع كل حجر أزيحه كان الصوت يصبح أكثر وضوحاً. نحيب يتشبث بالحياة بعناد. لم يعد الأمر يتعلق بي أو بصديقي. أصبحت كل الإحصاءات والأرقام كذبة. فهذا الصوت يخترق الحرب، ويصرخ بأننا لسنا أرقاماً، وبأن تحت كل حجر قد تُختَزَن معجزة. وعرفت هنا أن الحرب فشلت في سرقة كل شيء. لأنّ هذه الطفلة تذكّرنا جميعاً بأن الحياة أقوى من الموت، وأن الأمل قد يختفي، لكنه لا يموت أبداً.

- إن... إن...

أمعنت النظر في أنبوب من الظلام الدامس. أدخلت المصباح فصرخت طفلة منكمشة في قاع الحفرة، ومحاطة بأنواع الموت من كل جانب. بدت كأن شيئاً يعصر حنجرتها، وحِمْل الركام أثقل جسدها. حاولت أن تغطي وجهها وعينيها من شدة الضوء بيدها الطليقة، وتشعر بالرعب في تلك الظلمات العميقة بين الجثث.

- "أنا آسيا يا عمو... آسيا"

- هل تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

تتمسك آسيا بما بقي لها. عيناها الزجاجيتان، اللتان كانتا يوماً ما تلمعان بالبراءة والفضول، أصبحتا الآن باهتتين. أنفاسها قصيرة متقطعة، تحاول أن تمسك بالهواء الذي يتسرب. يداها اللتان كانتا تلعبان، وتصنعان أحلاماً من الطين والورق، أصبحتا ترتجفان وتحاولان أن تمسكا ببقايا الحياة. تحاول أن تبتسم، تلك الابتسامة التي كانت تملأ وجهها بالضوء في الأيام الماضية، لكنها الآن مجرد جسد، تعرفُ أنَّ الوقت قد ضاق بها. تنظر إليَّ بسؤال: "لماذا أنا هنا؟ أين أمي؟ أين أبي؟"

لكنها لم تنطق بكلمة، صوت خافت جاء من بعيد:

- أنا آسيا... آسيا"

تحاول أن تعقد صفقة مع الموت، فهو جاء لزيارتها في لحظة ضعفها. أعلم أنها لا تريد الرحيل وتريد العيش، أن تلعب وتضحك مرة أخرى، لكن الحياة تفلت منها قطرة قطرة.

- اصبري يا صغيرتي... سأخرجك من هنا"

- "أنا عطشانة يا عمو كثير. بدي أموت عطش. بس بدي أشرب"

ثم اختفى صوتها وسقط في جوف الظلام. شعرت بالقلق وأعدت النداء والرجاء، فعاد صوتها يطلب الماء، فوثبت بأظافري على كومة الركام، تخيلت نفسي أسداً عجوزاً يحفر مسابقاً الزمن. لا أعرف إن كانت أربعة أم خمسة أمتار تفصل بيننا، وبين الظمأ والارتواء، بين الاختناق والتنفس، بين الأمان والخوف. أضداد اللغة تراكمت فوق حطامنا لتزيد ثقله على عزيمتنا. فملَّ القمر من الانتظار، وانزوى يلملم خيبته مني. وبدأت تشرق الشمس على ظهري، وتسألني:

- كم بقي لك لتصل إلى ذلك اللحد اللعين؟

ثم بعثت الرعدة في جسدي صرخة منهكة أخيرة، وفيها من حنان الطفولة ما أقشعرّ له بدني:

- عمو... خلص لا "تعّب حالك"

ومصيبة غير متوقعة، فقد انهار جزء من الركام، وشكل ساتراً منيعاً بيننا. كنت كابن يأجوج لم أستطع له نقباً. فانطوى كل رجاء بالنجاة خلفه في يأس. جلست القرفصاء بجانبها منكفئاً، والإحباط يكسرني، ألطم بيدي على رأسي وخدي:

- أنا الملام في ذلك، إنه خطئي، لقد قتلتها بغبائي واندفاعي.

عاد وهج الشمس أكثر دفئاً، فقد مرت الغمامة السوداء التي كانت تحجبها. لم أجرؤ على النظر في وجهها، وخيل إليّ أنها تخاطبني:

- لن أسمح بذلك. لقد رجعت لإغاثتك.

نظرت إلى المحيط والفزع يقتلني خوفاً وقلقاً على "آسيا". بحثت عن أي شيء قد ينقذها، حتى عثرت أخيراً على سكة حديد تستخدم في الحراثة. ربطتها بحبل بدعامة مؤخرة السيارة، وغرست السكة في جسد الركام، وبدأت أجرها لأمزق أشلاءه، وأنهش تماسكه. كررت المحاولة عدة مرات مضنية، حتى أطل النجاح من جديد.

- "أنا هون يا عم. بس بخاف منها. راح تقتلني."
- إنها لن تؤذيك، وسأحميك يا صغيرتي من كل شيء.

تنهدت "آسيا" بعمق، فقد بدت لي ذراعها وأمسكت بطرفه. عدت للحفر بيدي وأظافري حول جسدها، حتى انتشلتها من الركام. احتضنتها بروية رفقاً بعظامها المتخلخلة، وقبلتها قبلة خاطفة، ودموعي تغسل خديها الورديين. ثم جلسنا فوق الركام، فانكمشت في صدري، وقالت لي ضارعة:

- "شكراً يا عم. بدي أشرب عطشانة كثير. وين أهلي؟"

أسقيتها الماء، وكان لوقع سؤالها رنيناً مرعباً يتردد صداه في الأرجاء. تساءلت:

- من الذين ماتوا بجانبك؟

كانت تلهث، وانحنت إلى الأمام ناظرة إلى الحفرة:

- "ما بعرفهم يا عم... أنا ‹آسيا› وهم مش أهلي...

ترتعد برداً وخوفاً، وعيناها تدوران في المكان، تلاحق شبحاً يطوف حولها. ثم ركبت في سيارة الإسعاف، وتطلُّ عليَّ من نافذتها بأمل عجيب. وأنا تائه في السؤال:

- أين عائلتها؟!

لم تعرف أنني أعرف عائلتها. فقد رأيتها آخر مرة وهي طفلة في حجر أبيها، يوم كان هذا الحيُّ لا يزال حياً. ثم ابتعدت في سيارة الإسعاف، وعيناها فيهما السؤال يحوم بجناحيه حولي، يرفرف فوقها في نفس الوقت أعرف الإجابة. أعرفها جيداً.

بعد القصف بعد موت الديك وانقطاع صياحه، بعد أن صار الركام شاهداً على كل ما ضاع، ها هي تخرج من بين الجدران المنهارة، فقد أرسلتها الأقدار لتذكرني بأنَّ بعض القصص لا تدفن مع الموتى. فحين انتشلتها من بين الحديد الملتوي وضممتها إلى صدري، عرفت أن الحرب فشلت في سرقة كل شيء.

فذلك اليوم الذي انقطع فيه صياح الديك، كان هو اليوم نفسه الذي اختفى فيه صديقي وكل من في البيت، ولم يبقَ إلا هي. رسالته المدفونة تحت الحجارة. وبقي سؤالها معلقاً في الهواء ظل لا يغيب.

الجُمَّيْزة

استلمت شهادتي، حينها شعرت أنني أمسك أخيراً بثمرة سنوات من الانتظار. ورقة صفراء تحمل اسمي، لكنها لم تكن مجرد إثبات نجاح كانت سجلاً حياً لطفولة عاشها طفل تحت نير الاحتلال، بين انتفاضة وأخرى، في بيت تكاد جدرانه لا تتسع للفقر، ولا تتسع للأحلام.

عدت بها إلى البيت، وخطواتي تتسارع أخشى أن تُنتزع مني. فما زال الطريق محفوراً في ذاكرتي، الأزقة الضيّقة، الجدران التي تحمل ندوب الرصاص، وجنود الاحتلال عند المنعطف، يتفحصون حقائبنا.

توقفت عند الباب فاجتاحتني الذكريات، أيام مشيت فيها بأقدام منهكة من بلد لأخرى، وأخرى وقفت فيها حائراً بين دفتر جديد، أو قلم رصاص. لم يكن التحدي في الكتاب الدراسي، بل فيما يحيط به، أقلام ناقصة وظلام يعمّ المخيم عند انقطاع الكهرباء، وقلق دائم من اقتحام أو اعتقال.

في الصف أتجنب المقاعد الأمامية لأن دفاتري البالية عار أخشى أن يكتشفه المعلمون. ولأن ثمن الدفتر ثمن رغيفين من الخبز، وفي فناء المدرسة أبتسم بينما قلبي يذوي بأسئلة لا جواب لها:

- هل هناك مستقبل لمثلي؟ هل يستحق العلم كل هذا العناء؟ هل يمكن للأحلام أن تنمو هنا؟

لكنّني واصلت المسير. لم يكن ذكائي سري الوحيد، فهناك أياد تدفعني، فدعوات أمي التي لا تنقطع، وصبر أبي الذي لا ينفد، وأرواح رحلت قبل أن تحقق أحلامها. في كل مرة هممت فيها بالاستسلام، تذكرت زميلي "أحمد زيد" الذي سقط شهيداً وهو يحمل كتبه. وكتابه لم يُقرأ حتى النهاية، لكنني قررت أن أكمل المسير عنه:

- هل أختار ما يحبّه قلبي، أم ألتحق بأي عمل يمسح عن أبي بعض تجاعيد الفقر؟

اليوم أعلّق شهادتي بجوار صورة والدي -رحمه الله- وأعرف أنه لو كان بيننا لقال:

- "هذا أقل حق لك."

وأدرك أن النجاح ليس انتصاراً فردياً. النجاح في عائلتنا هو تتويج لمسيرة جماعية من الألم والأمل، في أرض تجعل من كل إنجاز معجزة. لقد علمتنا الحياة أن نصنع المستقبل كما نصنع الخبز من الدقيق القليل، وكما نصنع الفرح من اللحظات الهاربة. إذا كانت الأحلام في أماكن أخرى تزرع، فهي هنا في المخيم تنتزع انتزاعاً، بصبر أعظم من الصبر، وإرادة أقوى من كل محاولات القتل.

لم تتردّد أمي تلك العجوز الأرملة التي تشع شمسها في سماء المخيم في إطلاق الزغاريد، وهي ترتدي ثوبها الحريري، الذي خرج من الخزانة بعد انتظار طويل، كان يترقب هذه اللحظة ليُزيِّن فرحتنا. دموعها التي غسلت سنوات الحزن، تحوَّلت إلى قطرات من الفرح، لتعود البهجة إلى بيتنا من جديد، بعد أن غادرتنا منذ رحيل والدي في حرب الخليج.

الحجة التي خيرها لا يعرف الحدود، وعطاؤها لا يتوقف، رغم تجاعيد الزمن التي رسمت على وجهها قصصاً من الألم والصبر، إلا أن عينيها تلمعان بحنان يذوب فيه الحزن، وقلبها الكبير يفيض بالعطاء لكل من حولها. سمعتها الطيبة تسبقها أينما ذهبت، حتى أن وسائل الإعلام تتحدث عنها بإعجاب، الحجة أسطورة حية تلهم الجميع بقصتها.

- "ابني صار متعلم وأستاذ، وراح يشتغل في الوكالة."

كلماتها نسيم عليل تحمل رائحة الأمل والمستقبل، لتذكِّرنا بأن الحياة رغم قسوتها، لا تزال قادرة على أن تمنحنا لحظات تشرق فيها الشمس من جديد. هي الأم التي فقدت كل شيء. لكنها لم تفقد إيمانها بالحياة، وحوَّلت حزنها إلى منارة أمل. بكلمات بسيطة وأفعال عظيمة، أصبحت الحجة رمزاً للعطاء والتضحية، تعلمنا بأن الخير لا يموت، وأن الإنسان رغم الظروف قادر على أن يكون نوراً يضيء طريق الآخرين.

تتفاخر أمام نسوة الحارة، ترددها طوال شهر من استقبال التَّهاني، لم تعرف فيه الكلل ولا الملل، وعلب "السّيلفانا" الفاخرة تجمعها مع الهدايا من أطقم الصحون والفناجين، وتكدس أرطال السكر والأرز في زاوية المطبخ وتحصيها:

- "هذه من أم رائد، وهذا من أم جلال، والطقم من أم شحادة..."

قائمة تختزنها في ذاكرتها، ترتب الهدايا حسب الأولويات، فلكل عائلة مناسبة تقترب، تلك ابنها سيتزوج، وأخرى كنتها ستلد، وثانية أضافت غرفة جديدة لبيتها، تقديم المباركة واجب...

- "كل شيء قرظه ودين يمّا، حتى دموع العينين. لمن تتوظَّف على خير وتقبض. بسدّد الزّيارات وبأحسن منها."

في عالم المخيم تصبح الهدايا ضيوفاً دائمين، يتنقلون بين البيوت في المناسبات، نكاد نحفظها عن ظهر قلب: شكلها ولونها ومميزاتها، وحتى عيوبها! نعم، قد تزورنا الهدية نفسها عدة مرات في العام قائلة:

- ها أنا عدت إليكم مرة أخرى.

لكن "الحجة" لها طريقتها الخاصة في التعامل مع هذه العادة الطريفة. فهي تخصُّ علب "السيلفانا" باهتمام فريد، تخبئها بمهارة في "النملية" الخضراء العتيقة، التي أصبح جلدها الخشبي يتجعد ويتقشر من كثرة الاستخدام.

تلك النملية التي تسند ظهرها إلى حائط الغرفة الوسطى بكل وقار، فالغرفة شاهدة على كل الأحداث منذ النكسة.

ولمن لا يعرف "النَّمْليَّة" فهي لها من اسمها نصيب، فقد صُنِعت خصيصاً لمنع النَّمل من التَّسلّل إليها، وسرقة محتوياتها، هي أشبه بالخزنة الخشبيَّة، وفي العادة تكون من طابقين ودولابين في الوسط، ولها مِفتاح لا يفارق عُبَّ ثوب الحجَّة.

هكذا تتحول الهدايا المتكررة إلى جزء من ذكرياتنا، وتصبح "النملية" الخضراء رمزاً للدعابة والحكمة في البيت، تعلمنا أن الضحك يمكن أن يكون أفضل طريقة لمواجهة تقلبات الحياة.

كنا صغاراً، وكيلا ينام الشيطان ننطلق في مغامراتنا الليلية بعد منتصف الليل بقيادة أخي "عبد الحكيم"، الذي كان "لص حلوى" محترف. يتسلل بخفة إلى علبة "السيلفانا"، وينزع غطاءها الشفاف ببراعة فائقة، ويعيده كما كان دون أن يترك أثراً يُدينه. ثم يوزع الحبات علينا بسرية تامة، مع عهد أقسمنا عليه جميعاً:

- "لا اعتراف، لا وشاية"

وذلك لتجنب صفعات "شبشب البلاستيك" الشهير الذي ينتظر من يجرؤ على الاعتراف.

أحتفظ بحبتي تحت لساني أقلبها برفق وحذر، كنز ثمين في فمي أخاف ذوبانها بسرعة إذا ابتلت من ريقي. تلك الحبات الصغيرة تمثل لنا عالماً من المتعة والسرور، في وقت نحلم فيه بأبسط الأشياء. حتى التهمة إذا وقعت، تتوزع بين أخوتي الثلاثة عشر، قضية لا تحل أبداً:

- "من عملها فيكم وسرق السلفانا؟"

جاء يوم الأحد بعد أشهر من الانتظار الذي بدا دهراً بأكمله، وفي ساعة مبكرة من الفجر حوالي الخامسة، والعالم لا يزال غارقاً في سباته، ودَّعت إمام المسجد بقلب مليء بالأمل. انطلقت والقمر يرافقني في رحلتي نحو وظيفتي الجديدة في "مدينة القمر"، المدينة التي بدت جزءاً من عالم آخر.

في تلك الساعة المبكرة، كنت على الأرجح الموظف الوحيد في الشارع الذي يبحث عن سيارة تُقله إلى عمله. فقد طُلب مني التبكير، فدوامي يبدأ قبل أن تستعر حرارة الشمس، وقبل أن يستيقظ معظم الناس من أحلامهم.

فرافقت مجموعة من العمال، وبدأنا رحلتنا المليئة بالمغامرة، نتنقل من سيارة إلى أخرى في سباق ضد الزمن.

الطريق متعرجة تنحدر بنا مثل حية سوداء تسعى بين الجبال الجرداء، التي لم ترَ قطرة ماء منذ آلاف السنين. جبال لا ترتوي، وتقول لنا: "كمن وصل البحر، ورجع عطشان!"

بحرها مات منذ زمن تاركاً وراءه أملاحاً تحيط به، تحنيط لذكرى ماء غادر. الحياة هجرت هذه الأرض بكل أشكالها، تاركة وراءها صحراء قاحلة، وهالة رمادية تحيط بنا من كل جانب. قلت للسائق محاولاً كسر الصمت الذي بدا جزءاً من المشهد"

- يبدو أن كل شيء هنا يتبخر حتى الهواء نفسه.

الرحلة غريبة خرجت من رواية خيالية، كل شيء حولك يدعو للعجب والاستغراب. مدينة القمر بجبالها الجرداء وبحرها المحنط، تنتظرني لتقول: هل أنت مستعد لدخول عالم لا يعرف الرحمة؟

تعييني في مدرسة للوكالة في مدينة أريحا، هكذا أقنعتني مشاعري: عالم آثار في مهمة؛ لينقّب فيها عن.... لا أعلم.

ولكن في بداية مشواري سُدَّت أذناي، ولازمها طنين يشكو للدماغ الطرش الذي أصابها، وعيوني ترقب الأفق البعيد، وتتفحصه بابتهاج غريب؛ لأخرج بنتيجة واحدة قلتها في نفسي:

- لم تتغير المدينة منذ آلاف السنين، إلا أن تاريخها المكتوب على الحجارة نما بإضافة أربعة مخيّمات تزاحم تاريخها الأوَّل.

أطل من بعيد مخيم "عين السلطان" وعلمت لاحقاً أن البابليين اقتلعوا بالقرب من نبعها عيني أحد السلاطين، فكان التفاؤل يطل عليَّ من بداية نزولي عن سطح البحر حتى نبع العين. قصة غريبة تثير الدهشة، خرجت من صفحات أسطورة منسية. وعندما برزت أسوار مدرسة مخيم "عين السلطان" أمام ناظري، شعرت بأنني على أعتاب مكان يحمل في طياته أسراراً. لكنني بدلاً من أن أستسلم للغرابة، وجدت نفسي مغموراً بالتفاؤل منذ أن بدأت نزولي من سطح البحر، حتى وصلت إلى نبع العين. فالتفاؤل يذكرني بأن المكان له قصه تحمل في داخلها درساً أو حكمة. حتى لو تتحدث عن سلطان فقد عينيه، فإنها تظل جزءاً من تاريخ هذا المكان، الذي أصبح الآن جزءاً من حاضري أيضاً.

استُقبِلت بترحاب لطيف بعد اجتياز الباب الأزرق، وتشيد المديرة بالمعلم القادم:

- لم تتأخر، بداية رائعة لمعلم جديد، المسافة بعيدة والمواصلات صعبة.

ضيافتها عابرة وسريعة، توزيع أوامر لا أكثر. قدمت لي فنجان قهوة مُرَّة بلا وجه، تذكير لي بأن الحياة هنا لا مكان فيها للتحلية ولا الوجوه المتفائلة. ثم ألقت في حجري رزمة من الكتب، وكومة من "الكراريس" المبعثرة، وحفنة من الطباشير الملونة.

نبرة صوتها جافة وحادة. حواجبها كالسيف لم تكن تستقيم أبداً، فبينما يرتفع أحدها ينخفض الآخر متقوساً. ثم أضافت بتعليمات سريعة:

- كن رفيقاً للطلاب رقيقاً معهم، عالج مشاكلهم بهدوء ولا تضربهم، وابتعد عن التعصب والسياسة.

كلماتها تخرج حاملة تهديداً خفياً، حسبتها زوجة السلطان التي اقتلعت عينه عند النبع. أشعر بمحادثة مع ملكة متوّجة تمسك بصولجانها بيد من حديد، وتنظر إليَّ بعينين لا تعرفان الرحمة. تعليماتها تبدو قوانين منقوشة على حجر لا مجال لتجاوزها أو مناقشتها.

وقفنا نراقب دخول مئات الطُّلاب إلى المدرسة؛ لننظّمهم في طابور الصّباح، والشَّمس ما زالت تتثاءَب خلف أشجار البلح والجُمَّيز:

- عالمٌ أزرق...

أول كلمة نطقتها بعد الاستفاقة من ذهولي من لقاء المديرة، فالمشهد الذي خطر ببالي لوحة زرقاء تلفُّ المكان كله: العلم أزرق وساريته كذلك، الأبواب والأثاث والجدران، وحتى دفاتر الطلاب وملابسهم. قطعة من السماء نزلت إلى الأرض، أو دخلت قرية السنافر الأسطورية، فاللون الأزرق يحكم كل شيء.

أما الطلاب فهم خليط عجيب من التنوع: أشقرٌ يلمع شعره تحت الشمس، أبيض مثلج، وآخرون ببشرة داكنة كالقهوة الغنية. بينهم لاجئون وبدو وحضر، وجوه تحمل حكايا تختصر طبيعة المكان والسكان، ونوع الحياة التي يعيشونها. فالمشهد لوحة فنية رائعة، تجمع بين الجد والغرابة، بين الواقع والخيال، مكان لا ينتمي تماماً لهذا العالم، لكنه يعيش فيه بكل تفاصيله.

أما المعلمون فأعينهم خلف نظاراتهم تغوص في وجوه الطلاب لتبحث عن كنوز مخبأة في جماجمهم. الهيبة تلفُّ المكان، والمديرة تصرخ في "سمّاعة" الإذاعة الصباحية، توجِّه نداءها لكل سكان المخيم:

- "انتظموا وبكّروا والتزموا بالنظافة والدراسة و...."

قرع الجرس، أو بالأحرى إطار السيارة المعدني (الجنط) الذي فقد جلده وبقي عارياً. يتدلى بجنزير صدئ جانب الساحة، وعندما تضربه بقضيب معدني من جميع الجهات، تحصل على "سمفونية" من الأصوات الرنّانة التي تنافس فرقة موسيقية. واللحظة الأكثر إثارة هي عندما تدغدغ جوفه فيصدر صوتاً يشبه "لهاة الحلق" وهي تترنح من الضحك! نعم، هذا هو الجرس في مدرستنا، حيث الإبداع يلتقي بالإزعاج والفوضى.

بدأت الحصة الأولى، والشمس تشعل نارها في السماء بلا رحمة، تريد أن تذيب كل شيء في طريقها. مروحة عتيقة تتمايل في سقف الصف الخامس الواسع، تحاول أن تنشر نسيماً من الهواء بين أكر من خمسين طفلاً، تبدو عاجزة أمام هذا الكم الهائل من الحر والاكتظاظ.

طُلب مني أن أعلمهم وأثقفهم، وأن أربيهم أيضاً، هنا أحمل على كتفي أعباء عالم كامل بخبرة مجترَّة من ذاكرتي البعيدة، عندما كنت أنا ذلك الطالب الصغير الذي يحلم بمستقبل أفضل.

تفقدت الحضور، أعدُّ الطلاب واحداً تلو الآخر، أحصي سكان مدينة بأكملها. اثنان وخمسون طالباً وطالبة، إلا "سعيداً"، الذي لم يصل بعد، كما أخبرني زملاؤه ببراءة:

- "هيك هو دايماً يا أستاذ"

بدأنا حصة القراءة، لأجد نفسي وتسعة طلاب فقط نقرأ، والباقون يتيهون بين الحروف، وضائعون في صحراء بلا بوصلة. كيف تجتمع هذه الرموز لتكوين كلمات؟ كيف سيفهمون العالم من حولهم إذا لم يفهموا حتى هذه الأساسيات؟ وكيف يفترض بهم أن يبنوا مستقبلاً وهم لا يملكون إلا كتباً ممزقة وبقايا دفاتر، تبرعات منسية من الأمم المتحدة، تغطي صورتها الملونة واقعاً باهتاً، وحروفاً لا يستطيعون قراءتها؟

الأرقام تتحدث في مخيمنا، مدرّسة واحدة لألف طفل، وعيادة بلا أدوية تجيد تحويل الناس إلى صفة "أرمل"، وبئر ماء تصلحه المنظمة مرة في السنة، كي تظل صورتها نظيفة. أما "حقوق الإنسان" و"التعليم للجميع"، فهي شعارات تُعلّق على جدران المؤتمرات الفاخرة، بينما أطفالنا يتعلمون الجوع قبل تعلم الحروف، ويتقنون الخوف قبل إتقان القراءة والسؤال الحقيقي كيف سيفهم العالم يوماً معاناة لاجئ؟

بدأ الغضب يتسلل إلى مفاصلي، وعرقي يتصبب يحاول إخماد نار تشتعل في داخلي خوفاً من أن أفقد صوابي، جلست بجانب النافذة، تلك البوابة المفتوحة على جهنم، تطلق لهيبها بلا توقف. الكرسي الخشبي مليء بغبار الطباشير، غير مريح كفاية ليجلس عليه إنسان يحمل هذا العبء الثقيل. ذلك المشهد وكل هذا العجز والتيه، هو نتاج قهر الاحتلال الذي حوَّل عالماً كان يوماً ما راقياً إلى عالم من اللاجئين في مخيمات تفتقر إلى كل شيء. مخيمات حيث الحروف تتطاير في هواء جاف، والأحلام تدفن تحت ركام الفقر والحرمان.

كيف لأنفاسي أن تهدأ ولعطاسي أن يتوقف، وأنا هنا في هذا المكان، أحاول أن أُعلّم وأن أُغيّر، وكل شيء حولي يصرخ بأن العالم أكبر من أن أحمله وحدي؟

أخيراً، وصل سعيد بالضجة، يدق طبول الحرب على باب الصف المعدني، منتظراً الإذن بالدخول. فاستدرت نحوه، وكادت عيناي تخرجان من مكانهما. جفَّ ريقي وخفق قلبي للحظة، وهو أصيب بالذّهول، ظل واقفاً مذهولاً فاغراً فمه، يحاول أن يتكلم أو يعتذر، أو يبرر تأخره، لكن الكلمات خذلته أمام وجه المعلم الجديد.

سعيد قصير، عقلة إصبع جميلة، لم يكن من عالم الخيال. أذناه الصغيرتان الجميلتان كانتا الوحيدتين اللتين تبدوان في مكانهما الصحيح. عيناه الحمراوان تلمعان، تحذّران من خطر ما، وبنطاله الأزرق من الجينز يحمل سراً غريباً: له رجل واحدة فقط!

نعم، الرجل اليسرى عارية حتى أعلى الفخذ، بينما اليمنى كانت محظوظة ببقايا الرجل الثانية من البنطال. قميصه الأزرق تحول إلى لوحة فنية بفضل قلّة الغسيل، وشعره المجعّد يخفي بداخله بقايا قشٍّ صغيرة، تبادر إلى ذهني أنّه يحضّر لبناء عشٍّ للطيور. وعلى كتفه جِرابٌ قماشي ممزق يحمل بقايا أوراق وكتب، ومن أحد ثقوبه يتدلى قلم رصاص مكسور الرأس يقول: حتى الأقلام هنا تيأس.

حذاؤه تحفة فنية أخرى، حيث نبتت فيه أعشاب قصيرة، إما من الوحل المتراكم، أو لأنها قررت أن ترافقه في رحلته اليومية دون أن تسأل عن وجهتها.

لم أجرؤ على زجره أو لطمه، فقد بدا لي أحد أبطال قصة الأقزام السبعة، خرج من مخبئه في كهف جبل "القرنطل" المطل علينا. الفرق أنَّ سعيداً لم يكن يعيش في عالم صنعه الاحتلال.

هكذا وصل سعيد، ليس طالباً متأخراً، بل شهادة حية على أوضاع تجعل من كل شيء عادي معجزة، ومن كل معجزة مأساة. لم أكن أسخر من سعيد...

كيف أسخر من طفل يحمل بين ضلوعه هذا الصمت والقهر؟

هو في نظري مجرد شاهد حيٍّ على عالم المخيم الذي لم يختره، عالم يحفر جروحه في جسد الطفولة قبل أن تعرف معنى الجرح. سعيد ليس متأخراً عن الحصص. الوقت نفسه قد تخلى عنه، مثلما تخلى عنه العالم بأسره. جاء إلى الصف رسالة موجعة من المخيم إلى الإنسانية: "انظروا. هذا ما تفعله بنا الحياة حين تتحوّل إلى مجرّد انتظار للمعجزة.

سعيد يعرف أن حذاءه المهترئ سيبقى معه حتى بعد موته، لأن أحداً لن يجلب له آخر. يعرف هذا كما يعرف أن الشمس تشرق على أطفال غيره في أماكن أخرى بلا حاجة إلى تصريح عبور. في مخيمنا حتى الخوارق تأتي ناقصة. قد تحصل على قلم جديد، لكن لن تحصل على وطن تكتب عنه.

عاد الاستقرار لتفكيري، ورسمت ابتسامة لطيفة، وقلت مُرحّباً:

- تفضل يا سعيد، لا تتأخر مرَّة أخرى، وانتظرني بعد انتهاء الحصة يجب أن نتكلَّم.

كلانا يرمق الآخر من طرف عينه طوال الحصة في مسابقة "من يرمش أولاً يخسر. كلما التقت أعيننا يخفضها بسرعة، يلعب "الاستغماية" بعيونه. ونظراتنا تتقاطع مثل خطوط الطول والعرض على خريطة فلسطين. كلاهما موجود نظرياً، لكن لا أحد يعترف بهما على أرض الواقع. وبدأت أظن أن قصة إعجاب خجولة بدأت بيننا أشبه بمسلسل درامي مصغر. نظرات سريعة وابتسامات مكبوتة، وقلوب تنبض، واستمرت هذه "الدراما" حتى قرع الجرس، فانتهت الحلقة بلا خاتمة واضحة.

تحت الظل سنكون بعيدين عن الضجيج، فجلسنا في طرف الممرّ مقابل الساحة تحت شجرة "الجُمَّيْزة" واتفقنا مبدئياً أن تكون مكاناً للقائنا، والطّلاب يقفزون أمامنا كالأرانب، يسرحون ويمرحون في السّاحة التُّرابيَّة الواسعة، ومشهد الغبار المتصاعد من أقدامهم، ووجوههم المحمرَّة وصرخاتهم القصيرة نتيجة اصطدامهم المفاجئ ببعضهم؛ ذكرتني بأفلام الغزوات، فتجاهلت كل ذلك متسائلاً:

- ماذا تفعل يا سعيد كل يوم؟
- أنا سعيد... اليوم هو ...
- فقاطعته، أسألك ماذا تفعل؟!
- "ما تضربني يا أستاذ. المعلم جمال كان يضربني بالبربيش لما ما أعرف الجواب."

فقطاعته ووضعت يدي على كتفه برفق: لا تخف لا يوجد "برابيش" ولا غيره. ولكن أجب عن سؤالي.

- "بشتغل في الحواكير. بنزرع ونحصد، وبنربي الماعز وبنعمل الجبن والجميد وأشياء كثيرة..."

بعد حوار قصير بإجابات موجزة، واستفسارات مختلفة؛ بدت لي أخلاقه الطَّيبة، فعيونه تلمع ذكاء، له من سعة الصَّدر والأناة ما يجعله يجيب على الاستفسارات كلّها. ولكن لا بدَّ من السؤال الجوهري الذي بقي يتيماً، وأتردَّد في طرحه:

- لماذا ملابسك ممزقة؟

ابتسم سعيد بذلك الخجل الطفولي الذي يذيب القلوب، حتى احمرّت خدوده، ووصل وهج الخجل إلى محيط عينيه، فبدتا بحيرتان صغيرتان تلمعان بالحياء. خفض يديه محاولاً أن يغطي فخذه العاري، وبدأ يتحدث بكلمات بدوية متفرقة، تنساب متساقطة من قصته المؤلمة:

- "ولدت أمي أختي زينب في ليلة المطر يزخُّ بقوة، وما عندنا يا أستاذ شرايط لتحفيظها، فمزّعت الداية بنطلوني لتحط رجله حفّاظة، ما كان غيره على عمود الخيمة."

داهمتني ضحكة لم أستطع كبحها، فالرواية عجيبة إلى حد لا يصدق، لكنني سارعت إلى طمأنة كرامته، بأن مثل هذا الأمر قد يحدث لأي منا في ظروف قاسية. ثم سألته محاولاً فهم كيف يستطيع أن يعيش بهذه الظروف:

- "أين تستحم؟ وأين تنام؟ كيف تدرس؟!

أجاب ببراءة تدمي القلب:"لما أرجع من المدرسة، بغطس في مجرى "نبع العوجا" جنب الطريق، ولما أوصل بيت الشعر يعني ‹الكشك› يا أستاذ، بكون نشفت. وبنام عند المعزات لأحرسها. لأنه الذيب بيهجم عليها. وبدرس في المدرسة الصبح... وبنجح كل سنة"

مشاعر كثيرة اجتاحتني، تحمل معها الألم والإعجاب في آن واحد. على عتبة أفكاري أيقنت أن سعيداً من ذلك النوع الذي لا يثنيه شيء عن عزمه، ولا يضعف إرادته حتى أقسى الظروف. فقلت له، وأنا أحاول أن أخفي رعشة صوتي:

- أنا سعيد مثلك، وبالتعرف عليك زادت سعادتي.

خلف هذه الكلمات هناك ألمٌ أعمق، ألم يعبث به الاحتلال في كل تفاصيل حياتنا. الاحتلال الذي حوَّل حياة سعيد وحياة الكثيرين مثله، إلى سلسلة من المعاناة اليومية. الاحتلال الذي يجعل من بنطال طفل حفّاظة لأخته، ومن نبع الماء حماماً، ومن بيت الشعر مأوى لا يحمي من برد الشتاء ولا حر الصيف. الاحتلال الذي يسرق حتى أبسط حقوق الإنسان، ويترك الأطفال يحرسون المعزات من الذئاب، بدلاً من أن يلعبوا ويدرسوا في أمان.

ذلك الفتى الصغير رمز لصمود لا يُقهَر، وشاهد على "تراجيديا" محزنة يعيشها شعب تحت وطأة الاحتلال.

ثمّ أردف متفاخراً ونصب قامته مستخدماً أصابع قدميه محاولاً أن يصل إلى مستوى قلبي، ويديه على خصره:

- "كمان أنا شاطر يا أستاذ، ببيع جبنة ولبنة و"مخيظ"، وإذا بدك بجبلك بكرة رطلين جبنة؟"

حوارنا محزن وكئيب، وأشجانه مؤلمة تقبض الصَّدر، شيء مدهش أن يعيش طفل ظروفاً مماثلة، ثمَّ يأتي إلى المدرسة، شعرت أنَّه لا يريد إنهاء الحوار بيننا. ولم أفهم قصده بكلمة "نجاح".

- هل نجاحه بالتَّغلب على بؤسه وعمله الذي يشغل تفكيره؟ أم يقصد نجاحه في الدراسة. لعلَّ الأيام تجيب عن أسئلتي دون دهشة.

- هيا لنغادر، قد أحرقت الشمس ظهورنا، وتبخرت أدمغتنا يا سعيد.

من الواضح أنَّ "سعيداً" يتَّقد ذكاء، وعلى العموم لدي أفكار تخصه، وأحياناً يأتيني شيطان الإحباطات:

- هل ستضيع وقتك في تغيير العالم؟

- ما أحلاك يا أستاذ!

أول جملة سمعتها في اليوم التالي تحت "الجُمَّيزة" قد أسعدتني حقاً، ولكن بشكل جزئي؛ لأنّه لا يعلم أن ملابسي قد اشتريتها من "تحويش نقوط" تخرجي، وما زلت أنتظر الراتب الأول؛ لأتوقف عن اقتراض مصروفي من أخي "يوسف" الأكبر مني والذي يعمل بائعاً.

انتهى اليوم الثاني ثم تلاه العاشر، الزمن ينساب ببطء مؤلم. سعيد يكبر كشتلة ريحان هزيلة، تحتاج إلى الري والعناية، لكنها تظل تصارع من أجل البقاء في تربة قاسية. كان بارعاً في إحضار مكونات "قلاية البندورة"، تلك الوجبة البسيطة التي تتحول إلى طبق فاخر. يتسلل خفية عن عين المديرة، قافزاً فوق الجدار إلى الحقول القريبة، ليجمع ما تيسر من البندورة والبصل، ثم يسلّمها بسرية إلى "الآذن" في المطبخ. القلاية برائحتها التي تملأ المكان، تشعرك بهيبة الجهد المبذول لإحضارها وإعدادها، وحرارة الشطة فيها تشعل ناراً صغيرة تُذكّرنا بحرارة الحياة التي نعيشها.

انتهى الشهر الثاني، والأيام تتراكم في أجندة دوامي، صفحات من معاناة لا تنتهي. مشاعري تتبدل لكن الواقع بقي كما هو، لا شيء يتغير كثيراً. بدأت حالتي المزاجية تألف المكان، وأحببت لقاءاتنا تحت الشجرة مع كوب الشاي، رغم أن حرَّ الشمس يطبخ دماغي يومياً، فيذكّرني بأنّ الراحة هنا لها ثمنها الباهظ.

أذكر يوماً تأخرت فيه عن الحصة، بعد أن اشتعل جسدي بالحرارة، فذهبت إلى المطبخ باحثاً عن ملاذ بارد. أزلت رفوف الثلاجة، وتكوّمت بداخلها، محاولاً إعادة ضبط حرارة جسدي، لأن ناراً تأكلني من الداخل. "الآذن" أمسك بي، وبدأت نميمته تنتشر بين المعلمين مع تجواله في سجل "الحضور والغياب"، فتحولت إلى طرفة للتندر والفكاهة لبعض الوقت.

في طريق العودة، بالقرب من "المعرجات"، رأيت سعيداً يقفز في الوادي، أسرع من الظبي، يحاول الابتعاد مسرعاً من شيء ما. وفي الأفق مخيم صغير من الخيام السوداء يلوح كشامات على جسد الأرض. هكذا هي حياتنا، سلسلة من المعاناة التي لا تنتهي، حتى في أبسط لحظاتنا، فالحاجة تلاحقنا في كل تفاصيل وجودنا.

- لقد رأيتك مسرعاً أمس في طريق العودة؟
- "لازم أحلب المعزات والخرفان يا أستاذ وأشربهم وأطعميهم..."
- هل التزمت باتفاقنا؟
- "نعم، حفظت الآيات والأناشيد، نسخت الدَّرس ثلاث مرات، كتبت الإملاء، وخطي صار حلو"
- وجهك أصفر قليلاً. عيونك. أم ماذا؟
- "من التَّعب والشّوب يا أستاذ..."
- ممكن، لكن انتبه لنفسك أكثر.

تسرع الأيام أكثر وسعيد يزداد تعلُّماً، ولم يخيّب رجائي فيه، رغم عدم مقدرتي على تغيير نوعيّة حياته، أو حتى ملابسه، إلا أنه أثبت قدرة فائقة على التعلم، وهو الشّيء الوحيد الذي تغير فيه حسب ظني. لقد أحببت هذا الطّفل المشاكس، ويعجبني عناده وإصراره، وأذكر يوماً قال:

- "ليش تهتم فيِّي يا أستاذ؟"

سؤال بسيط في ظاهره، ولم أتوقعه، ولم أكن مستعداً للإجابة عليه. لماذا هو بالذات دون الآخرين؟

لماذا يثير فيِّي هذا الاهتمام الذي لا أعرف مصدره؟ فأجول في عقلي وأسائل نفسي:

- هل لامست حياته مشاعر دفينة فيَّ، نغمة قديمة أعادتني إلى زمن نسيته؟

أم أن قصته نبشت أوجاعاً مختزنةً في أعماقي من ماضي المخيم الذي ما زال يعيش فيِّي رغم كل هذه السنوات؟

لم أجد إجابة واضحة، فقلت له محاولاً إقناع نفسي قبل إقناعه: إنني يا سعيد أحاول أن أتحوَّل بك من حالة عدم الرضا إلى الرضا."

التساؤل بقي معلقاً في الهواء من ملامح وجهه:

- هل الرضا ممكنٌ في عالم مثل عالمنا؟ وهل اهتمامي به هو محاولة لإنقاذه، أم لإنقاذ شيء فيِّي أنا؟

السؤال يبدو أكثر غموضاً من الجواب، باب مفتوح على أسرار لا نعرفها، ولا نعرف إن كنا نريد أن نعرفها.

تحوَّلت ملامح وجهه إلى شكل غير مفهوم من جوابي، يقف أسفل درج السَّاحة تحت الجُمَّيْزة، وقد سقطت على رأسه بعض الأوراق المصفرَّة، عندما رفع رأسه لينظر إليّ من تحت ذقني بدا وجهه غريباً، ازداد نحافة وصار مثل عرجون نخل جاف، بدت عيونه دائريَّة صفراء مبيضَّة، كعيون سمكة مجفَّفة غائرة بالملح، وزادت حزناً بعد أن سقطت رموشها الجميلة:

- أنت مريض؟!
- "يا أستاذ، بطني بيوجعني دايما، والسخونة معي ليل نهار..."
- و ...
- "أنا تعبان كثير يا أستاذ ومستوي، ومفاصلي كمان ضعيفة."
- أذهب للطبيب في عيادة المخيم فوراً.
- بكرة بس أجيب كرت الوكالة.
- لم يحضر سعيد؟!

سؤالي بقي دون إجابة من الطّلاب، اكتفوا بالنَّظر إلى مقعده يقولون لي: الجواب أمامك، وما عليك سوى النَّظر. ولكنَّني لا أراه بشكل قاطع، فاليوم هو الخميس، وسيغادر الجميع والبهجة تتبعهم، إلا سعيداً سيبقى صدى صوته في مقعده، شقاوته في قرع الباب حاضرة، وبريه للقلم بالشَّفرة التي ينتزعها من المبراة مثل من يشحذ رُمحاً، بقايا الخشب على الأرض تشهد بذلك، حتى الحفرة التي حفرها في مقعده ما زالت ممتلئة ببقايا المِمحاة.

ذهبت إلى الشَّجرة لأستطلع المكان، ولم تكن هناك سوى بعض الوريقات الجافة تطوف حول نفسها من زوبعة هواء. عدت إلى البيت وتفكيري ما زال معلقاً على شجرة "الجُمَّيزة" وعيوني تتجول في طريق "المعرجات"، خيالي يطوف حول مضاربهم؛ علَّ الاطمئنان يعود إلى قلبي عليه، أغيب عن الشَّارع في حلم يقظة متخيلاً أنَّني صنعت طبيباً أو مهندساً للمستقبل.

أيام صعبة قضيتها في إجازتي غارق في التَّفكير، نومي تقاطعه متلازمة الهواجس المزعجة، أفتّش في أركان ذاكرتي عن فكرة تقلب الأمور بضربة حظ، فصعوبة شرح الشعور كفيلة بأن تجعلني حائراً طوال الليل. حتى الحجة ظننت أنني واقع في غرام ما. وبدأت تضع الشروط، وتمهد للإجراءات.

أطل يوم الأحد فنهضْت قبل الشَّمس أسابق ثعالب الطريق، وصلت المدرسة و"الآذن" يفتش في قلادة مفاتيحه ليحرك الباب الأزرق من مكانه، فبدا لي من بعيد فيلاً ضخماً مصاباً بالاكتئاب والحزن.

لم أنتظر كثيراً وقررت زيارة خيمتهم، أو كما يسمونها: "مضاربهم"، ذهبت ماشياً على خطى سعيد وقطيع أغنامه، والسَّماء تتخذ مسْحة حمراء مائلة إلى الاصفرار، فذكَّرتني بعيونه كما رأيتها آخر مرّة، دخلت الخيمة، وكانت مستودعاً لكلّ شيء، تفوح منها رائحة خبز الطَّابون المحترق ونكهة الحطب، ورائحة الرَّوث تشاركنا أنفاسنا، كان مُمدَّداً على فرشته في طرف الخيمة بجانب عمود أعوج من شجرة سرو، وعلى الطرف غصن مقطوع منها عُلِّقت حقيبته، وخيوط من الشَّمس تخترق الشّادر العلويّ، فتساهم في إشعال الحمى في وجهه، وشفتاه محكمة الإغلاق، تبكي أمّه بجانبه وتسقيه "ما هبَّ ودبَّ" من: الميرمية، واليانسون، والبابونج، جلست بجانبه بعد تحية مختصرة، عرّفتها بنفسي والألم يعتصر قلبي، ويضغط على معدتي؛ ليحرضها على أن تضرب عن العمل:

- سلامتك يا سعيد...

أمسكت بيده، باردة رغم الحرارة المشتعلة في المكان. نظر إليَّ متمسكاً بابتسامة طفل عليل، تغيّر لون جلده، ويحاول النّهوض احتراماً لمعلمه فمنعته، تحسّست جبينه وكان يغلي، فسألت والدته:

- ماذا قال الطَّبيب؟

نظرت إليَّ بعيون غائرة، تقطر بُكاء أسود يختلط بكحل عينيها، وعويلُها تخنقه بشالِها الأسود، أحسست بأنَّني أقف مواجهاً للكآبة بجميع صورها، فقلت في نفسي: هذا الحظّ العاثر يمكن أن يحدث لأيّ ساكن في الخيام. يبدو أنَّها اعتادت هذا العذاب قبلنا.

قالت منكسرة:

- طبيب؟!، لم يذهب إلى أيّ مكان، فقد كان منشغلاً في أعمالنا.
- أحضري لي بطاقته، سآخذه إلى المستشفى. بسرعة.

حملته على ظهري ونزلت التّلة مهرولاً، تلحقني وصراخها كمن خطف وليدها، وتهرب العقارب من أمامنا، والغبار خلفي يخفي وقع الألم والخطى، أسابق الزَّمن لأشتري له بعض الوقت، فاستوقفت أول سيارة لاحت في الأفق، عندما دخلنا المستشفى كان بارداً مثل قطعة رخام انتزعت من أحد القصور.

- اطمئن... سنقوم باللازم... اجلسوا هناك.

قالها الطّبيب دون أيّ ابتسامة أو ملامح مُبشّرة، اختفى الجميع في غرفة بعيدة، فتسلّلت إليهم، حوله جمهرة من الأطباء والممرّضات، بدا المشهد ملائكياً لمعالجة روحه، وأضحى آلة موصولة بالأسلاك والأنابيب؛ لحثها على العمل.

سُمح لنا بالدخول أخيراً، ومرَّ الوقت وأنا بجانبه على السرير، أراقب خيطاً أخضر يسير في الآلة المتصلة بجسده، الخيط يحاول أن يرتفع للأعلى لكن دون جدوى، أمسكت يده وهمست في أذنه:

- سأنتظرك تحت الجُمَّيزة كل يوم. لا تتأخر.

فارتفع المؤشر قليلاً وأصدر صوتاً مُغايراً عما سبق، فاعتبرت ذلك وعداً منه بالحضور.

في اليوم التالي لليوم الرابع لغيابه، وقفت على باب المدرسة متكئاً على سارية العلم، أنتظر قدومه كما أفعل يومياً، والوقت توقف عند هذا الحدث الذي لم يعد يحدث. الانتظار....

نظرت إلى العلم، ورأيت لونه الأزرق تبخر تماماً، ذاب مع الأيام، والكرة الأرضية المرسومة عليه بهتت، وفقدت بريقها، وسنابل القمح الجافة حولها بقيت وتوشحت بالبياض.

قلت للمعلم المناوب وأنا أحاول أن أمسك بخيط من الأمل:

- لقد تأخر اليوم كذلك؟ هل سيخلف وعده لي.

لم يجبني واكتفى بنظرة حزينة حتى دخل آخر طالب إلى فناء المدرسة، والحياة تستمر بلا توقف. ثم جاء "الآذن"، يجرجر قدميه ليغلق الباب. صرخت فيه:

- توقف! سعيد لم يصل بعد.

الباب أُغلق وختم على فصل من حكاية لا أعرف كيف ستنتهي. بقيت واقفاً أنظر إلى الطريق الفارغ، أنتظر شيئاً لن يأتي.

السنابل الجافة على العلم تهمس لي بشيء ما لكنني لم أفهم. الغياب يلف المكان، ولم أعد أعرف إن كنت أنتظر سعيداً، أم أنني أنتظر أن أفهم ما حدث.

ما أدركه أن شيئاً ما قد انتهى، دون أن أشعر كيف، أو متى؟!

الحـاجــز

(إهداء إلى شهيد يوم الأرض أحمد الشَّيخ اللّحام)

غادرت الشمس سماء المدينة باكراً، تاركة إياها غارقة في الظلام والكآبة. الحواجز العسكرية تخنق أطرافها، تقطع شرايين الحياة والحركة، حولت الحياة فيها إلى انتظار طويل، وتترك رائحة الدم، وصوت الألم يملآن الجو من كل اتجاه. فالمدارس مغلقة، والمستشفيات مكتظة ولا يجد بعضهم أسرّة أو أدوية. في المقاهي يجلس الرجال صامتين أمام شاشات التلفاز، الأسعار ترتفع والخوف ينتشر، وتحت أنقاض هذه الأيام الصعبة، لا يزال الأمل ينتظر.

بينما عجوز في طريق "بيرزيت" تنشر ملابسها المبلّلة على حبل الغسيل، توقفت برهة لترمق الشارع المغلق. زوجها ممد على الأريكة ينتظر وراء النافذة، ينصت لخطواتها البطيئة، يتابع نبض الحياة الوحيد الباقي.

في الشارعِ المجاور طفل يعبث بالكرة، يركلها نحو الجدار مراراً، يحاول كسر الصمت. صوت أمّه يندفع خائفاً:

- ادخل يا حبيبي

لكنه يلتفت إليها بعينين لامعتين متحدّياً ويصرخ دون كلام: الحياة لم تمت بعد طالما بقينا نركل جدار الصمت.

المدينة التي ما زالت تلملم جراحها النازفة بعد اجتياح خفافيش الظلام، جسدها مهشم يحاول النهوض. أحياؤها المُنهوبة كالكتب الممزقة، وأقمارها - أولئك الذين كانوا منارة ودرعاً - صاروا ذكريات تُروى همساً. حتى الحواجز العسكرية هنا ندوب يلمؤها الصديد في جسد الأرض، الاستقلال الوهمي احتلال يغير جلده فقط، تذكّر الجميع بأن الاحتلال لم يغادر أبداً أحياء المدينة. إنّما يستلقي قليلاً ويُقلّب وجهه تحت الشمس، ثمّ يعود باسم جديد: اتفاقية" "حكم ذاتي"، أو "سلام" فأقول لـ"هادي" عبارة لن يفهمها اليوم:

- أيها المصدقون أسواركم سقطت، ألستم ترون كيف تمسك أيد خفية بمفاتيح المياه والكهرباء؟

كيف تخصص الطرق للغرباء، وتحاصر القدس حتى في خرائط "الدولة الحرّة؟

الاستقلال المزعوم مثل ملابس العجوز التي تعلّقها على الحبل، تظن أنها تنشرها بحرّيتها، لكن الحبل نفسه ملك لسيّد البيت القوي الذي يراقبها، لكنه يستريح قليلاً.

وسيارتي العجوز تشكو قلة الوقود الذي أوشك على أن يجفّ. محركها يصدر صوتاً كآلة طحن قمح عتيقة، وطلاؤها الأزرق يتقشر تبدو مصابة بالبهاق. والمصباح الأيسر أعمى، والدخان يتصاعد منها. في الداخل أكياس الخضار والخبز مكومة بفوضى، ودجاجة مذبوحة تتربع بجانب سَفط البيض الذي أوشك على الفقس من طول الانتظار. الخروج في السيارة والعودة إلى البيت بين الحواجز يشبه محاولة انتزاع شوكة من إبهامك في الظلام الدامس. وبجانبي ابني "هادي" يتسلى ببندقية بلاستيكية، يلعب والعالم خارج السيارة يلعب بنا أيضاً.

الحاجز العسكري يقطع الشارع اليتيم، وعشرات السيارات متوقفة في المنحدر، سرب من الطيور المحاصرة في قفص. قلت في نفسي:

- هذا مركز توقيف وتحقيق مفتوح، أو معبر دولي بلا حدود.

والحقيقة أكثر بشاعة. هذا هو الاحتلال، يحول كل شارع إلى سجن ومأساة، وكل لحظة إلى معركة من أجل البقاء. وما زلت أُمعن النّظر في المشهد، والقهر يلفُّ المكان، فسألني هادي:

- ما هذا يا أبي؟

- إنه حاجز، يعطل حياتنا وحريتنا، فاليوم كان حافلاً بالمواجهات؛ ليعبّر النّاس عن رفضهم للاحتلال، بعيداً عن الخطب والمهرجانات، فاليوم "ذكرى يوم الأرض".

- ماذا يعني يوم الأرض يا أبي؟

يوم الأرض هو اليوم الذي امتدت فيه مشارط الاحتلال لتستأصل مزيداً من أراضينا، لكنها فشلت في اقتلاعنا من جذورنا. كان ذلك في مثل هذا اليوم من عام (1976) م، عندما وقف أجدادك جبالاً صامدة في وجه آلاتهم، وقالوا: هذه أرضنا، ولن نرحل...

ثم نظرت إليه، وابتسمت: لا تقلق يا هادي، أرض الفلسطيني تنبع من تحت قدميه، ومهما حاولوا، فلن يجف النبع. الأرض تعرفنا ونعرفها، وهي تروي لنا قصص الأجداد الذين سقوْها بدمائهم.

يبدو أن السهرة ستطول، فلنملأها حديثاً عن أرض لن نبرحها، مهما اشتدّ الليل. فنحن -يا ولدي- أبناء شجر الزيتون، كلما هزّونا تشبثنا بترابنا وجذورنا. ليفهم هادي وغيره، أن سقوط المتخاذلين ألف مرة، لا يعني أن نسقط نحن ولو مرّة. لأنّ هذه الأرض ليست مسكناً نرحل عنه، بل هي جلدنا الذي لن نخلعه، ودمنا الذي لا يُهرقُ إلا هنا.

ردّدَ معي بعض الآيات، وراجعنا واجبات الدراسة، جدول الضّرب صعب علينا، واستمعنا للأناشيد والأهازيج، ونشرة الأخبار تطل من المذياع كل دقيقة، ونرقب الناس من حولنا، فمنهم من يغطُّ في نومه، وآخرون أحاديثهم شكوى معتادة من الظلم والقهر وضنك المعيشة. وصغار يطلبون الحليب، وعجائز تسلَّل الإجهاد إلى عظامهم.

بدأ الشارع يستيقظ من سباته، والسيارات تفتح عيونها الواسعة، وأصوات محركاتها تعلو. اجتازت السيارة الأولى الحاجز، ثم تبعتها أخرى، حتى جاء دورنا. تقدمت سيارتي مثل سلحفاة أعياها الانتظار، وتعرف أن ما ينتظرها هو مشهد من مشاهد القهر.

ولما لامست دائرة ضوء مصباحها الحاجز، طلع علينا جنديٌّ دميم الوجه، خرج من ظلام أبديٍّ، يختبئ في جمجمته وعينيه وقبحه صامت، لكنه صارخ في نفس الوقت، يجسد كل القسوة والظلم الذي يمثله.

ضممت هادي إلى صدري، محاولاً أن أمنحه دفء جسدي، وقلت له بصوت هادئ لكنه حازم:

- لا تخف، قبحهم دائم. والخوف منهم يجب ألا يتسلل إلى قلوبنا. هم مجرد ظلٍّ عابر على أرضنا، ونحن شجرها الذي لا يُقتلع.

كلماتي من مخيم يحمل في طياته قوة الأرض التي ننتمي إليها. تذكير بأن جمالنا وقوتنا تكمن في إصرارنا على البقاء، رغم القبح الذي يحاولون فرضه علينا. لأتفاجأ برفضه اللجوء لحضني، فقد ملَّ حكايا اللجوء والتراجع، ووقف أمام الزجاج مقابلاً له ممعناً النظر في دمامة وجه الجندي، فقد رأى مسخاً سمع عنه قرآناً يتلى، وبندقيّته البلاستيكيّة تتأهب للمواجهة.

فتحت النّافذة فاقترب الجندي بحذر طالباً الهُويّة، فإذا برائحة نتنة تفوح منه، رائحة كلب تغذّى على لحم خنزير منقوعاً في عصارة القذارة. لم أتمالك نفسي إلا بابتسامة ساخرة لم تدم طويلاً، وقلت له:

- خُذ!

فقلَّب الهُويَّـة بيديه، وجحظ بعينيه، وقال: "أهاا"... من المخيَّم؟

وفي صوت غير مبال أجبته: نعم، أنا من مخيَّم الجلزون.

ارتمى الجندي على مقدمة السيارة، وجعل غطاء المحرك سريراً وفتح ذراعيه على اتساع الغطاء، يحتضن ذكرى ليلة سوداء، ليلة كان فيها جلاداً بلا رحمة. تمرّغ فوق الغطاء ليحاول أن يعيد تمثيل مشهد من ماضيه الدموي، مشهد يجتمع فيه المجرم الجلاد والحكم في آن واحد. حركاته تشي بهوس غريب، يعيد تمثيل تلك الليلة التي خرج فيها من ظلام المخيم، حاملاً معه غضباً مكبوتاً وانتقاماً أعمى. قهقهته تتصاعد، صدى لضحكة شيطان يتراقص على جثث الأبرياء.

جفَّ لساني عن الكلام وأنا أتأمل المشهد المروع. عاد إلى النافذة ووجهه يتصبب عرقاً، وقال بصوت متهدج مليء بالتباهي، مريض هارب من مصحة للأمراض العقلية:

- لقد كنت في المخيم ليلتها! في مثل هذا اليوم تماماً... هل تتذكر أحمد؟

قسوة لا حدود لها، فقتل طفل بريء هو مجرد خطوة في مسيرة انتقام مجنونة. وجهه يعكس تلذذاً مريضاً، يشعر بالفخر وهو يتحدث عن جريمته، وروح أحمد التي أطفأها بدم بارد، ما زالت تلوح في عينيه كشبحٍ يطارده.

هذا هو الاحتلال. قوة مهووسة بالدم، تتباهى بقتل الأطفال وتتلذذ بآلام الآخرين، تبحث عن خلاص في القسوة، لكنها لن تجد إلا المزيد من الخزي والعار.

ترجع بي الذاكرة أعواماً إلى الوراء، أفتح كتاباً قديماً صفحاته ممزوجة بالألم والفخر. كل سطر فيه يذكرنا بأن المأساة لا تطوى، بل تورث. يتجسد الماضي أمام عيني، شريط سينمائي يعرض تفاصيل ليلة لا تنسى، ليلة فيها الأرض تنزف غضباً، والسماء تشهد على انتفاضة من عمق القهر. في الخارج وقف الشباب ومعهم أحمد، جبال شامخة ينتفضون دفاعاً عن الأرض في يومها، يُحْيُون ذكرى الأجداد الذين سقوها بدمائهم. الأيادي كثيرة التي ترمي الدخلاء بالحجارة، ثورة تخرج من صميم الألم، كل حجر يصرخ: هذه أرضنا.

إطارات تتدحرج وزجاجات حارقة تتطاير، شهب من فوق السقوف، أو نجوم ثاقبة سقطت من السماء؛ لتضيء طريق المقاومة.

"سيدي أبو العز" ينقل في سيارته دفعة من الرايات والأعلام، يحمل أرواح الأجداد على كتفيه. وشاب ملثم بكوفيته الحمراء، يُحكِم ربط حذائه الأبيض، يستعد لمعركة لا مجال فيها للتراجع. يخطُّ شعارات على الجدران، ملأت المكان برسائل التحدي، وأتذكر منها: "لنكن من الشهداء في يوم الأرض..."

عبارة من شعارات كثيرة رسمها صاحب الخطِّ الجميل، الشَّهيد "أحمد"، فبعد أن فرغ من واجبه التَّطوعي في تعليم صفوف محو الأميّة؛ يقود صفوف الثائرين إلى مدخل المخيم، ويعلّمهم صرخة الوطن الواحد، جبهة رفض ثورية تتقدَّم الأحداث. وهتافهم:

- "ليسقط الاحتلال، وفلسطين من بحرها إلى نهرها..."

ليلة فيها أرواح بدأت تعلن استقلالها في الزّقاق، وطيور أبابيل تعلو كيانهم، وتنشب مخالبها بقوة على حجارة رطبة، فقد هاجر الخوف بلا رجعة، وتشتعل في سريانها فوق أجساد الغزاة، لتتفكَّك بعض أسنانهم، وتعتصر الدّماء من أيديهم.

كانوا جميعاً مثل الحواس الخمس في جسد المخيم الواحد، كل فصيل يؤدي دوره بانسجام وخبرة، لحن المقاومة يحفظه الجميع، فالحاجة "حفيظة" تنقل الحجارة من حاكورة بيتها، وكَنَّتُها تطفئ أدخنة الغاز بدلو الماء، وأبو "جميل" ينقل الإطارات ليبني سداً منيعاً أمام عيونهم. أمّا الحجة "فخريّة" فتوزّع البصل والماء والطَّعام بيد سخية، فهو وقود ليالي المواجهات، وضَرَّة الحاجة "سعديّة" تراقب تحركات الجنود عن سطح بيتها، وتصرخ الحاجة " فتحيّة" على الشّباب لتحذيرهم، بينما الحاجة "عريفة" تودِّع ابنها والجميع بين كرٍّ وفرّ.

قبل ذلك كان أحمد يلاطف أخاه الأصغر بيد حانية، ويمسح على رأسه بلطف، يحاول أن يمحو آثار الألم التي تركتها هراوات الزبانية ولكماتهم على وجه الصبي بعد عودته من المدرسة. يشدُّ من أزره ويبتسم له. ثم قال له بصوت هادئ، يحمل في طياته حزناً عميقاً:

- لا تبكِ. كُن رجلاً، فالدموع ليست للرجال. سيعود وجهك ضاحكاً، كما ستعود أرضنا محررة. وسأهديك كوفيتي بعد العودة.

وداع يختفي خلف الكوفية الحمراء، أحمد يعلم أن هذه قد تكون آخر مرة يرى فيها أخاه. ابتسامته دائماً مصدر للفرح، بدت هذه المرة تحمل الحزن، وتقول: سأفعل ما بوسعي لأجلك، حتى لو كان الثمن هو حياتي.

لحظة مليئة بالحب والحزن، الأرض نفسها تبكي معهم. أحمد دائم السند لأخيه يودعه بقلب ممزق، يخفي دموعه خلف ابتسامته، لأن الدموع، كما قال، "ليست للرجال".

عاد الملثم لقيادة رفاقه، رُبَّان سفينة تتحدى أمواج البحر الهائجة. يغوص في شوارع المخيم التي يعرفها كظاهر كفه، ليلتف على الجنود من زقاق لآخر، وفي دروب المخيم يذيقهم مرارة الهزيمة بمقلاعه الذي لا يخطئ، وقوة يديه التي لا تعرف التراجع، وقبل ساعات من الشروق، والشمس تختبئ خلف الأفق تترقب نهاية المعركة، وقبل أن يكمل إمام المسجد وضوءه ليبدأ التكبير، دوى أزيز الرصاص، وتلاه ألسنة من نور تخترق الظلام.

جاءت الرصاصة التي اخترقت قلب الشاب الملثم، فسقط متكوّماً في طرف السوق، بجانب "دكان اللحام"، حاملاً حجراً إلى صدره، يضمّ آخر رمق من مقاومته.

لحظة صامتة مليئة بالمعاني. لحظة جعلت سكان المخيم يتساءلون بقلوب تترقب: من هذا الذي عاد إلى رحم الأرض؟ الملثم كان قائداً فريداً، أصبح الآن لغزاً يهز قلوب الجميع. رمز للمقاومة، وارتقاؤه للفردوس صدمة للمخيم كله. حتى في موته، كان يحمل حجراً من الأرض، ليقول: الأرض لا تموت، لأن المقاومة تزرعها.

النّوم هجر عيون المخيم، وأصوات الانتحاب تملأ زواياه، ترثي الشاب النّائم جانب الدُّكّان، امرأة واحدة وقفت بين الحشود والرّعب يملؤها، وعيناها تحملان صرخة تكاد تمزق السماء، وتجري الدّموع من مآقيها، تسير خلف ظلّها، فتتبعها كلُّ أشجان الأرض بالبكاء، تشعر بالبرد يجتاح أطرافها كلّما اقتربت منه، والموت نفسه حضر ليشهد اللحظة، جثمت على مقربة من منطقة السّكون الّتي تلفه، تختلط في فمها كلمات لا تملك الرّفض ولا القبول.

حاولت أن تسند رأسه على صدرها، فحنان الأمومة يمنعها من الاستعجال، تدلّك يديه ووجهه، تطلب منه أن يستجيب لها ولو لمرة أخيرة؛ لتودعه وتعانقه، أو تختزن في ذاكرتها آخر كلماته، لكن مخالبهم المسعورة باغتتها؛ فانتزعوه من بين يديها، فتنسحب أصابعها عنه كمن ينتزع روحاً من قلب ما زال ينبض.

جاء الجندي دميم الوجه، عيونه تقطر حقداً أسود، غائرة في بئر من الظلام، ينتزع عنه ملابسه، يريد أن يمحو كل ذكرى لإنسانيته، وأشعل فيها النار، وزرع في جسده بضع رصاصات أخرى ليتلذذ بفعلته الشنيعة، ليتوقَّف الطَّبيب عن محاولة إسعافه ليقول لأمه:

- الأمل نفسه قد مات...

ثم سجى الجندي الجثة فوق غطاء محرك "الجيب"، وبحركات بلهاء أقام مراسمه الشيطانية منتشياً بالانتقام. وطاف بها شوارع المخيم، يريد أن يزرع الرعب في قلوب الجميع. كل خطوة يخطوها تزيد من كراهية الناس وانتقامهم، وتذكّرهم بأن أفعاله لن تنسى ولن تغفر.

أوشك الصبح أن يتنفس، والشَّفق ازداد حُمرة من كوفيَّته ودمائه، وبدأت خيوط الشمس تبحث في زقاق المخيم، وزواياه المعتمة عمن غاب عنه؛ لتطلَّ سيّارتهم مرَّة أُخرى بجانب "دكان اللّحام" -دكان والده- ليضعوه هناك، وما زالت بقع الدّماء تتفجر ينابيع مقاومة من مئات الشَّباب؛ لتروي حكاية الشَّهيد "أحمد".

استشهد "أحمد" ولكنَّهم لم يقتلوا المخيم، والحكاية لا تنتهي، فهناك شيء ما زال يزعجهم؛ ليعاودوا مطاردة ابتسامته التي بقيت على شفتيه، ليمنعوها من الإشراق على محبيه، وملاحقة موكب التَّشييع ليبقى شرُّهم ماثلاً، فشيطانهم لا يتخلى عنهم.

ويقود ملّاحان وصبيَّة وعشرات الشَّباب من تلاميذه موكب التشييع، سفينة ستبحر بهم في رحلة الوادع على اليابسة منتظرة الطوفان، ويأبى قائدها أن يكون مُسجىً، فيجلسوه بينهم كالصَّارية ليشدوا عليه الأشرعة، فالمشيئة الرَّبانية قضت أن تشقَّ في طريقها الجبال لتتجاوز الحواجز، وتدخل الكهوف لإخفائها عن أعين لصوص الجثث، لتصل إلى مرفئها الأخير بين محبيه.

رفعت رأسي عن كتف الكرسيّ، واللّيل ابتعد عن الانتصاف، أعيد النَّظر في وجه ذلك الجندي المسخ الّذي يقف أمام السّيارة مستفهماً من ذاكرتي:

- يبدو، أنَّه هو؟!

فيجيبني المصباح الأعمى للسّيارة، ويومض من جديد لآخر مرّة. خيطُ ضوء يقود إلى الحقيقة في ذلك الأفق المكفهرّ؛ ليريني ملامح وجهه القاسية كلّها، فقبحها راكد في بركة مليئة بالدّماء، وتوحي بشيء يفضح ما حصل في ليلة الثَّلاثين من آذار في العام 1993م من ليالي المخيّم بكلّ وضوح.

ميلاد في سوق القطّانين
(إهداء إلى روح الشّهيدين ليث الخالدي، وعبد الرحمن قاسم)
(تحتوي على عبارات منقولة عن الشَّهيدين أخذت من مصادر مختلفة)

يلفُّ السكون كل شيء في ظلمة الليل، "عبود" يلوذ بالقبر الذي يحمل رفات صديقه الذي سبقه بخطوة لم يتوقعها. فقبره محارة تحيط بلؤلؤة ثمينة، يجثو عبود هناك صامتاً، جزء من الأرض يرقد تحتها من يحب بين يديه، هبت نسمة خفيفة حركت نبتة "الزنبق" التي تلمع تحت ضوء القمر، رسالة ووعود لم تُنسَ، يغرسها بحرص، ويغرس ذكريات لا تموت، وقلباً لا يريد أن ينسى.

تراب القبر دافئ تحت أصابعه رغم البرودة، فصدر صديقه الدافئ، خدود زيتونة رومية عابقة برائحة المسك، تلمسها يداه بخشوع. كل حفنة تراب تحمل شيئاً من روح صديقه، ومن ضحكاتهما التي طواها الزمن.

عبود يلمس التراب، يلمس قلباً ينبض بالحياة، ويعلم أن ما تبقى هو الذكريات. الليل دامس في عزلتهما، وهناك خيطٌ من نور، من قمر حجبته السحب، من ذكريات تنساب دامعة على خديه.

المكان يضيق بهما، ويحاول أن يختزل تلك المشاعر في مساحة صغيرة. يقرأ آيات من الذاكرة، آيات من حياة مضت، ثم يصرخ بعويل يهزُّ جنبات الليل، يحاول أن يصل إلى صديقه في عالم آخر، حفنة التراب تضغط على أصابعه مل يد صديقه يوم كان يجرّه من بين أنياب الموت. لكنها هذه المرة عجزت عن إنقاذه. تقول له:

- "أنت لست وحدك".

زاد قلبه اتساعاً عن قبر صديقه، يحاول احتواء هذا الحزن، وهذا الحب وذكرياتهما. ثم همس يخاطب السماء:

- "الله أعلم بما في القلوب..."

كلمات بسيطة، لكنها تحمل ما في قلبه من ألم وحنين وأمل ومقاومة. تراه يسير في شوارع المخيم، يحمل ثأره بين كفيه، نهر جاف ينتظر فيضانه القريب؛ ليجرف ما تراكم من ظلم وتخاذل. التعب أخمدَ دموعه، فأسند رأسه إلى الصورة التي يحملها وفيها ليث مبتسماً.

- هل يعلم أنها ستكون الصورة الأخيرة؟

في كل زقاق يمر به يختلس إليها نظرات حزينة، والوجل يوشك أن يوقف دقات قلبه. يرى ظل ليث ينتقل من مكان إلى آخر، فروحه لا تزال تسير معه. صور ليث المعلقة على الجدران، تقاوم قطرات المطر المتساقطة عليها، ولا تنثني لهزات الرياح العاتية، ابتسامته علِقت في ذاكرة المكان، تلك الابتسامة على شفتيه لمعت في أيام مضت، وأصبحت الآن ذكرى ترافق خطواته حتى يصل إلى السيارة.

لم يكبر ليث بسهولة بين أحضان عائلته، ليودّعوه بهذه السرعة، يقول والده بصوت منكسر:

- ومن يتأمل إطلالته، يصبح عاجزاً عن وداعه.

وتكمل أمه بحزن: كان مفعماً بالحيوية والنشاط، روحه تلامس السماء، تتسامى وتطير فوق تراب الوطن، تاركة خلفها ذكرى لا تُنسى، وقلوباً تئنُّ من فراقه.

ليؤكد والده: روحه بلغت حد السماء...

هذه الكلمات تُرددها العائلة، تحاول أن تمسك بشيء من نوره الذي غاب عن أعينهم، لكنه بقي في قلوبهم، يضيء طريقهم حتى في أحلك الليالي.

ما زالت صورة ليث تتدلى من مرآة سيارة عبود، محبوسة في قلب فضي. يتراقص بندولها دون توقف، تعد الثواني الأخيرة التي تفصله عن اللقاء الأبدي. كل حركة للسيارة تجعلها تتمايل، وعقارب الساعة تشير إلى وقت لا ينتمي لهذا العالم. ورائحة الفضة تذكّره بأن بعض القلوب تظل تنبض حتى بعد توقفها.

والقميص الأحمر الذي يرتديه في الصورة شاهد على لحظة فراق مؤلمة، لحظة تجمّد فيها الزمن، والعالم توقف عن الدوران. عبود ينظر إلى الصورة بين الحين والآخر، يتذكر صوت صديقه ليث يهمس في أذنه:

- كنت دائماً أتكئ على همتك وعنفوانك.

تلك الكلمات تشعره بقوة غريبة، فروح صديقه ما زالت تسير بجانبه، تدفعه إلى الأمام في درب النضال والأمل. يعود به الزمن إلى الوراء. إلى ذاك اليوم المشحون بالصراخ والدخان، حين كان ليث جالساً على الأرض، ركبته مصابة بالرصاص المطاطي مستندة إلى فخذ صديقه. ومع ذلك ينظر إلى السماء بابتسامة هادئة، فالجرح لم يكن سوى رسالة عابرة في طريق طويل.

- لن أترككم... لن أفعلها.

يقولها بصوته الذي اخترق ضجيج الميدان: سأظل هنا، في كل همسة حرية، في كل صرخة حق.

اليوم تتحول الصورة من مجرد ذكرى إلى وعد بأن اللقاء قادم لا محالة، وتلك الروح التي طارت إلى السماء ستظل حية في كل قلب يحمل حباً. حتى الرصاصة التي أصابته تبدو الآن حلقة وصل بين الماضي والحاضر، بين الجسد والروح، والألم والأمل.

وُلِدا وتربيا بأحاسيس وطنية موروثة، جمعتهما مقاعد الدراسة، وفي ساحاتها تشاركا "سندويشات اللبنة" التي يحضرها ليث، فهي إفطارهما المفضل، شوارع المخيم تحكي قصص بطولاتهما، في ساحات المواجهات كانا معاً، كتفاً إلى كتف، يذيقان الجنود ألواناً من الحجارة والزّجاجات الحارقة.

اليوم تمسك يده المرتجفة بالصورة، يظلُّ مُحملقاً فيها، محاولاً كسر سكوته ليتكلم، كان يواجه أصعب حصة تعبير في حياته، فهنا صَخَب ثائر يختنق في داخله، يعجز التعبير عنه، فالمشاعر أقوى من الكلمات، يقرّب الصورة من شفتيه:

- أحس بالرهبة كلما أراك يا توأم روحي، هل تنادي عليَّ لنكمل احتفالنا؟

كان ليث قد أكمل الخامسة عشرة، حين تسربت أول مأساة يعايشها في شبابه، فازدادت بشرته سُمرة من لهيب الألم في صدره، حين ضغط قلبه على أضلاعه، يومها تحرَّكت أطرافه كمداً، باحثة عن عدالة غائبة من همجية إحراق الرَّضيع "علي دوابشة وعائلته" من المستوطنين، لتصرخ دموعه في زاوية المخيَّم قبل أن يبدأ خطيب يوم الجمعة كلامه، فانفجرت دموعه بصوت أعلى من كل المآذن:

- "ليش" حرقوه؟ طفل صغير. "ليش"؟

كان سؤالاً بسيطاً لوالده، يحمل كل تعقيدات القضية، وعيناه تريان للمرة الأولى أن الشر قد يكون عارياً كالنار، بلا مبررات.

لم يكن لليث قرين، منذ كان في بطن أمه كان يركل بأطرافه كلما سمع هتافات المظاهرات، ولم تكن تسميته عبثاً، لم يعرف الهدوء في المهد من صوت الرصاصات التي تربى على سماعها، ولا معنى للتراجع حفظه من أبيه، فعقد -منذ طفولته- صفقة مع الخوف كتبها في دفتره المدرسي:

- "أخاف أن أخاف. فالخوف أكبر عدو لنا"

وفي العاشرة من عمره أضاف لها سطراً جديداً: "لا مكان لك في قلبي لتبعدني عن الموت، لأنَّك بذلك تمنعني من الحياة."

كبر وهو يحمل هذه القناعة، حتى يوم رأى أقرانه يسقطون أمامه. تحولت براءة الطفل في عينيه إلى شظايا ثأر. تقدم الصفوف الأمامية بخطوات ثابتة، ويسمع صوت أبيه: "الرجال لا يموتون جبناء"

صوته يعلو فوق دوي الرصاص: "مش خايف! خلّي زفة الشهادة تبدأ، أنا وكل شباب المخيم جاهزين."

تحت قميصه المدرسي قلبه ينبض بأسماء من سبقوه. لم يكن يخشى الموت، ليث يخشى أن يعيش دون أن يترك أثراً. فهبَّ مثل أسد يتضوّر للانتقام، معلناً وفاة الطفل البريء في داخله، متقدماً الصفوف بشجاعة الرجال:

- "مش خايف". تعالوا طخوني "خلّي الشّباب يزفوني"

الدخان الكثيف يثقل الجو، والسماء رمادية فوق قرية "عطارة" والسماء تميل إلى لون رماديٍّ كئيب. يتقدم ليث بخطوات ثابتة، يعبر جسراً يمتدُّ أمامه، لم يكن معبراً يفصل بين شارعين، بل بين حالتين وجوديتين: من جهة المحتلون خلف أسوارهم، ومن أخرى الأرض التي يعبرها بقلب ثائر. ولم يكن مجرّد معبر من حجارة، بل رمزاً لفصل أعمق، يفصل بينه وبين الشهادة التي تحدث عنها مع أصدقائه. كلُّ خطوة على الجسر قرب قرية "عطارة" تقرّبه من مصير متوقع، تقرّبه من انتقام طال انتظاره. الحجارة التي يرميها هي ذاتها التي كان يلعب بها في أزقة المخيم، يعلم أن الحجر الذي يرميه، والزجاجة الحارقة التي يلقيها خطوة نحو انتقام من الظلم الذي عاشه شعبه.

- "هذا الجسر يا عبود ليس حجارة فقط. بل جسر الأجيال. إنه آخر عتبة بين العار والكرامة، الجسر يا عبود معبر بين عالم الألم الذي نعيشه، وعالم الشهادة التي سنختارها."

ليث يتعثر وينهض، قوة تدفعه إلى الأمام. ترتفع المتاريس أمامه، والإطارات المحترقة تلهب عزيمته، فيعيد تمثيل لحظات عاشها مع أمه وهي تعبر به الحواجز. لقد نشأ على إيقاع مقاومتها وهي تخيط أوصال الوطن معه، وكما كانت تهدهده في المهد.

بين يديه جعبة مليئة بالحجارة والزجاجات الحارقة، تذكره بالرضيع المحترق، وعبود يحمل رماحاً من قضبان فولاذية كرماح الأبطال القدامى. يدير وجهه نحو صديقه عبود، ليطلب عوناً مستعجلاً، صاح أولاً:

- "يا عبود... مش رح نعيش بذل"

ثم انفجر صارخاً: "بدنا نحرقهم مثل ما حرقوا الرضيع"

لكنَّ خشخشة البنادق جاءت أسرع من كلماته. رصاصة تخترق الهواء، قطعت الزمن وأصابته في صدره، فيتعثر والأرض تنسحب من تحت قدميه لتحتضنه ملائكة علييّن. تلك الرصاصة كانت المقصلة التي قطعت حياة ثائر لم يكمل بعد أحلامه.

سقط ليث ببطء على الأرض. كلماته تبللت بالدموع، دماؤه سالت لتختلط بتراب الوطن، تكتب آخر فقرات رسالته. توقف فيها الزمن، حاول أن يلملم شتات روحه المتناثرة، بينما أصابعه الملطخة بالدماء تعصر الإسوار الصغير:

- "أعطوها لتالا... قولوا لها إنها آخر ما تمسكه... يد أخيها"

كلماته تذوب في الهواء، تحمل ما تبقى من حنين وحب لأخته. يحاول أن يمسك بمعصمها، يريد أن يبقى معها حتى في لحظة الرحيل. لكن الطريق ضاق به على عجل، وسيمرُّ فيه وحده. فارتفع النهار مشرقاً بدمائه، والسماء تودعه بضوء أخير. الأرض تترامى أمامه وتفتح أبواب منازل الشهداء الياقوتية، حيث الراحة الأبدية.

مر بعض الوقت، وعبود واقف هناك، عاجز عن فهم ما حدث. رأى جمهرة من الشباب يحيطون بجسد صديقه، يحاولون أن يحموه من مزيد من الألم. فصرخ باكياً وصوته يكاد أن ينكسر:

- لماذا قتلوه؟ هل يرعبهم الحجر إلى هذه الدرجة؟

الجواب كان صمتاً يحمل الحيرة والغضب، لقد ارتقى ليث لكنَّ روحه بقيت معلقة في الهواء الذي يتنفسه عبود، تهمس لمن يسمع: "الحرية قادمة، ولو بعد حين."

لم يستطيعا حرق الشموع للاحتفال بعيد ميلاده كما اتفقا، بقيت الشموع في لحدها، والهدية بقيت حبيسة الدولاب بين أكوام الصور القديمة، حاملة وجوهاً تبتسم من أيام لن تعود.

قلب عبود انفطر أنيناً على فراق صديقه، وكل شمعة لم تشعل، تقطر شمعاً أسود من الألم، وأصبح الثَّأر للحاق به هو الغاية والمقصد كل يوم، وتتراكم المشاعر الدَّخيلة في ثنايا روحه من اعتقال أصدقائه، بعد أن سرقت الرصاصة الأولى ليث، والثانية حوّلت بغدر صديقه الآخر "موسى" ليلازم كرسيّاً متحرّكاً.

أدار محرك السيارة، والكرسي بجانبه يشكو وحدة مريعة، فقد اشتاق لصديق عُمره كما يحب أن يناديه، تحركت السيارة وانزوى المخيم خلفه، رجل حزين يبكي على النائم الجديد في ترابه. والشوارع ما زالت تحمل صدى خطواتهما معاً، أما الآن فلم يبق سوى صدى الوِحدة، وهمس رياح تحمل معها قصصاً لن تُروى أبداً:

- "الورقة بيضاء والقلم أحمر"

عبارة يتمتم بها وهو مستلق في سريره بعد الظُّهر، وأمُّه تلاعب خصلات شعره المتشابكة:

- ماذا تريد أن تكتب فيها يا عبود؟

- أنتم من ستكتبون بالقلم الأحمر على الورقة البيضاء.

فتلصق خدَّها على صدره، وتنهدات جافة تتصاعد منهما، وكلّما همَّت بالنَّوم؛ توقظها كلمات قلبه بعزيمة السّائل عن حاله، وبصوت أجشّ يخاطبها: "لا أسمع سوى دقات طبول الثأر..."

التفت بعيداً عن أمّه ليضم الصورة إلى صدره. فبدا لها طفلاً يحتضن دمية أخيه وحبيبه ورفيقه، فالبراءة والبساطة تلفُّ حياته بتفاصيلها، نظرت إليه بعينين تعرفان الحزن جيداً، رأتا في هذا الفتى حكاية حبها:

- أنت بداية السعادة التي جعلت محطات حياتنا كلها فرح. من يومك الأول كنا نتعلم منك كيف نكون أفضل.

صدمة تكوَّمت في داخله واضحة تماماً، كامنة في قلبه للحظة الانقضاض، ولم يكن على وعي تام بهدفه. وتحت هذه القشرة الرقيقة من الفرح، صدمة هائلة تتراكم على غصن رفيع. الأب الذي يراقب من بعيد، شعر بقلبه ينقبض: "ابني يكره الظّلم منذ كان في السادسة، يتمسَّك بالحق ولا يحيد عنه، رفض مرّة حضور حصّة الرّياضيّات؛ لأنَّ المعلم استبدلها مكان حصّة الرّياضة مخاطباً من يعاتبه:

- "إذا كان الظُّلم موجوداً، فإنَّ التَّمرد واجب. ومن لا يعترض فهذا شيء يخصه ولا يعنيني."

يترنح جسده على السرير بين صور الشهداء الذين صاروا رفاق وسادته. في يده اليمنى صورة "فارس عودة" وهو يقذف حجراً نحو دبابة، وفي اليسرى صورة "ليث" وهو مسجى أمام أهله. طفلٌ "مقموط بكوفليّته"، وعيونهم تعتصر آخر دموعها، يعيد النَّظر إلى صور الشهداء التي تغطي جدران غرفته، فهو ليس وحيداً كل ليلة، بل يخاطبهم ودويَّ الثأر يصرخ مرة أخرى:

- إنهم يظنون أن الحجارة انتهت مع أطفالنا، لكن سيأتي جيل يحمل الصواريخ في يد، والقذيفة في الأخرى. "سوف تجد الشُّرفاء بالبنادق"، سيعود طفل آخر ليتصدى لمدرعاتكم التي اهترأت من ضعف قلوبكم الجبانة، "وبقدر الله ستهزمون".

عندما تنعدم أحلام عبود يعود إلى القبر حيث لا زالت الزنبقة تنمو تحت ضوء القمر نفسه، يمرر أصابعه على العهد المحفور بالتراب، زيارات صديقه تستمر وتطالبه بالوعد والعهد الذي حفره بأصابعه، وغطته أوراق الزّنبق الكثّة، وتذكره بمقولته له:

- "إذا فرضت علينا عيشة الغابات؛ سنخرج بأسودها"

ويمتد شريط الوعد الذي ورثه من عيني ليث وهو مسجى ينظر نحو السماء، فتزداد حدقة عيون عبود اتساعاً، فيجيبه: "لقد اتخذت القرار المناسب"، إنَّ الله معي وأمامي، وما بعد ذلك خَلْفِي.

يجلس في غرفته، وجهه متجه نحو صور الشهداء على الحائط، وبينها صورة ليث التي التقطت قبل أشهر فقط، رفع صوته:

- ليس هذا وقت الكلام، لقد رأيتم ما حدث لليث ولموسى أيضاً وغيرهم.

جداله مع عائلته عن فلسطين، فهي في عينيه ووجدانه، ولسان حاله يتحدث في حبّها، وتعيش البَلْبَلَـة التي أتعبته، وتفقد السّلام الَّذي حرمه من صديقه، واصفاً الاحتلال بأنّه مثل المشارط يستحوذ على الأرض والإنسان، ويقطّع الأوصال، وبين طمع الخانعين الذين لفظتهم أمعاء الوطن، وآخرون يبصرهم بضميره، وقد اعتلى حماسهم الغيوم والأسلاك والجدران والدبابات، وفي باطن الأرض يعضدون همتهم، وتعرَّت قلوبهم من كل الخوف؛ ليزداد قلبه صلابة وتصميماً.

توقفت الأم عن تقطيع الخضار، بينما وضع الأب الجريدة جانباً وأخفض صوت التلفاز. وأخته الصغيرة نظرت إليه ثم عادت إلى كتابها المدرسي، حيث صفحة عن جغرافيا فلسطين مفتوحة أمامها.

- "لكن ما الفائدة يا عبود؟" قالت الأم بهدوء.

- "الفائدة؟" -رد عبود- "أن نبقى على العهد. ليث لم يمت كي ننسى"

أحس بثقل المسؤولية ويتذكر كلمات صديقه الأخيرة: "إذا فرضت علينا عيشة الغابات، سنخرج بأسودها"

نظر إلى يديه فهي كل ما تبقى له: "سأفعل ما يجب فعله"

قالها بهدوء ثم خرج من الغرفة.

لقد تغيرت معالم الوطن في عيني عبود من فرط كراهيته للمحتل، فينقلب رأساً على عقب، وما تعلَّمه في المدرسة، وسمعه من خطيب الجمعة، وما تلاه من مصحفه في زاوية المسجد الذي اعتاد الصَّلاة فيه ليكون من السَّبعة الَّذين يظلهم الله في ظلّه، فاشتدَّ عُودُهُ في هذا الخليط، وينهمك في حياته، وإحساس غريب ينمو كلّما تعب، فتنمو عضلاته وعزيمته. ويكتب في صفحته:

- "ولم يرَ بُدّاً ممّا ليس منه بدّ."

يقول والده: "يعشق القدس وغزة وجنين، وفلسطين من بحرها إلى نهرها، ويخاطبها بإحساس خانق:

- "أنا ابنك البار"

فقد وُلِدت عِزَّته بانفعالات ترقد في عمق روحه. مشاعره تكمن في عرينها، وثمَّة بركاناً يتململ فيها؛ ليلقب نفسه بعد ذلك: أنا (أبو الكتائب)

يدعو أصدقاءه وعائلته لمغادرة مساكن اليأس، ويتيمنوا بقوة من صنعوا العزّة لوطنهم، ويكونوا أوفياء لأصحاب الضَّمائر الذين يُلقون خيرهم في فؤاده. يتدثَّرُ بعطف أمّه الذي بدأ يتحلل عنه مع الأيام، ويخطُّ الشَّيب شعر والده، فيستند عليه أكثر، قارئاً في عيونه عبارات الوداع، فيرجوه:

- "استحلفكم بالله أن تشتروا لي سلاحاً، أنا أموت كلَّ يوم ألف مرَّة. لقد ضربوا المرابطات في الأقصى"

أمنيات اعتاد أن يرددها في سهرات العائلة، ثمَّ يخلد إلى الصَّمت للحظات، وهو ينظر في عيني أمّه، ويجهد نفسه محاولاً رسم ابتسامة على شفتيها، ويجفف دموعه أمامها؛ فالأيام قد ضايقتها كثيراً:

- لا تلوموني، "أنا أحب الأقصى إلى حدّ العشق"، وفوق كلّ حب تتخيلونه.

واستقرت عينا والده عليه بنظرة الحزين المكلوم، ويبحث في البقعة الدّاكنة التي تتسع في ماضيه، التي يدفن فيها كثيراً من عباراته:

- لا يذهب تفكيري إلى أبعد مما سيحصل، ولن أستطيع أن أفعل أي شيء. لقد قلّ كلامه وزاد غيابه، حتى نومه أصبح بلا موعد، وينطق كلّ مكان زاره بعبارات ما زال صداها فينا:

- "ما عدّت أطيق الحياة هنا، كلّ ما حولي ثقيل على روحي"، متعب أنا والحياة في هذا الوطن الجريح أضحت لا تطاق، "لم يعد وطناً جريحاً فحسب، بل امتلأت جراحه بالصّديد."

ويطلُّ آذار عليه، وتبدأ الغمامة تلو الأخرى بالرَّحيل من السَّماء، فقد عاش شهوراً من الحياة والبحث، فأتعبته تلك الغمامة السّوداء الباقية فوق المخيَّم رافضة الرَّحيل، فيتضخَّم قلبه بالدّماء الَّتي تزوره كلّ ثانية.

- لا تتأخر يا عبود -كانت تدلّلـه- فاليوم ذكرى ميلادك، وقد أعددّت لك مفاجأةً مساء اليوم.

تنظر في عينيه دون أن تملك كلمات للتعبير في وداعه حينما يخرج إلى عمله، سوى عبارتها في هذا اليوم:

- الله يرضى عليك يا حبيبي، ما تنسى بعد المغرب. مفاجأة حلوة "بتستنى" فيك.

يضحك في وجهها طالباً منها أن تدعو له، وأن تعينه بأجرة الطريق. ويردف قائلاً:

- "بل أنا سأفاجئك...!"

يبدأ عمله المعتاد صباحاً، تستهويه حِدَّة السّكين وخضوعها أثناء عمله في "الملحمة"، وهي تفصل اللّحم عن العظم، وتمزّق ما تلامسه، ويجدع بها الأنوف والآذان، السّكين هذا اليوم تزداد ثِقلاً، تحمل في مقبضها الوطن وهمومه، ويجاهد مراراً في شحذها، نَصْلها يرفض الإذعان له، والتلفاز المعلّق فوق الثَّلاجة يصرخ بعويل الحرائر وهي تُضرب وتسحل في المسجد الأقصى، فقفزت السّكّين من يده ليسمع لها رنيناً مدويّاً، بدت مثل موجة صدمة انتقلت بعنف مستمر إلى يديه، فيرفعها أمام عينيه المحمرّة بكاءً، ويقول لها:

- "أعلم أنك صنعت لمهمة أعظم!"

شعور بالمرارة لم يستطع ابتلاعه. غادر الطَّعم المرُّ للكبت المتصاعد من حلقه، ووضع نفسه طواعية لإيمانه وأحزانه، ودَّع عيون أمّه التي وعدها بالعودة، يقوده سكّينه إلى أوّل مركبة تصادفه:

- "خذني إلى الأقصى بسرعة..."

دخل الأقصى بطريقته، فجاس الأحياء والأسواق ليُعاين فريسته ويعدُّ العدَّة، ويرتدي قناعاً وهمياً من الطّفولة؛ ليبدو محايداً في أعين الغزاة، ومن زقاق إلى آخر يتنقَّل في القدس، وحينها رأى عُوداً دون أوتار على باب دكّان عتيق، فيتذكر أمنية صديقه ليث:

- "أريد تعلَّم العزف لأغني في زفّة الشّهداء " ودعتك يمّا وما أصعب رحيلك..."

شغف ليث بتعلُّم العزف يشتعل في داخله، والأوتار قد قُطعتْ لغياب العازف الذي كان يحلم أن يكونه. كلُّ مشهد يراه وصوت يسمعه يزيد من اشتعال رغبته، فالحياة نفسها تُناديه ليعزف لحناً يخلّد ذكرى.

وفي وسط الزحام الذي يلتفُّ حولَه ليؤمّن وصوله، يتقدم بخطوات واثقة، يسير نحو المسجد الذي طالما عشقه. يتوضأ من الماء الذي أحبَّ أن يرافقه إلى الجنّة، كلَّ قطرة تلامس جسده تَـذْكِرة إلى عالم آخر، حيث تغسّله الملائكة بكل ما بقي من نقاء على جسده. يدخل المسجد بوقار كما فعل أجداده أول مرة، يعيد تمثيل لحظة تاريخية كانت بداية طريق طويل من الإيمان والتحرير. صلاته لقاء خاص بينه وبين خالقه، يناجيه بصوت خفيض ويطلب الشهادة بقلب صادق. يشكر ربَّه على قرب إجابة دعائه، ويرى في الأفق نوراً يلوح له، يعِدُه بحياة أبدية في جنات الخلد.

في مكان ما خلف العمود الرخامي. رجل في العقد الخامس من عمره، يراقب المشهد بقلب مليء بالقشعريرة. يستمع إلى دعاء الشاب وإلى عنفوان كلماته، وهيئته التي تشعُّ إيماناً وقوة. ابتسامة غامضة تلوح على شفتيه، يختبر مشاعر مقدسية طالما حملها في قلبه، الآن تتجدد أمام هذا الشاب الذي جعل من إيمانه وقوداً لروحه.

تلك اللحظة شرارة تُذكّي نار الإيمان في قلوب كل من شهدها، وتذكير بأن الوطن ليس مجرد أرض، بل روح تسري في كل من يؤمن به ويضحّي من أجله.

خرج من المسجد بخطوات واثقة، يحمل في صدره سرَّ النصر. ابتسامات هادئة تنساب من شفتيه، يوزعها على المارين بجانبه، هدايا من روحه الهادئة. جسده تحت سيطرة ذكائه الحاد، يخطو نحو الهدف بخطة محكمة لا مكان فيها للخطأ. حجارة شوارع القدس التي عادة ما تكون قاسية ببروزها على المارين، تخفي نتوءاتها تحت قدميه، تحترم سير هذا البطل الذي لا يعرف التعثُّر.

عيناه ترويان قصتين مختلفتين. واحدة تطوف في المكان بتركيز حاد ترصد كلَّ تفصيل. عين صقر يحرس سماءه، والأخرى تدمع من فرط ما تحمل من مشاعر جياشة تجاه هذه الأرض التي تسير عليها قدماه. وهالة من الرَّدى تلفُّه، يحمل معه نذيراً لمن يعترض طريقه، لكنها أيضاً تذكير بأنه يمشي على حافة القدر.

وصل إلى "سوق القطّانين"، وعلى مدخله لافتة قديمة تروي قصة بناء استمرَّ سبعة أعوام، والقطن الذي كان يملأ السوق ذات يوم اختفى. المكان الذي كان يوماً رمزاً للحياة والتجارة، أصبح ملاذاً لعصابات إجرامية تتغلغل في زواياه. تزرع الفساد وتنشر الكآبة التي تحوم حول القدس وظلها قاتم.

وقف البطل هناك، يحمل على كتفيه مهمة إلهية لاستعادة نور المكان. ينظر إلى السوق بعينين تحملان إصراراً لا يعرف التراجع، سيعيد للأحجار ذاكرتها وللزوايا المظلمة نورها. القدس تنظر إليه، تنتظر منه أن يعيد لها مجدها، وهو يعلم أن كلَّ خطوة يخطوها هي خطوةٌ نحو تحرير روح هذه المدينة العظيمة.

وعلى حين غرّة يباغتهم، فينطلق سكينه من خصره قبل يديه، يصرخ في وجوههم مكبّراً بصوتين من رجل يتضوَّر من ألم مضاعف يسكنه، وعزمه حال بينهم وبين الخلاص، فزاغت عيونهم من لمعان نصله، فصاروا مثل "حُمُرٍ مُستنفرة، فرَّت من قسورة". فقدوا كل ما تبقى من شجاعتهم أمامه، والأمل بالنجاة أصبح بعيداً.

طاف حولهم بسكينه سبع مرّات وقذفهم بجمراته، كل طعنة تفقدهم شيئاً من معالم وجوههم، واستأصلت قطعاً من كبدهم ويقطّعهم إرباً إرباً، بيد لا تعرف الارتجاف، وصوت تكسير عظامهم يجلو في الأجواء.

نداء انتقام يسمعه من في القدس. فتفرقوا "شذر مذر"، بين قتيل يسقط كجذع مقطوع، وجريح يزحف أسرع من أفعى خبيثة بعيداً عن ساحة المعركة. يطاردهم بخطوات ثابتة ليعيد للأرض توازنها. وكما أراد، "وكان وعدهُ مفعولاً"، فقد حوّل لحظة مولده إلى احتفال مغاير تماماً. كعكة الثأر قد نضجت، وشموع البأس اشتعلت في قلبه قبل أن تشتعل في المكان.

ألقى خيره في القدس وقطع دابر شرِّهم، حتى باتت السلامة في جسده من بضع رصاصات أزالت توعُّكه، هدية أخيرة من القدر. فرحلت روحه بكبرياء تاركة مكاناً دافئاً يحتضن ذكراها في بقعة شرّفها الله وقدّسها.

القدس تنظر إليه، وتهمس له: "لقد كنت البطل الذي انتظره."

ارتقى عبد الرحمن كما أراد على عجل إلى ليث وكما أحبّ أن يلتقيا، ينظر إلى السّماء رافعاً يده، مرحِّباً بمن يستقبلونه، ووجه المعروق بحب القدس يودع مخيمه، ويتمّ آخر عبارة في وصيته لمحبيه:

- جسدي الآن يا أمي يتصارع مع الظلام في طريقه للفردوس. لا تبكيه ولا تحزني عليه، فقد وهبني اللهُ شيئاً أفضل منه. لكنَّ روحي لن تفارقكم. إنها هنا بينكم، في كل زاوية من زوايا بيتنا الدافئ. تحدثوا إليها متى شئتم، افتحوا مصحفي واقرأوا آياته، سأكون هناك أسمع صوتكم وأحسُّ بحنانكم. روحي الآن يا أمي في مكان بعيد عن الألم، في حضن طيور خضر تسرح في جنان الخلد. تأكل من ثمار لم تذوقوا مثلها، وتشرب من أنهار تجري بالعسل. إنها معلقة في قناديل نور تحت عرش الرحمن، تضيء مع النجوم التي ترونها في الليل.

لا تحزني يا أمي، فأنا لم أرحل عنكم. أنا هنا، في كل مرةٍ تلمسون فيها غطائي أو تفتحون خزانتي. أنا هنا في كل مرة تذكرونني فيها بابتسامة أو دمعة أو دعاء. أنا هنا في كل نفس تتنفسونه، وفي كل خطوة تخطونها إلى القدس.

وداعاً يا أمي لكن ليس إلى الأبد. سأكون في انتظاركم حيث لا ظلام ولا ألم، فقط نور وحبّ لا ينتهي. إلى أن نلتقي احفظيني في قلبك، كما سأحفظكم في شفاعتي.

بقيت الطاولة وحدها تنتظر ضيفاً لن يأتي. الشموع وقفت مكانها ولم تُشعل، تعلم أن ضيف الشرف لن يحضر. فقد أصبح ضيفاً في مكان أعظم وأجل.

أمُّه جلست القرفصاء تستند على ذراع كرسيّه الفارغ، تحاول أن تمسك بشيء من وجوده. عيناها تتأملان الكعكة التي طبعت عليها صورته، المناسبة اختلفت، وصورته التي ترمز إلى الفرح أصبحت ذكرى، وتغالب حاجز البكاء، تحاول أن تمسك دموعها بقوة لا تعرفها إلا أم فقدت فلذة كبدها. فهمست بصوت يكاد أن ينكسر:

- لم يعد بمقدوري أن أعلم هل أنت بعيد عني؟ أم أنك ازددت قرباً من قلبي...؟"

تحمل الحنين والألم الذي لا يوصف. ثم أضافت تخاطب روحه التي ما زالت تحوم حولها:

- أعلم يا حبيبي أنك لن تعود لأنك لم تذهب. أنت هنا في كل شيء ألمسه، في كل ذكرى أعيشها، في كل نفس أتنفسه.

كلماتها تنساب أنهاراً من نور في ظلمة الليل، تذكرها بأن ابنها لم يرحل، بل تحوّل إلى نور يسطع في قلبها، وإلى ذكرى تبقى حيةً في كلِّ لحظة تعيشها.

في يوم السابع من آذار التقى القدر بأقدار غريبة. سبعة أيام وسبع سنوات فرقت بينهم، فالزمن ينسج خيوطاً معقدة بين الأرواح. وسبعين شفاعة جمعتهم أخيراً، السماء أرادت أن تصلح ما فُرِّق بقدرة إلهية. تلك الأرقام كانت تفصله عن لقاء توأم روحه، وأيضاً تقرّبه من مصير محتوم.

في المخيم علّق أصدقاؤه صورته بجانب صورة رفيقه، يعودان إلى بعضهما من جديد في إطار من الذكرى. سبع آيات من الفاتحة تُتلى، وتفتح أبواب السماء السبعة لتستقبل روحين كانا دائماً واحداً.

الوقت قد حان للاحتفال بالميلاد، هذه المرة الاحتفال مختلف. بندول ساعته السرية ضبط اللحظة بدقة، يعلم أن الوقت قد حان ليلتقي به في سوق القطانين ليكمل ميلاده، وتقطيع الكعكة تمَّ كذلك إلى سبع قطع، كل قطعة تحمل ذكرى وكل لقمة تحمل وعداً.

الرقم سبعة كان حاضراً في كل شيء، يهمس بأسرار لا يعلمها إلا من عاش اللحظة بتفاصيلها. الاحتفال ميلاد جديد، ميلاد في عالم آخر، حيث الأرواح تلتقي والذكريات تبقى حية إلى الأبد.

قال الله تعالى:

(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.) (آل عمران.169)

الـمَمـرُّ

في الممر الضيّق الذي يحمل خطواتي، تتشابه الأبعاد وتنثني. فالمسافة هنا ليست بحساب الأقدام، المسافة بحساب الذاكرة. كل خطوة تذكرني بأنَّ الزمن يجري في داخلي لا حولي وإذا بِالممر - ذلك الكائن الصامت - يتحول إلى مرآة عميقة تعكس حيرتي:

- أأنت من يعبرني؟ أم أنا من يعبرك؟

قد تكتشف أيها القارئ أنَّ الحوار الحقيقي ليس بينك وبين نفسك، بل بين الأشياء التي ظننتها صمّاء، الأحداث ولدت من سؤال لاذع: ماذا لو استيقظت الأشياء من حولك وتكلمت قائلة: "خطوة تفصلك عن النهاية. وألف خطوة تبعدك عن البداية."

الوقت فيه معلَّق بين اليقظة والحلم، يستغرق مروري فيه بضع خطوات خفيفة ومترددة. يتراءى لي ثقيلاً، مكان ناء في حياتي، منعزل عن الضجيج. في داخله، أشعر بأن سلحفاة تحمل بيتها على ظهرها أسرع مني، حتى لو كان بيتاً من الخشب والحجر، فبيتي من الذكريات والأحلام، يرافقني في حِلّي وترحالي وفي يقظتي ونومي، وحتى في موتي. عمري هو عدد المرات التي سلكته فيها، عشرون، ثلاثون، أم خمسون عاماً؟

لا أعلم. لكنني في كل رحلة أردد ترنيمة العبور ذاتها:

- الدرب قصير لكن الرحلة طويلة.

أمرُّ بجانب المرآة على يميني، وصورتي المعلقة تقابلها. رفيقان في الطريق إلى غرفة نومي. صحيح أن الممر ضيق وقصير، لكن رحلتي تبدو طويلة، فهي مسير من النقطة (أ) إلى النقطة (ب)، لكنني أهوم كثيراً في الرحلة. لا أتوه حقيقة فيه. أحاول أن أمطُّها قدر الإمكان، أحاول الهروب من خط النهاية. في كل مرة، أحاول مدَّ الدرب أكثر، لأطيل الزمن حتى لا تنتهي الرحلة. فيشحنني ذلك بتوتر مقلق، فأشعل سيجارتي وأنفث قليلاً من الدخان الأزرق. أتأمله وهو يتلاشى في المكان، يتشكل دوائر ثم يرتفع إلى أعلى، متحولاً إلى أطياف حول المصباح العابس. أو ربما يتهيأ لي ذلك. فأطفئ السيجارة على السجادة بحركة لا تتغير، بحركة أصبحت جزءاً من طقوسي، الختم الأخير على لحظة عابرة من التأمل والقلق.

- عجباً، لا تشتعل! ولا تخرج دخاناً، هل اعتادت السجادة الكيّ مثلي؟

الممر بضيقه وقِصره يحمل في طياته عالماً من الأسئلة والذكريات. هو طريق بين غرفتين ورحلة داخلية، رحلة تختزل فيها حياتي كلها خطوة بخطوة، مع كل نفس أطلقه، ومع كل دخان يتلاشى في الهواء.

على أي حال، رأيت وجهي اليوم وقد تغير عن أمس. قبل كان مشدوداً بابتهاج يخفي وراءه حزناً بائساً، ظل يرافق عدَّاد السنين الذي لا يتوقف، تماماً كما لا تتوقف طريقة فتح باب غرفة نومي في نهاية الممر.

سأكون وحيداً رغم من حولي، رغم المئات من معارفي، والعشرات من أفراد عائلتي. أعيش داخل نفسي وداخل أحلامي، حيث الأوهام والآمال تُشكِّل لي عالماً يُسلي روحي. أعيش لحظات بهجة وفرح أحياناً، فأنا لست شقياً مسكيناً، لكنها تبدُّلات الأيام. تلك الأيام التي تأتي، فتارة ترفعني إلى أعالي الفرح، وتارة أخرى تلقي بي في أحضان الوحدة والبؤس.

الحياة يا صديقي القارئ ليست سوى رحلة بين هذه اللحظات، رحلة أتعلم فيها أن أحمل وجهي المتغيّر، شاهد صادق على كل ما مرَّ وكل ما سيأتي.

في بداية الممر تقف مرآة بإطار صلب، معروقة بلون الفضة ومعلقة بخيط قنَّب يبدو من الزمن الممتد. الإطار المستطيل المصنوع بحرص قطعة من الفن، يقابله إطار بيضاوي من الخشب مثبت بعناية على الجدار. لقد بهتت ألوانه البنية مع مرور السنين، وذابت زخارفه من أعمال مسح الغبار المتكررة، فهذا الإطار يحبس صورتي في حضنه، يحتفظ بقطعة من روحي في هيئتها القديمة.

أنا هناك في العشرينات أو الثلاثينات من عمري -لا أذكر صدقاً- اسمي مجرداً من أي لقب وخال من أعباء الزمن وتقلباته. الصورة تبدو بوابة إلى ماض لن يعود، لكنه يظل حاضراً في ذاكرتي، شاهدة على أيام مليئة بالبراءة والأحلام التي لم تكتمل. كلما مررت به أشعره يهمس لي، يحمل شيئاً أكثر من مجرد صورة. ربما هو رمز لذاتي التي تركتها فيه، أو لشخص كُنْتُه قبل أن تثقلني سنوات الحياة.

الإطار نافذة إلى عالم آخر يختزن جزءاً من روحي لا أستطيع استعادته، وأعلم أنه موجود هناك.

عندما أدخل الممرَّ أكون في المركز أو الوسط، أتأمل المشهد ثمّ أسأل نفسي:

- لا تحتفظ المرآة بصورتي، كما يفعل إطار الصُّورة. لماذا؟

فتجيبني هواجسي: تصرُّ بإلحاح عليك لتذكّرك بالزَّمن السَّريع الذي يمرُّ ولا يحفظ أحداً.

- لماذا لا تحنطني في داخلها بالأمل كما تفعل الصُّورة؟

فتجيبني مرَّة أخرى: لا أعلم. أنت تعلم. فالحياة غير حياتك!

فأحدث نفسي: لو كانت المرآة تحتفظ بصورة أحد، لاحتفظت بصورة صانعها.

ندان يتقابلان وشاهدان على مرور الزمن منذ سنوات طويلة. لا أذكر يوماً أنني نظرت إلى الأرض أو إلى السقف خلال مروري هناك، فما أن يلامس كتفي طرف المرآة حتى تتأرجح يميناً ويساراً. يحفر تمايلها هلالاً في جسد الحائط ويزداد عمقاً يوماً بعد يوم. جرحٌ يبقى في ذاكرة المكان.

كلما استدرت لأتأمل نفسي، تنعكس صورتي في المرآة، حاملة معها بقايا شعري المتساقط، وأسناني التي بدأ التسوس يغزوها، وتلك التجاعيد التي ترافقها خطوط الزمن مرسومة على وجهي. اليوم وجهي مثل حبة ليمون صفراء، مسامها تحمل النمش الأسود، وصدري يبدو ضيقاً أكثر من الممر نفسه. فأقول للمرآة:

- يبدو أنه زاد عن الأسبوع الماضي قليلاً. ناصية رأسي زاد تصحرها؛ فبصيلات الشعر تتراجع ميتة.

وأتساءل دائماً عن الهلال المحفور في الحائط. هل هو نهاية لشهر مضى أم بداية لشهر جديد؟ أم رمز لشيء أكبر يرتبط بالسماء وبأسرارها؟ هل نهاية لمرحلة أم بداية مرحلة أخرى أكثر اتصالاً بالكون وبما وراءه؟

الهلال بمُنحناه الناعم يذكرني بأن النهاية تحمل بذرة بداية، وكل شيء في هذا العالم يدور في حلقة لا تنتهي، مع دورة القمر نفسه.

أواسي نفسي فلا بدّ من الدَّوران مثل رأس الفِرجار في المكان نفسه لأنظر إلى الصُّورة، دوراني اليومي شكَّل على أرضيَّة السجادة دائرة ذوبان في وبرها، لكن يجب أن أشحن عواطفي وبهجتي منها:

- هأنذا...

أمد يدي مباشرة إلى مِقبض الباب وأفتحه برويّة، سيكون دخولي للغرفة مع انطباع العشرينات أفضل لنومي وأحلامي.

- تصبحان على خير يا أنا، وأنا.

ثلاثتنا نسكن الممر. أنا، وأنا في المرآة، وآخر قابع بصمت في الصورة، وهو أيضاً أنا! ثلاثة أرواح في جسد واحد، أو ثلاثة وجوه لعملة من نوع فريد، كل يعكس جانباً من حياتي التي تتراقص بين الواقع والذاكرة.

بكل صدق أخشى التحديق بالأشياء التي أحبها، لا أجرؤ على لمسها. أشباح من ماض لن يعود، أو أحلامٌ يخشى المرء أن تتبدد إذا اقترب منها.

العبور اليومي يشعرني بالكآبة غالباً. أشياء ثابتة لا تتغير، محاصرة في زمن متجمد. السجادة تفترش الأرض. حديقة لا يفارقها الخريف، ألوانها الباهتة تذكّرني بالحياة التي قد تجفّ أحياناً. المصباح الذي كان يوماً ينير الدرب امتلأ غباراً، لقد استسلم لليأس الذي يملأ المكان. الجدران يتقشر طلاؤها، جلد يتساقط من جسد منهك، تاركاً وراءه ندوباً من الزمن.

في الزاوية يرابط عنكبوت بنيٌّ غامق، محتفظاً بنسيجه المهلهل، في نسيجه ثلاث مومياوات حنّطها استعداداً للشتاء، رموز لحياة توقفت عن الحركة يجب أن أراها.

باب الغرفة بصرير مفاصله الذي يزعق لا يختلف كثيراً عن مفاصلي، ولا يحفظ إلا حركتين ذاهبٌ وآيب، للداخل والخارج، بوابةٌ بين عالمين.

وما زالت المرآة تتأرجح، وإن بانخفاض في سرعتها، فالزمن يتباطأ، واللعبة التي ألعبها كل يوم تقترب من نهايتها. لكنها في تأرجحها تبقى رمزاً لشيء أكبر، ولاستمرارية الحياة، ولحقيقة أن كل شيء حتى الثابت يحمل في طياته حركةً خفية. مثل هواء يلامسنا دون أن نراه:

- تكرار مُملّ كما قلت. أعيش في لعبة، صوت السّرير وقرقعته من استقبال جسدي لا تتغيّر، حتى رائحة رطوبة الممر لا تتبدّل.

أحادث نفسي بصوت مسموع: أنا أثق بهما إن سمعاني مع سكن اللَّيل الَّذي يفرضه علينا جميعاً. فاليوم أنا مُتعب أكثر، يجب أن يرتدي ثلاثتنا لِباس العتمة:

- يا ترى ماذا يفعلان طوال اللّيل والنَّهار؟

يستغرق استلقائي على السَّرير وقتاً بعد ركض مُضنٍ على حواف الحياة وأحيانا هرولة، وفي أخرى أكون ماشياً، أدرك أن لا جدوى من قطع المسافات ما دامت الذّاكرة مُتعبة وممتلئة، أتقلّب فيه حتى أتكفَّن بالبطانيّة، أترك للأيام أن تفعل فعلها كما تشاء في تغييري، أتركها عساها تهدأ، فيشعر النَّوم بالأسف على حالي، فيتسلَّل إلى جسدي ليطفأ تفكيري، ينبش في ذاكرتي ويلقي بعضاً منها في سلّة مهملاتي ويمسح الآخر، سأنعم بقليل من الرَّاحة قبل أن يبدأ المنبه صراخه.

لا بدَّ أن تنطلق هواجسي في فضاء غرفتي. فالسقف ورقة نكتب عليها بعيوننا ما نرغب، وما لا نرغب سيمحوه النَّهار، فيبدأ الجدال بالخارج:

- المرآة: مرحباً يا صورة. يا أمَّ البدايات والدلال.
- الصورة: أهلاً يا مرآة. أخيراً ذهب إلى النوم. ماذا فعلت اليوم؟
- المرآة: لا شيء يُذكر. بقي انعكاسك في داخلي، ظلك لا يفارقني. كل يوم تحاولين أن تكوني أنا، وأحاول أنا أن أحتفظ بأثر منك، لكنني أفشل. أنت الماضي الذي لا أستطيع الإمساك به.
- الصورة: ليتني أستطيع الكلام بصوت يسمعه. أو يستطيع هو أن يستمع لي. إنه يقف بيني وبينك يا صديقتي المرآة، حاجز من نسيان.
- المرآة: لو ابتعد قليلاً عن أحدنا لرأى نفسه السابقة بوضوح في حاضره. لكنه يبقى حائراً، يدور بيننا كعلامة تعجّب معلقة في الهواء!
- الصورة: لكنه يُطيل النظر إليَّ أكثر منك. ربما يحبني أكثر.
- المرآة: أو ربما لا يحبك! قد يكون يداوي خدوش حياته التي يراها في انعكاسي، بينما يقترب منكِ ليهرب من وحدته.
- الصورة: نعم. قد يكون ذلك. لكن وجودي يبقى أثمن ما يملكه، حتى لو لم يدرك ذلك.
- المرآة: رحيله لا يشكّل فرقاً عندي. كثيرون مروا من أمامي. لا أحفظ أحداً منهم ولن أحفظ. أنا مجرد مرآة، تعكس ما يراه لا ما يشعر به.
- الصورة: أنت حاضره الذي يملّ منه، بينما أنا ماضيه الذي يتوق إليه.
- المرآة: كلما مرَّ عليه يوم سيء – وما أكثرها – يتمنى وجهك، ليبحث عن شيء ضاع منه.

فتدخّل الممر بصوته الهادئ العميق: عن ماذا تتحدثان؟

قالتا معاً بترحاب: أهلاً بك يا ممرَّنا العزيز. ماذا لديك؟

- الممر: لقد بدت خطواته اليوم أثقل وبطيئة وهادئة وأكثر قرباً مني. أشعر بوزنه يزداد مع كل خطوة. أنا قلق عليه. لقد أتلف السجادة التي تغطيني، يحاول أن يترك أثراً، أي أثر.

- المرآة: عندما ينظر إلى نفسه من خلالي، أرى بين شفتيه كلاماً كثيراً، لكنه يحبسه. هل يقول لك منه شيء؟
- الممر: لا. فهو لا ينظر إلى قدميه ليراني. يقترب كثيراً، لكنه لم يصل بعد.

قالت الصورة بأسف: لا جدوى من قطع المسافات بيننا ما دامت ذاكرته متشعبة. ولا تألف الغياب.

- المرآة: إن وجهي متعب اليوم. قد أطال النظر على غير عادته، فانطبع قليل من أثره عليَّ.
- الممر: تصبحون على خير. ربما يأتي غداً بحكاية جديدة، أو بجرح آخر يضاف إلى جسده.

وهكذا يبقى الثلاثة المرآة، والصورة، والممر، في حوار مع الزمن، كلٌّ منهم يحمل سرّاً، وكل منهم ينتظر أن يُكتشف. فسكان الممر مثل جيران بينهم أحاديث لا تعدّ وقصص خاصة، ولغة لا يعرفها سواهم، ولا يسندني في أيامي سوى هذا التَّفاهم وتلك المحبة. لكن العنكبوت يبقى دائم الابتسام والترقب، ينسج خيوطه بخبرة صامتة، يعدّ كفناً جديداً لضيف قادم.

في زوايا الممر تكمن حشرات محنطة، ملفوفة في أكفانها، رموز صغيرة لمصير لا مفر منه. كل خيط يضيفه تذكير بأن الموت ينسج حدوده حولنا ببطء وصمت.

استيقظت كمن ينهض من قبر من الكوابيس، متلفعاً بغطاء من الكآبة الثقيلة. طنينٌ في أذني اليمنى يتردد صداه بنبوءة غامضة، وارتعاش عيني يُنبئ بأساطير شؤم تلوح في الأفق. جلست على حافة السرير أحمل رأسي بين يديّ، محاولاً إعادة تدفق الدم إلى دماغي، ليروي ظمأ استيقاظي المفاجئ.

أخذت أفتش في أحلامي وأقلّب صفحات كتاب قديم، باحثاً عن إشارة أو علامة. فأنا لا أخطو الخطوات الكبرى قبل الصغرى، أعلم أن كل خطوة تقودني إلى مصير مجهول، إلى طريق لا أعرف نهايته، لكنني أمضي فيه، حاملاً معي ثقل اليقين بأن شيئاً ما ينتظرني في النهاية، وأشعر بظله يلوح في الأفق.

- هناك شيء نسيته. سمعته، تخيلته، ما هو يا دماغي؟
- لن أقول لك؟! خصمك قوي وأنت أقوى.
- لا مشكلة، كالعادة، يحدث ذلك يومياً، أنسى أحلامي كما أنسى أيامي، النتيجة لا أهمية لها، فهي واضحة كلنا في نفس اللعبة، والأهم: كم جولة بقي؟
- عندما يناديك "الحَكَمُ"...! ستنتهي اللعبة وتُعلن النتيجة.

انفعالات جميلة باغتتني، ونسمة أمل في عالم يفتقر إليه. هناك قيمة للحياة، لا بدَّ من شيء جميل يلوح في الأفق. مكوث الروح في مكان ليس لها ليس ضياعاً ولا تعباً. ربما يكون استراحة قبل انطلاق جديد.

قررت أن أخرج إلى الممر لأتوضأ وأصلي الفجر، ولأبحث عن شيء ما قد يلمع في نهار اليوم الجديد.

لا أسرف في استخدام اللطف والمحبة، فالقسوة قد أطبقت عليَّ مؤخراً، جاعلة من الصعب عليَّ أن أناقش أي اعتراض أو موافقة. لست مُسيَّراً ولا مُخيَّراً، بل تائه بينهما وبين مظاهر الحياة التي لم تعد تعنيني.

الأشياء متشابهة متماثلة في نظري. النوم كالاستيقاظ، والمشي أخو التوقف، مشاعر ولا مشاعر. الحبُّ مجبول بالنكد، والغنى والفقر صديقان، والصحة والمرض يتناوبان. رفيقان في رحلة واحدة. وكلُّها متداخلة، خيوط في نسيج واحد لا يُفكَّك.

بعد ليلة القلق وخنق الأعصاب دخلت المرحاض. أبحث عن شيء يغسل أكثر من جسدي، ربما يغسل شيئاً من همومي التي تراكم غبارها على روحي.

- حسناً، لكن، لا تُقفل الباب.
- ماذا تقول يا عقلي؟!
- عندما أتحدَّث، نفّذْ ما أطلبه منك. أنا عقلك المدّبر.
- حسناً، سأبقيه مفتوحاً، ولكن ...
- لا تقلق واستدر لليسار قليلاً، خلفك المِغسلة.
- ماذا يعني خلفي المغسلة؟!
- لا عليك، استدر حتى يكون ظهرك للباب المفتوح.
- حسناً.... ولكن يا...

انفلات مفاجئ للأعصاب، سدود الصبر قد انهارت تحت وطأة القهر والكتمان. فيضان من المشاعر تتجاوز دموع العين ليتغلغل في أعماق القلب، سكين غائر في صدر لا يتحمل المزيد. فسقطت متكوّماً على ظهري في الممر خارج المرحاض شبه عارٍ. انقلبت الأرض من تحتي، وأصوات تنوح وتصرخ من أعلى، تبتعد في ظلمة حالكة، وتختفي في عالَم آخر. وأنا أغوص بعيداً في تلك الظلمة بعيداً جداً، إلا عن الممر.

عيوني فقط تراه وتشدني نقطة عبور خطيرة، تبدو مختلفة كلياً هذه المرة. سكت دماغي الثقيل متخلياً عني، تاركاً إياي وحيداً في مواجهة هذا الفراغ.

بقيت تساؤلات مبعثرة معلقة في فضاء الممر، تتجول بلا هدف، أشباح تبحث عن إجابة لن تجدها. وتساؤلات عن الحياة وعن المعنى، عن كل ما فقدناه وما قد نفقده. تساؤلات تلوح في الهواء، تهمس:

- هل من أحد يسمع؟ هل من أحد يهتم؟

لكن الممر يبقى صامتاً وشاهداً على كل شيء، حاملاً في جدرانه صدى آلام لا تحصى، وآمال لم تكتمل.

لقد أكملت المرآة حفر الهلال في جسد الممر الآن، صورتي تنعكس فيها، لكن متى حدث ذلك؟

كيف اجتمعت صورتاي فيها، بعد سنوات من الفراق؟

سقطت المرآة وتحطمت. كان تأرجحها اليومي يحفر قبري يوماً بعد يوم، بينما أنا غافل عن ذلك. الهلال الذي حفرته المرآة على الحائط لتضعه على قبري لم يكن سوى علامة على نهايتي القادمة، وأنا لم أكن أعلم.

بقيت الصورة معلقة على الجدار، والعنكبوت بدأ يحنطها الآن، وتحولت إلى ذكرى من الماضي.

- أنا لم أمت بعد يا ناس!

أردت أن أصرخ، لكن صوتي اختنق في حلقي: "أمْ... رحمني الله..."

همستُ في داخلي أستجدي رحمة من عالم آخر. الممر كم يشبه شيئاً طالما سمعت عنه، وله سقف كذلك. ما هو؟ وكيف لم أنتبه طوال هذه السنوات؟ هل هو رحلة حياتي القصيرة التي لم أدرك معناها إلا الآن؟

السجادة البالية كم حفرت عليها أقدامي سنوات من حياتي. ليتني مهّدتها ونظفتها قبل ذلك، فقد أصبح وجهي ملوثاً منها، وتعكس فوضى حياتي التي لم أنظفها أبداً. رائحة الرطوبة كم هي قريبة وقوية، تهمس لي بأن النهاية قد حانت.

لقد هيأ لي القدر ألا ألقي على عقلي النائم مزيداً من الأسئلة. فقط رأيت حقيقة الأشياء، وأنا متورط معها بمشاعري. سأجيب عليها، لكن يجب أن أبتعد. فتدور عيناي في عتمتها وترتجف رموشها. الأصوات النائحة تقترب من جديد، تصرخ بأسرار الموت. فاخترقت خيوط ضعيفة من نور المصباح حلكة الظلام، بدأت تبدده قليلاً. لكن النور لم يعد ينتمي إلى هذا العالم. أشعر بأنني على حافة شيء كبير، شيء لا أعرف كيف أصفه. هل هو الموت؟

أم بداية جديدة في عالم آخر؟

ما أعرفه أنني لم أعد ذلك الشخص الذي كان يسير في هذا الممر يومياً. شيء ما تغير. شيء ما انتهى.

عادت الحياة وفي وقت أقصر مما أتوقع، عاد الممر بهيئته المعتادة، والمرآة تعكس الصورة من جديد، كأن شيئاً لم يكن. هرب العنكبوت تاركاً خلفه نسيجه المهلهل وبقي اللحد فارغاً، وبقي الهلال ناقصاً، ولم يكمل تأرجح المرآة حفر أطرافه.

أشرت بيدي نحو غرفتي، راغباً في الخروج من هذا الممر، لكن جسدي بارد ويرتعد، ما زال يحمل ذكرى ما حدث. فسمعت صوتاً جهورياً يقتحم الحلقة المضروبة من حولي، قائلاً:

- استيقظ... استيقظ...

ويكرر النداء في صدري في مساحة صغيرة مليئة بالخيبات، بعد أن كانت في الماضي مكتظة بالحب. لقد تركني أغير حقائقي دون إدراك، لم يسمح لي بممارسة حقي في الحذف أو الاختيار، لكنه سمح لي باختيار نهاية مناسبة لضميري. لم أستطع أن أكذب عليه، فما حدث أبشع ما يمكن أن يحدث لشخص على الإطلاق.

عدت إلى الحياة واستيقظت من حلم طويل. الموت كان وهماً لكنه ترك فيّ درساً:

الحياة هبة لا تُقدّر بثمن، وكل لحظة فيها فرصة للتغيير وللبدء من جديد. لا تدع الخيبات تغلق قلبك، ولا تدع الظلام يخفي نور الأمل. فالحياة رغم كل شيء تستحق أن تُعاش.

الموءودة

في زاوية مظلمة من الشارع، ترتعد "ندى" تحت رياح الشتاء القاسية، لكن برود الخارج لا يقارن بجليد قلبها المكسور. دمعة سوداء ليست من ماء تسيل على وجنتها، تحفر سطراً أخيراً في قصة حياة لم تكن تريدها. الليل يلفّ المدينة ويحبس أنفاسه. وتسيل أحزان من أعماق روح منهكة تنزلق على الأسفلت.

تهتز سيارة الشرطة وهي تسير في الشارع الموحش، تابوت يحمل جثّة براءتها المدمرة. مصابيح الطريق المتقطعة تلعنها بنظرات عابرة، تعاتبها مع كل وميض، توقفت السيارة أمام بوابة السجن، وانفتحت البوابة المعدنية بصوت جاف، ومن خلفه صوت يقرع غيظاً:

- هل أحضرتم القاتلة؟!

كان الصوت مدوّياً يهزّ أعماقها، ويمزّق ما تبقى من أمل تتشبث به، غريقة تمسك بقطعة خشب متآكلة. في تلك اللحظة، انكشف الاسم الجديد الذي سمعته لأول مرة، طلقة من قاض تخترق صدرها:

- "قاتلة!"..

كلمة واحدة حملت كل الاتهامات البشرية، أغمضت عينيها بُرْهَة من الزَّمن لتستوعب وتحاول شرحها لنفسها، لكنَّ السَّجانة اختصرت ذلك؛ لترحب بها بطريقتها. تمسك بها من كتفها بخشونة وازْدراء، وبصوتها المستنْكِر صاحت فيها: انزلِي يا قاتلة! هيا يا مجرمة.

سارت والسلاسل تلتف حول قدميها، خلخال من نار يكوي مسيرها، كل خطوة تذكرها بسنوات عمرها التي انقضت بأنفاس الحب الضائعة. حتى وقفت أمام زنزانة في نهاية الممر، انغلق الباب خلفها باهتزاز عنيف هزَّ جسدها، والأرض ابتلعت آخر بصيص من نور في حريتها. فالتصقت بالجدار البارد قرب النافذة المغلقة بالأسلاك الشائكة، وبقايا قماش ممزَّق ترفرف في الهواء، تشهد على حريّة ضاعت لمن سبقوها. وقطعة قماش ممزَّقة تتمرد مثل روح معلَّقة بين السماء والأرض تُودّع أحلامهم، وتُحيي ذكرى حرّيات دفنت هنا.

يزحف ليل جديد نحوها لم تعرفه، ليل بلا أضواء ولا ومضات أمل، ولا حتى همسات رسائل تأتيها كلَّ مساء. شعرت بأنَّ العالم الذي كانت فيه قد أدار ظهره لها. لم يبق سوى صوت قطرات الماء المتساقطة من حنفيّة متكلّسة تتناثر مع دموعها، وصوت في أعماقها يعاتبها. أما الندم فقد صار نبضاً أو قلباً آخر في صدرها، ينزف ولا يندمل وأقسى من أن يُنسى.

- ندى، عمري عشرون عاماً، وأدرس في الفصل الأخير من الجامعة. والدي بعد تقاعده يحرس أبواب بيوت الآخرين ليمسك بيتنا من السقوط، وأمي تحتفظ ببقايا صبرها، لترعى بيتنا الذي بدأ يتآكل.

ثمَّ انقطع خيط الكلام، لم تعد تجد حروفاً تجيب بها المحقق الذي يقذفها بأسئلة متتالية. حتى صراخه الذي اخترق جدار الغرفة لم يعد يصلها. ففي أعماقها صراخ آخر لا صوت له، ألم يصارع حيرة، وخوف يذوب في ندم. تشعر بروحها تقف على حافةِ هاوية سحيقة، بينما العالم من حولها يبدو بارداً وبلا رحمة.

تعود إلى الزنزانة من جديد بعد جولة تحقيق أولى، ويتملَّكها رعب لا يقاوم، خائفة ضعيفة صاكّة أسنانها حتى كادت تتكسّر، وتتكوّر حول جسدها المتعب وتحتضن نفسها لتعيش الألم وحدها.

كانت تمسح دموعها خلف شاشة هاتفها حينما تخفي الوحدة وراء ضحكات مزيفة. تجمع ‹إعجابات› فارغة. والآن، كلّ تلك الكلمات والنجومية التي علّقتها على صفحتها الافتراضية، تحوّلت إلى شظايا زجاج تمزق حلقها كلّما حاولت الصراخ. ندى الجميلة -آخر العنقود كما يقولون- تقول عن نفسها للمحقق:

- عشت راكضة وراء وهم، أعيش الشباب بكل طيشه، ومحاصرة بتفاهات، ألبس أحلام غيري بثوب عارٍ من بالأمنيات. وأبتلع وعودهم المغشوشة، ليقتطعوا مني قطعة بعد أخرى. صعدت مع سلم أكاذيبهم كلَّ يوم، حتى اخترقت السماء في خيالي، وصرت نجمة مشهورة في عالم لا وجود له، وركبت أفخم السيارات في أحلام لم تكن سوى أوهام. في الواقع كنت مجرد دمية ترقص على خيوط "السوشيال ميديا"، أبني قصوراً من رمل بينما الموج يلفظ جثث الضحايا خلفي، حتى إذا صحوت وجدت نفسي جالسة على أطلال ذاتي، أمضغ رماد أمس. وأستجدي الصدق من قبلات بعتها بثمن بخس.

دفعت ندى الثمن الأغلى. عاشت في عالم بلا أسوار، كل شيء فيها مُعرّىً للعابرين. لم يحتج أحد أن يكسر أقفالاً أو يطرق أبواباً، دخلوا حياتها كما يدخل اللصوص إلى بيت مفتوح. طعامها وشرابها وملابسها، حتى أحاديث العائلة المسائية كل شيء أصبح مادة للعرض والتباهي.

مع كل منشور وصورة تبيع قطعة من روحها، ومع كل إعجاب تفقد شيئاً من براءتها. ظنّت أنها تزداد جمالاً وانفتاحاً، بينما في الحقيقة تسقط في متاهات مظلمة، تبتعد أكثر فأكثر عن أي حبل نجاة.

تراكمت فوق كتفَيها أخطاء تساقطت كحبات المطر، لم تلاحظها أمُّها بين انشغالات الحياة. وخطايا خفية لم يرَها أبوها خلف نظّارته الطبية. حتى أصبحت هذه الهفوات بحراً من الذنوب، ولم تعدْ قادرة على حملها. فسقطت وهي تعلم أن كلَّ هذا ثمن لاستسلامها لوحوش العالمِ الافتراضي، ذلك العالم الذي يبتسم بأسنان بيضاء، بينما يخفي أنياباً دامية.

العالم الافتراضي يا ندى -قال لها المحقق- قد يبدو برّاقاً، لكنَّ قاعه مظلم، وثمن الضياع فيه قد يكون روحك وكرامتك. يسرق منك قدسية حيائك وخصوصيتك، لقد استسلمت لمن يريدون إغواءك بعيداً عن دينك وقيمك وفطرتك.

أطلّت عليها شمس يوم آخر، ولا تزال تشعر بالبرد الذي اخترق أعماقها. برد لا تذيبه الشمس لأنه نابع من داخلها، ومن ندم عميق على ما ضاع منها دون عودة. وتحادثها رفيقتها في الزنزانة:

- من يكشف ستره مرّة، يصبح الكشف عليه عادة، لن ينسى أبداً برد اللحظة التي سلَبَتْه كرامتَه.

- يا رفيقتي، ما كان بلا حق يبقى جرحاً نازفاً، يذكّرنا بأنَّ بعض اللحظات لا تغتفر، لأنَّ الشمس لم تشرق عليها أبداً، وبقيت تحت جنح ظلام مخادع.

عادت إلى غرفة التحقيق للمرة الرابعة، والسجانة تقبض على ذراعها، وتحاول ضبط ارتجافها ومنعها من السقوط، فوجدت نفسها أمام محقق أكثر هدوءاً، وعيناه تحملان عمقاً يخترق ذاكرتها:

- من هو يا ندى؟

رفعت رأسها باستحياء بدأ يعود إليها، تحاول أن تخفي خجلها من نفسها. عيناها المتعبتان تبحثان عن إجابة في الفراغ حولها، وتشير بإصبعها إلى رأسها، هناك يرقد العقل الذي خانها عندما أغلق أبواب المنطق والحياء، واستسلم لقلبٍ أعماهُ بريق الأوهام، وغاب عن محاكمة حياتها في أشد لحظات عوزها للحكمة. فقد ظنت نفسها قمراً يسبح في مداره وتوهجها يخطف الأنظار. لكنها لم تعلم أن الخسوف كان يتربص بها، وأن نورها سينطفئ تاركاً وراءه ظلاماً لم تكن تتخيله، وأنَّ نورها سيطفَأ بغدر لم تتوقَّعه.

تعرفت على (جميل) في أحد المؤتمرات التي رفع فيها شعارات تحرير المرأة بصوته ساحر وكلماته التي يلملم بها جراح المقهورين بلسماً. يتحدث عن التقاليد البالية بلسان ملتهب، ويدعو إلى التحرر وحرية المرأة بخطاب يذوب فيه العقل تحت العاطفة.

أحبت ندى كلماته وآمنت بالنبي الجديد من سلالة "مسيلمة الكذاب"، وبدأت تغرق في بحر وعوده الواسع، بينما يدها تفقد قبضتها شيئاً فشيئاً على حبل النجاة الذي صنعته لها تربية أبيها الحنون وأمها الحكيمة.

يوماً بعد يوم نمت العلاقة بينهما من مجرد زمالة إلى صداقة حميمة، ثم إلى حب مشبوه يلفه الضباب. تستمتع بوعوده الزوجية، فتبني عليها أحلاماً على شاطئ البحر، غير مدركة أن المد سيعود ليجرف كل شيء.

وفي صباح عادي كانت تنتظر حافلة الجامعة، فاجأها بدعوة لشرب "النسكافيه" في مقهى قريب. دعوة بدت بريئة، وفي الحقيقة كانت البوابة التي ستدخل منها إلى جحيمها.

لم تعد الرسائل الليلية الطويلة على مواقع التواصل تكفيهما. حتى الصور التي تبادلاها صارت وقوداً لنار الشهوة. وتطبيقات المراسلة ضاقت بهما، فلم تعد الكلمات الرقمية تكفي لعلاقة مبنية على الأكاذيب.

تظن أنها تبني قصراً من الحب، لكنها تحفر قبرها بيدها. كل كلمة حب قالها مجرد مسمار في نعش براءتها. كل لقاء جمعهما كان خطوة نحو الهاوية. ولم تعلم أن ذلك "النسكافيه" الصباحي سيكون أول خطوة في طريق العار الذي سينتهي بها بين أحضان الموتى الأحياء، أولئك الذين باعوا أرواحهم مقابل متعة عابرة.

همس في أذنها بكلمات معسولة، وكل جملة منها خيط في شباك أرملة سوداء تأكل رفيقها بعد الاكتفاء منه:

- سأعلمك الموسيقى ونرقص تحت النجوم. سنتجول بين الغابات ونستمع لزقزقة العصافير، وننام على فراش من الزهور.

كان ثالثهما الشيطان ينسج خيوطه بمهارة. ويده الآن تكتب على ورقة انتزعها من دفترها، وفي حركة مريبة لا تخلو من استعجال. أقنعها بأن ما بينهما "مجرد زواج عرف سريع" وقال بكل الحب:

- سأتزوجك قريباً. وهذه الورقة ستكون شاهداً على وعدي.

سقطت في الفخ وأصبحت وردة يدوس عليها. حاولت أن تقاومه، لكن قلبها الغرير أغلق باب العقل. تشبث بها كما يتشبث الجائع بلحم طري، وهي تغرق في بحر من الوعود الزائفة والأحلام المخادعة.

انقلب المشهد والسماء بدأت غضبها. تجمعت سحب سوداء وانهمر المطر بقطرات باردة على جسديهما. يغوصان في الوحل الذي صنعاه، والطبيعة نفسها تبكي على ما فقدته. انهارت الحدود بين البراءة والرذيلة، لتجد نفسها وحيدة مع الندم، وتائهة بين ذكريات ذلك اليوم الذي سلب منها أكثر من مجرد عذرية، سلب كرامتها وهويتها الأنثوية، سلب حريتها المزعومة، وكل ما كانت تؤمن به من حقوق.

تمر الأيام وقلبها يحمل ساعة انتظار لا تتوقف عن الدق. عيناها المنتفختان اللتان كانتا يوماً نافذة لروح بريئة، أصبحتا الآن كفتيلين محترقين في ظلام دامس. والخوف ذلك الوحش القابع في صدرها ينمو كل يوم، يلتهم ما تبقى من شجاعتها، وفي حوارها مع نفسها تتهاوى الكلمات من سجين مريض:

- لا. لا أستطيع البوح بالحقيقة. من سيصدقني؟ ومن سيقف في وجه تلك الآلة الجبارة من الأكاذيب ووصمة العار تلك؟

الأيام تدور إلى نهايتها، لتجد نفسها بقيَّة من حظ ملقاة على هامش الانتظار، وحيدة تعيش الغثيان على أطراف المرحاض لتتقيأ خيباتها، فالدنيا حولها تضيق كلّما تمدَّد الكائن الصغير في أحشائها، فضاق جسدها لأنه ينمو بلا استئذان، معلناً قدوم حياة جديدة، ومنادياً مظاهر الأُمومة أن تتحضَّر وتستعد. فتخاطب نفسها متحسرة:

- هل هرب جميل بحجة السفر؟ أَم تعهداته كانت حبراً مسحته قطرات المطر ليلتها.

أم كنت نزوة عابرة ومضت؟!

تفتش في حقيبتها بيد ترتجف، لتبحث عن تلك القصاصة الورقية، آخر أثر باق من أوهامها. لكن الورقة لم تعد سوى خرقة بالية، شجرة ميتة قطعت من جذورها، وأُلقي بها في العراء لتجف وحدها استعداداً للحرق.

تتهاوى كل الذكريات واحدة تلو الأخرى. تُمسح الرسائل من هاتفها، وتنطفئ الوعود في النهاية. لقد أخذ منها كل شيء، ثم طواها من دفتر مذكراته.

العار الآن هو رفيقها الوحيد، والأمل الذي كان يلمع في عينيها صار بعيداً مع أحلامها الغابرة. حتى طعامها صار مر المذاق، وماؤها يعلق في حلقها أقوى من سُم زعاف. وفي الليل ترافقها الكوابيس التي تعيدها إلى تلك اللحظة المشؤومة. كانت تنتظر اتصاله بقلب يخفق. تلتقط الهاتف عند أول رنين متلهفة لتسمع:

- متى اللقاء؟

لكن ما تسمعه الآن هو صوت آلي بارد: "لا يمكن الوصول إلى الرقم...!

وحيدة خائفة وحولها كلُّ الأهل والأصدقاء، متعبة مريضة رغم كلّ الدّواء. أفكار حزينة وأمنيات للموت والانتحار رافقت لياليها، وتحسُّ صدمة في بطنها تعقبها أخرى؛ تتراخى أفكارها قبل قوتها قائلة في نفسها:

- لن تقتلني على أيّ حال!

جاثمة على البلاط البارد وجسدها يرتعش، فانطلقت أول صرخة قطعت سكون الليل، شعرت أن الكون كلَّه يتوقف ليرى ما ستفعل. صوته البريء يناديها، يستنجد بشغف الأمومة التي غرستها الفطرة في قلبها، وبالإنسانية التي تخاطب ضميرها.

في تلك الثواني القاتلة دارت حرب في صدرها، من ناحية دمها يدعوها أن تحتضن هذا الكائن الضعيف الذي لا ذنب له، ومن ناحية أخرى نظرات المجتمع تلوح في مخيلتها، فسياطهم جاهزة لجلدها.

بقلب ممزَّق ونظرة جزعة رأته يبكي، يهدم ترنيمة الطفولة التي تحلم بها. قصص الحنان التي كان يسمعها في رحمها تتبخّر أمام عينيها، بينما زاد بكاؤه، وينادي:

- أشعر بالبرد يا أمي...

كل قصة حب قرأتها وأغنية حنان سمعتها، وكل أحلام الأمومة التي راودتها، صارت الآن سخرية قاسية. ذلك المخلوق الصغير الذي يجب أن يكون أغلى ما لديها، أصبح تذكاراً حياً لخطيئتها وشاهداً على سقوطها.

وفي النهاية عندما أطبقت يدها على ذلك الجسد الذي لا حول له ولا قوة، كان الكون كله يحبس أنفاسه قائلاً:

- لحظة واحدة ستفصل بين أن تكوني أماً أو قاتلة.

تجاهلت استعطافاته للحياة، وأخرست صوت الأمومة بداخلها. تهيم في زوايا غرفتها تبحث عن شيء يرشدها، بينما أنينه يزداد في حضنها، وأصابعه تتشبث بردائها، تحاول أن تمسك بأمل ضائع.

في عتمة الليل والصباح لم يتنفس بعد، ونداءات الفجر إلى الصلاة توقظ الضمائر قبل الأجساد، كانت تصارع شيطان الخوف والعار. كلمات المؤذن: "الله أكبر" تعلو فوق جلَبةِ لهاثها، لكنها لم تكف لإنقاذها من قرارها القاسي. فتحتضن وليدها والخوف يطاردها، وظل العار لا يفارقها. فدفن العار وتغطية الفضيحة يشغلان تفكيرها المأسور، قادتها قدماها إلى حقل قريب حيث السنابل الطرية، التي تشبه ضفيرتها المعقوصة في شعرها.

جثت على ركبتيها لتقيم طقس الوداع الأخير. فنظرت في وجهه الذي يشبه قطعة خبز طريّة، وتأمّلت نظراته الغائرة، وشفتيه المرتجفتين الزرقاوين. فسمعت صوت القبر الذي حفرته في الأرض قبل قلبها يقول:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

عادت واحتضنت طفلها بقوة، تعاني من رعشة حُمّى، فالفصول الأربعة تناوبت عليها في لحظة واحدة. لم يكن هناك شيء منظّم في تفكيرها، فقط خوف وندم وألم لا يوصف.

أخفت جسده الصغير في حضنها ليدفأ قليلاً، لتعيد له من روحها حياة أخرى، ولم تكن تعلم أنَّ برودته ستظل تلاحقها طوال حياتها، فالدفء تسرب من بين برودة أضلاعها، يجر نبضه الذي حاولت التمسك به، لتكون ذكرى قاسية عن جريمة لن تغفرها لنفسها أبداً. لقد دفنتْ معه جزءاً من روحها في حقل من السنابل الخضراء، التي لم تعد ترى فيها إلا شاهداً على خطيئة لن تغتفر.

عاد بها المحقق هذه المرة إلى زنزانتها بعد منتصفِ الليل، وكل خطوة يخطوها تثقل كاهله أكثر من سابقتها.

كان سجله ممتلئاً بعرقه المتصبّب، فالكلمات التي سمعها تحرق جلده قبل أن تُسجّل. خيّمت على ملامحه سحابة من الشفقة والأسى، ويحمل في صدره ثقل قصة لم يكن مستعداً لسماعها. وعيناه مثل حصاتين في جدول ماء صاف. كلما نظر إلى الفتاة شعر بأنَّ شيئاً ما في داخله يذوب، برودته التي اعتاد عليها تتحوّل إلى ماء تحت وطأة ما سمع.

رغم جلافة رجال القانون واعتيادهم على سماع أبشع القصص، إلا أنَّ هذه المرّة مختلفة. فالحدث أكبر منه، أكبر من كل ما مرَّ عليه في سنوات عمله. وقف للحظة أمام باب الزنزانة يحاول أن يستجمع قواه. يشعر بشيء ما في داخله قد انكسر، شيء لم يكن يعرف أنَّه موجود. ربما كانت الإنسانية التي أخفاها طويلاً تحت قناع الصلابة والقسوة. فأغلق الباب ببطء يخشى أن يصدر صوتاً يزعج صمت الليل. لكنَّ الصمت الذي خيّم على المكان لم يكن سوى وهم، ففي داخله عاصفة من المشاعر تهدد أن تطيح بكل ما اعتاد عليه. لقد رأى في عينيها طفلاً موءوداً، ورأى في قصتها جرحاً لن يندمل، ليس لها وحدها بل له أيضاً.

تعود إلى الزَّنزانة لترى روحها تسبقها إليها، الجسد متثاقل بقدميْن خذلتاها. تجرُّ نفسها كمحراث فوق تراب موحل، فلم تعد لديها فكرة عن الزَّمان والمكان، غاب العالم عنها وتحطَّمت كل الصِّلات، وتسبح في الفراغ واللانهاية؛ لتقع على أرض سجنها هامدة، وروحها ما زالت تلمع في سقف الزّنزانة مثل قنديل باهت.

تفتح عينيها من جديد، فترى والدها يقف عند طرف سريرها في المستشفى، زاد انحناء ظهره ويحمل هموم الدُّنيا فوقه، وأمُّها تتكِئ على كرسي في ناحية الغرفة، وتبدو تجاعيدها قطع زجاج مهشَّم، تحكي قصَّة عُمْرٍ طال.

- سامحوني، كانت لحظة ضعف تملَّكتني...

يجيبها والدها بِحَنَقٍ ظاهر: لقد أكل النَّاس وشربُوا مني!... قالوا فينا أبشع ما يقال.

يحبس دمعة كادت تنزل، يتظاهر بالقوة والجلد، أما أمُّها فلا تتحدَّث سوى بدموعها ونحيبها.

لقد أدركت ندى للتوِّ أن لا سعادة لها على وجه الأرض بعد أن لفظها باطنها وأرسلها إلى المستشفى، لتكون أشد حزناً وسقماً في كل العالم.

وقف الأب أمام ابنته، شجرة عتيقة تحمل أغصان الحكمة، يمسح على شعرها بيده، وصوته كان حازماً يقطع الهواء. نظر إليها بعينين تحملان لوعة الأب وخيبة الحليم، ثم بدأ يخاطب ما تبقّى من روحها:

- يا بنيتي، أتراك تظنين أنَّ الحب يباع في السوق، والحياة ستمنحك الورد دون أشواك؟، وهؤلاء الذين أغروك بابتساماتهم الزائفة، هل سيمدون لك أذرع العطف دون مقابل؟ ليسوا سوى ذئاب تلبس جلود الحملان، يزرعون الوعد مع الطحالب لتعيش في برك آسنة، لا تعرف التكاثر إلا على حساب جثث من سبقوك إلى الغرق.

ثم ينحني أمامها متصدعاً، وعيناه تفيضان بالدموع:

- يا بنيتي، جعلت من نفسك بركة مظلمة محصورة بين أسوار سوداء عالية، حجبت عنك شعاع الشمس كي لا يجفّف أوراقك التي أخذت بالتعفّن.

يرفع رأسه عنها بعيداً، ويهم بالمغادرة:

- ليتني رأيتك قبل أن تحفري بيديك قبر براءتك. كل لقاء مع هذا الماكر كان حفرة تتعمق، كل كذبة قبلها قلبك الطيب منه، كانت حجراً في جدار سجنك.

كل كلمة ينطقها مطرقة تدقُّ على قلبه قبل قلبها، يعلم أنَّ العتاب القاسي هو آخر ما يمكن أن يقدّمه لها لعلّها تستيقظ من غفلتها. صوته يهز جدران الغرفة، وفي الوقت نفسه يحمل دموعاً حارقة.

لقد أراد أن تدرك حجم الخطيئة التي ارتكبتها، وأن تعلم أنَّ الحياة ليست برّاقة كما تخيّلت، وأنَّ الحب الحقيقي لا يشترى بكرامة ولا يُستلَبُ بجهل.

أطرقت ندى برأسها ودموعها تسقط على يدي أبيها. صوتها خرج مكسوراً من قاعِ بئرٍ مظلم:

- أبي. أعرف أنني كنت ساذجة، ظننت أن كل نور هو شمس، فاحترقت بنار أخبث من الجحيم.

انحنت على يديه المتعبين، وشفتاها ترتعشان: غرقت في بحر أوهامي، وتركت يدك التي كانت تمسك بي منذ الخطوة الأولى. سامحني. لقد دفعت ثمن غفلتي بعمر لن يعود، وقلب لن يشفى.

ثم رفعت عينيها الدامعتين، ونظرة فيها كلُّ ندوب الماضي: لكنّني أتعلم الآن أن الحب الحقيقي كان هنا. بين جدران بيتنا، في صبر أمي وفي عينيك اللتين تحملانني حتى وأنا أسقط.

سامحني لأنني لم أرَ ذلك إلا بعد أن خسرتُ كلَّ شيء.

وألقتْ بنفسها بين ذراعيه، طفلة ضائعة عادت أخيراً إلى مأواها.

- لن أطلب منك أن تنسى أو تسامح، فقط دعني أكون ذلك الجزء المكسور الذي تحاول إصلاحه. ربما يوماً ما، نستطيع معاً أن نزرع وردة فوق قبري أنا الأخرى. تلك التي دُفنتْ مع طفلي.

استجمعت الأم شجاعتها ووقفت أمام ابنتها، وعيناها تفيضان بدموع العار المختنقة، وتهمس بكلمات تُخرِج روحها معها. تتمتم بصوت صداه بعيد يأتي من أعماق قلب مجروح:

- لقد اخترت حياة مأهولة بالشياطين ومجبولة بالمعاصي، وصارت مكاناً يحلو لعيشك. كنت أحرسك بكل ما تبقى من قوتي، وتختبئين بعباءتي عندما تسمعين صوت الرعد، حتى ضعُفتْ حواسي من السهر والخوف عليك. وعندما جاء دورُك لتحفظي نفسك هويت إلى الحضيض.

عاد صوتها يرتفع شيئاً فشيئاً، ويحمل ألماً كتمته، ثم أضافت بنبرة مليئة بالأسى:

- أصبحت حياتك ممرّات ضيقة كملابسك الفاضحة، حتى الأشواك القصيرة هاجمتك، زيَّنت وجهك بألوان كاذبة، حتى لم أعد أنا أعرفك.

انحنت الأم تلتقط أشلاء كبريائها المبعثر، ثم واصلت بعتاب يذيب الصخر: عندما غبت عن حقيقتك، سمَّيت ذلك جمالاً!

كلمات الأم سيف يقطع الهواء، وفي الوقت نفسه تحمل لها حباً وألماً لا يوصف. أرادت أن توقظ ابنتها من غفلتها، أن تريها حجم العار الذي جلبته، وتذكّرها بأنَّ الجمال الحقيقيّ ليس في الألوان الكاذبة. فالأم تعاتب وعتابها نداء لابنتها كي تعود إلى نفسها، قبل أن تفقد ما تبقّى.

سقطت ندى على ركبتيها أمامهما، جبهتها تلتصق بالأرض كما لو كانت تحاول الاختباء في تراب الطفولة. دموعها تبلل قدمي أمها، وهي تختنق بثقل الذنب:

- يا أماه. اعفيني من ‹بُنيتي›، فلم أعد أستحق هذه الكلمة. لقد نزعت عني رداء الحياء الذي حاكته يداك بخيوط من نور وفضيلة، وارتديت بدله قماشاً رخيصاً ظننته أنوثة، فإذا هو خدعة قذرة.

ورفعت رأسها وعيناها تعكسان سنوات الضياع: تعلمت بالدم أن الأنوثة ليست ألواناً تزول بالماء. ولا جسداً يعرض في الأسواق. الأنوثة هي ذلك الندى الذي يلمع على زهرة محتشمة، لا يجرؤ أحد على قطفها إلا ببركة الزواج وبيد تحمل خاتم وفاء.

وضغطت على صدرها كما لو كانت تحاول إخراج القلب الأبيض الذي فقدته:

- ظننت أن الحرية أن أخلع حجاب الحياء، فإذا بي أخلع كرامتي، ظننت أني أقتن الحياة ببيع عفّتي، فإذا أنا أبيع روحي للشيطان.

ثم انحنت على يدي أمها المتجعدتين تقبّلهما بقسوة:

- سامحيني لأنني جعلت يديك تلمسان عاري وخزيتي. سامحيني لأنني نسيت أن جمال المرأة ليس فيما تظهره، بل فيما تحرسه في صدرها كالكنز الثمين.

وهمست أخيراً بصوت أشبه بأنين المحتضر:

- علميني من جديد يا أماه كيف تكون الأنوثة؟ كيف أعيد إلى قلبي ذلك الحجاب الأبيض الذي نسجتِه لي قبل أن أخلعه بيدي؟ ربما لو غسلتِ جراحي بدموعك، أستعيد شيئاً من نقاء تلك الطفلة التي ماتت في طريق العودة.

تشعر ندى نفسها خربة مهجورة وبائسة باردة، عاشت مئات الأعوام وهجرها محبوها بعد أن امتلأت بالشُّقوق، بدت أشبه بأولئك المجرمين في ذاكرة أفلامها، الَّذين مارسُوا كلَّ أنواع الفسق والفُجور والإجرام، فلا وجود في العالم أبشعَ من تلك الصّورة.

في صباح بارد في زنزانة السجن، وأشعة الشمس تتسلل عبر قضبان النافذة الصغيرة، تتراقص على الأرضية الإسمنتية. تجلس ندى في الزاوية محدقة في الفراغ، ويداها ترتجفان حول ركبتيها. أمينة تحمل مصحفاً، وتتوقف لحظة عند رؤية حال صديقتها. تقترب منها وتجثو أمامها:

- نعم. أحببت كما يحب كل إنسان. لكنني فتحت نوافذ روحي للرياح العاتية.

تمسك أمينة بيد ندى المرتعشة وتشد عليها لمواساتها.

ندى: كنت أظن نفسي أسيرة خلف أسوار بيت أبي.

أمينة: -ترفع يدها لتجفف دموع ندى- تلك الأسوار كانت حديقة تحميكِ. لكنهم أقنعوكِ أن الحرية وراءها. كنت أعتقد نفسي أسيرة مثلك، عالمي كان مسوَّراً لكنَّه واسع، هناك من أقنعتني في الجامعة أنَّ ما بعد السُّور عالم آخر.

- ماذا حصل معك؟
- كنت أعيش البراءة والنَّقاء حتى تسلَّقت يوماً ذاك السور، وأصبحت مدمنة مخدرات وكحوليات، ولم أشعر بأي تردُّد حينها، مفعمة بالفرح، وعشت الشَّوق المحموم مع كل من نفث دُخانه في وجهي.

ندى: لماذا تخبريني بقصَّتك الآن؟

- أقول لك هذا لأنّ ما حدث ما كان ينبغي أن يحدث لنا، وكل غواية نعيشها قابلة للمواجهة، ولكننا لا نستمع إلى الصَّوت الخفيِّ في داخلنا، لأنَّنا اعتبرنا أنفسنا منذ الولادة ضحايا مجتمع متخلّف، ولكنَّنا في الحقيقة كنَّا قديسات فيه.

تقود أمينة ندى بلطف إلى الحنفية للوضوء، فتقطر دموع ندى مع الماء، وتصطفان لصلاة القيام في زاوية الزنزانة، أمينة تؤم الصلاة، وفي السجود تسمع أنفاس ندى المضطربة:

- اغفر لي يا رب. اغفر لي.

أمينة: - تقرأ من المصحف – قال تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ".

بعد الصلاة تجلسان متقابلتان على الأرض، وأمينة تمسك يدي ندى بين يديها وتسمعان صوت مؤذن الفجر البعيد ينادي للصلاة، وتشير أمينة إلى النافذة:

- انظري واسمعي. ربك يناديكِ من السماء.

ندى: -تغمض عينيها- يا رب. ها أنا ذا تائبة منكسرة. وقد ناديتني قبل دفن طفلي ولم أجبك. والآن أستجيب لك، فاقبلني بمغفرة من عندك.

تمسك أمينة بيد ندى وتضعها على صدرها

- هل تشعرين بهذه الطمأنينة؟ إنها بداية طريق العودة.

ندى تبدأ بالتسبيح: "سبحان الله وبحمده.. سبحان الله العظيم...

وتمرُّ الأيام وتتناوب عليها الزّيارات في سجنها من بعض أقاربها وصديقاتها، في كلِّ مرَّةٍ تشعر كم كانتْ حمقاء، تسمع كلمات العتاب المزيَّنة بالمؤازرة الكاذبة، كمن تسمع عجلات باب جرّار صدئة، تنزلق في قلبها صارخة محاولة فتح شيء في ذاكرتها أغلقته منذ زمن.

كل ليلة وفي كل شهر، عندما تطل من نافذة السجن إلى السماء، يتحرك في ذاكرتها رماد تلك اللحظات التي أحرقت فيها حياتها، وبقايا ذكريات وكلمات وأفعال، لا يمكنها أن تدافع عن نفسها منها، تستيقظ ووجهها مصبوغ بسواد ذاك الرَّماد، فتعاود غسله مستعينة بالله مهتمة بعبادتها، وتنقية روحها وجسدها، تقاوم وتستنفذ كل طاقتها، تريد إنهاء حياتها المضطربة؛ لتعود إلى الحياة الصافية النقية، فقد كانت هناك نوافذ مغلقة، وبدأت تتفتَّح في تفكيرها. وتقول لرفيقتها أمينة:

- بدأت الحياة تُلوِّحُ لي بيدها من خلف الأسلاك، أراها من خلف أهداب عيوني المُوارِبة على كل ضوء، كل دقيقة هنا قرْن من العذاب، رغم أن الاحتفال يقترب.

حلّت بشريات عيد الأضحى وتكبيراته محمولة عبر الهواء، تمتزج مع صوت البكاء والنَّحيب في أرجاء السجن، لا طعْم للفرح ولا اللقاء، تفاصيل كثيرة ما زالت تشوِّش كل فرحة قادمة، وتثور المشاعر في كل لحظة انفراد.

- يحتج داخلي وتتصارع أفكاري، أين ندى الأُولى؟

- أين جميل بقبحه ودناءة أفعاله؟

في اليوم التالي تحضر لها رفيقتها قطعة حلوى ملفوفة بورقة صحيفة يومية، تضعها على طرف السرير، وندى ممددة تراقب السقف، وبقع الرطوبة هناك تشبه الغيوم السوداء.

تنتفض من فراشها وصرخة كبيرة تحاول انتزاع حنجرتها رغماً عنها، استفاقَتْ من كابوس وتريد الصراخ أكثر:

- إنه جميل! ... نعم، إنه هو...

صورته ملطخة مجعدة مطوية في طرفها، وعبارة باللون الأحمر:

- "إلقاء القبض على مجرم هارب من العدالة كان يستغل الفتيات...!

لتكن قصة ندى مرآة ترينا وجه الحقيقة القاسية. أيها الشاب وقبل أن تمد يدك للحرام، توقف واسأل ضميرك كما علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم: أترضى هذا لأمك؟ أتقبله لأختك؟ أتريد لابنتك أن تكون ضحية شهوة عابرة؟

أيتها الفتاة، قبل أن تتنازلي عن دينك وحيائك، تخيلي أمك مكان تلك المرأة المخدوعة، وفكّري في أبيك وهو يذرف دموع العار. إن كل نظرة محرمة ولمسة حرام، وكل علاقة غير شرعية، هي خطوة نحو هاوية لن تخرج منها إلا بالألم والندم. فكما لا ترضى الفتاة أن تُهان أمها، لا ينبغي أن تهون كرامة غيرها من النساء. وكم من نظرة أورثت حسرة، وكم من كلمة قادت إلى فضيحة، وكم من خطوة كانت بداية النهاية.

فاتقوا الله في أنفسكم، واحفظوا الأعراض، فإن الله كان عليكم رقيباً. واعلموا أن العفة ستر في الدنيا، ونجاة في الآخرة، وأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته.

اليد المرتجفة

لم تعد الطفلة ذات السنوات التسع تحتمل عبء الدنيا على كتفيها الصغيرين. اليتم سكين يجرح قلبها كلما تذكرت دفء أمها، والفقر ظله أسود يلاحقها حتى في أحلامها، والعمل الشاق يحرمها من براءة الطفولة، بينما مرض والدها يذكّرها كل يوم بأنها قد تخسره أيضاً.

تمعن النظر من نافذتها، تظن الكون كله متواطئ ليكسرها. لكنها تقف هناك كل ليلة، تبحث بين قطرات المطر عن ذرة أمل تتمسك بها. القطرات تتساقط وتنساب بخفة على زجاج نافذتها، تتراقص على سطحه الضبابي، ترسم لوحة من الذكريات. تمدُّ أصابعها نحو الزجاج لتتبع خطوط الماء. ترى في كل قطرة صورة أمها. تلوّح لها بابتسامة هادئة، تختفي ثم تعود، تلعب معها لعبة الأمسيات البعيدة. تحاول الإمساك بها وأن تعيدها إليها، فتتبخر بين أناملها. تصرخ باسمها بصوت مبحوح ممزوج بالدموع، فيأتي صدى همساتها من بعيد:

- الحياة ستسير يا صغيرتي، حتى لو ثقلت عليك الخطوات. الشقاء قد يسرق منك سنوات، لكنه لن يبقى إلى الأبد. سيأتي يوم ويقفز من نافذة قلبك ليتركك تعيشين بسلام.

في ليالي الشتاء القاسية، والتي لا تختلف عن ليالي الصيف الخانقة، يخيم الصمت وتتجمد الأنفاس، تلجأ إلى غطائها البالي، ما زالت رائحة أمها عالقة فيه، نداء خافت يطرق ذاكرتها من الماضي. كل خيط فيه يحكي قصة:

- هنا ضمّتني حين خفت من صوت الرعد، وهناك مسحت دموعي حين سقطت عن الدرج، وهنا لفّتني بهدوء حين اشتعلت الحُمّى في جسدي. أغمض عينيّ وأحسّ بأناملها الدافئة تمر على شعري، نسيم خفيف من عطفها: "نامي يا قمري، أنا هنا معك ولن أتخلى عنك"

تتسلل إلى المطبخ وتفتح الخزانة العتيقة، وتبحث عن الكأس الذي كانت تشرب فيه شاي المساء. تضعه على قلبها، وتتخيلها جالسة على الكرسي الخشبي تغني أغنية المهد التي تهدئ روعها. كان صوتها يشبه خرير الماء في الوادي ناعماً ولا يمل. الآن صار الوادي جافاً، وصارت الأغنية مجرد صدى. وتقول:

- حتى رائحة الخبز المحترق تذكرني بها. كانت تحرق الخبز دائماً لأنها تلهو بقراءة القصص لي، أو تُعلّمني رسم الفراشات على النافذة. كنت أضحك عليها وهي تقول:

- "الخبز الأسود ألذّ لأنّه من صنع أمك."

اليوم حتى رائحة الخبز الطازج لا تسعدها. لأنّ يديها ليست هناك لتقدمه لها. في زاوية الغرفة ما زال الدبّ القطني يجلس وحيداً بانتظارها. كانت تخبئ فيه الحلوى لتجدها عند النوم. الآن لم يعد فيه سوى ثقوب قديمة من فئران هجرت بيتها. فتضمّه إليها وتحاول أن تستنشق عطرها بين قماشه الباهت، لكن ما تتذكره هو صوتها الأخير قبل أن تغيب إلى الأبد:

- "كوني شجاعةً يا بطّلتي"

تحدّث أمها باستمرار وهي تتلوّى من الجوع تحت والبرد:

يا ليتني أتحرّر من سجن الفقر هذا، فالرصيف الذي أعمل عليه صار ضيقاً، كل حجر فيه يرفض وجودي. مع أنه أكثر رقة من قلوب البشر، وإشارة المرور مسرح للمذلّات، بائعون يصرخون، وأطفال مثلي يبيعون المناديل وأصابعهم متورّمة، ووجوههم محترقة، ونساء شاحبات يغسلن زجاج السيارات بينما يصرخ بهنّ السائقون. أما السوق يا أمي فويلٌ من الجحيم. أجساد نحيلة تتدافع، وأنفاس ساخنة تتعارك على رغيف خبز مُلقى في الوحل. أنظر إلى حذائي الممزّق -الذي كان لك قبل أن تمرضي- فأرى أصبعي يطلّ مستغيثاً. جسدي صار خريطة للأوجاع والكدمات، وركبتايَ تنزفان من السقوط، ويديَّ تحملان ندوباً من زجاج مهشّم بحثاً عن طعام في طرف القمامة، حتى عيناي لم تعدا تبكيان. جفّتا كبئر مهجور. وفي الزحام يا أمي، الحياة لا ترحم الصغار.

مرّةً دهستني عجلات دراجة مسرعة فسقطت، فضحك المارّة من "رَقْصة الفقيرة". ومرّة أخرى سرقوا منّي الخبز الذي وجدته بعد ساعات من الانتظار أمام مخبز، فلم أنطق. فقط ابتلعت صراخي. حتى الكلاب في الشارع تُنْبح لأنّ رائحتي صارت مثلها.

أتعرفين يا أمي ما معنى أن أكون طفلة يتيمة ولا أحد يحميني؟

أن تري يا أمي أطفالاً آخرين يحملون حقائب المدرسة وأنا أحمل قنينة ماء إلى والدي المريض. أن أسمع ضحكات من النوافذ المضيئة وأنا أختبئ تحت شاحنة من الريح. أن أحلم بالذهاب إلى الطبيب بينما أسعل دماً في صمت.

كانت أمها بيديها المجروحتين من خياطة الأثواب ليلاً، وحياكة الصوف نهاراً، تكسب لقمة العيش التي بالكاد تسدُّ رمقهم. وكانت صفاء تبيعها:

أجرُّ أقدامي الصغيرة في الأزقة، وأحمل بين ذراعيَّ ثمرة كدِّها، أبيعها لأشتري خبزاً يسكت ألم بطني، أو دواء يخفف أنين أبي، فقد أقعده المرض وصار جسده سجيناً، وروحه مثقلة بالعجز.

أحلامي تلك الكائنات الهاربة، تلوّح لي من بعيد، تبقى بعيدة المنال، نجوم في سماء لا أملك سلَّماً لألمسها. حلمي بالعلم، ذلك الشغف الذي يشبه تعلقي بالحياة، تحوَّل إلى أمنية بعيدة بعد رحيلك. صرتُ كنجمة "بنات النَّعش" في السماء، أحمل على وجهي الصغير سبعة أيام من التعب، كل يوم أثقل من الذي قبله.

الجغرافيا ذلك المحيط الواسع، صار في نظرها سجناً بائساً يحيط ببيتها المتواضع. الأيام تلك النحاتة القاسية، تحفر في ملابسها البالية فجوات من الفقر يصعب رتقها أو إغلاقها.

وفي طريقها الطويل إلى الحياة، تغوص قدماها في الطين، فتشعر ببرودته تلامس أصابعها، تحاول الإمساك بقدميها لتبقيها هنا، في هذا العالم الذي سرق منها طفولتها، وتركها تلعب بألعاب وهمية صنعتها من بقايا أحلامها.

كل صباح تسير وحيدة حتى طرف الحيّ، ثم تخطو إلى الشارع المنبسط نحو المدينة. حفرٌ عميقة تخنق جانبيه، جراح الأرض التي تعاني مثلها. خطواتها تترك أثراً على الأرض، لكنها تعلم أن الأمطار ستمحوها، كما محت كل شيء جميل في حياتها. تمشي مسافة كيلومترين أو أكثر حتى تصل إلى طرف السوق، حيث تملأ الهتافات الهواء:

- "ريحاوي يا موز، خليلي يا عنب. على السكين يا بطيخ..."

تسمع أصوات البائعين تتداخل مع دقات قلبها، وتواصل سيرها حاملةً أحلامها رغم كل شيء. وتقول في نفسها:

- يا لها من أهازيج تجمع بين مزاج الفكاهة والقهر والجوع، لعلَّ أحدهم ينادي عليَّ لأتذوق شيئاً منها.

ما إن وصلت إلى السوق، حتى بدأت تبحث عن مكان جديد، ربما يكون أكثر رحمة من الأماكن التي سبق وأن وقفت فيها. وتتساءل في نفسها:

- أين يمكنني أن أقف اليوم؟ عند باب المسجد؟ أم في زاوية من زوايا السوق؟

لكن سرعان ما تخيب آمالها، فهي تعلم أن المكان الذي تريده قد يكون محظوراً عليها. تتذكر كيف سرق منها ولدٌ يبيع المحارم مكانها قبل أسبوع، والشرطي عند الإشارة الضوئية قد يطردها أو يحبسها.

فتقرر أن المحطة هي الخيار الأفضل، رغم أنها ليست سوى مكان آخر يغص بالغرباء، الذين لا يرونها إلا ظلاً عابراً، وتظن ببراءة أن كل من يركب سيارة قد يشتري منها "علكة" ليقتل ملل الطريق، فيقتل معه جوعها. فتقضي يومها كله من شروق الشمس حتى حلول الظلام، تقطع الطريق على المارة، فاصلة لطيفة في جملة مكتظة بالكلمات.

تحاول أن تسرق نظراتهم بلمعة عينيها العسليتين، وشعرها الأسود الذي يتدلى على جبينها. تختار كلماتها بعناية، وتعرض بضاعتها بصوت ناعم، تقدم لهم قطعة من طفولتها المدفونة تحت ثقل الحياة.

بعضهم يتوقف يتأملها ثم يشتري، شفقتهم هي التي تقودهم. لكن آخرين يمرون بلا اكتراث، فهي مجرد الجزء المعتاد من المشهد اليومي الذي لا يستحق حتى نظرة عطف.

بعد يوم طويل من التعب، تلجأ إلى ركن مظلم في المحطة، تختبئ فيه من خيبتها وحظها العاثر. فتقول للقطة النائمة جانبها:

- اليوم لم أحقق ما يكفي لشراء الخبز، ولم أستطع أن أسد جوعي، أو جوع أبي الذي ينتظرني في البيت.

تراقب الشمس وهي تختفي وتهرب منها. جوعها يشتد وأمعاؤها تصرخ وتقرقع، توبخها على فشلها. فتقول لها:

- اليوم لم ينجح الأمر، المارة لم يريدوا شراء العلكة. سنجوع يوماً آخر لكننا سنبقى هنا، نحاول من جديد.

هذه المرّة لن تستسلم، فكَّرت في تجربة شيء جديد، فرغم تورُّم قدميها، وقد فرغت منهما قوتهما، قرَّرت الحصول على الطعام بأي طريقة، لتطعم والدها بعض اللقيمات؛ توجهت نحو فرن مقابل، فرائحة الخبز تنادي جوعها وتشده. اقتربت من رفوف الخبز التي تركت لتبرد على الرصيف؛ فنمت براعم خوف مفاجئة في أطرافها، حاولت مدَّ يدها لأخذ رغيف واحد، وبسبب ارتعاد يدها لم تقوَ على ذلك، والتفَّت أصابعها حول نفسها رافضة الاستمرار، فقالت في نفسها:

- لقد تربيت على أن السرقة حرام، لكنني جائعة، حسناً. سأدفع ثمنه غداً.

تكرر المحاولة مرة أخرى وترفع يدها ببطء أكثر، وفجأة تصلَّبت يدها عن الحركة، وكاد دفْق الدم يتوقف عن أصابعها، فقد أصبحت مصفرَّة، رفعت رأسها هُنَيْهَة، وتسبقُها عيونها بالاستعلام، فأطلَّ من بين الرفوف رجل ضخم محملقاً فيها، رجل ثلج بدأ بالانصهار أمامها، مُعفَّرٌ بالطَّحين من رأسه حتَّى قدميه، عينُه تلمع مثل البرق، والأُخرى مغطاة بالطَّحين، شعرَت بخوف يحيط بها من كلِّ جانب، وتبدَّد صمت جوعها واجتاحتها نوبة بكاء صارخ، تملَّكها الرُّعب، وفي محاولة للإفلات من قبضته؛ سحبت يدها من بين أصابعه؛ لترى ذراعها مخطَّطاً بِحُمْرَة، يختلط مع خوفها وألمها، ولكنَّه أعاد الإمساك بكتفها.

- انتظري قليلاً يا صغيرتي.... توقَّفي عن الصُّراخ والبكاء.

تكوَّمت على الأرض بجواره، وصراخها الهستيري يُلملِمُ المارَّةَ حَولها:

- أين أنت يا أمي... أمي...

حاول طمأنتها وإسكات صراخها، قدَّم لها رغيفاً من الخبز، وجفف عرقها المختلط بدموعها بطرف مريوله، ثمَّ همس بصوت رقيق:

- لقد أمسكت يدك لِئلا تحترق!

بدأ السكون يعود إلى قلبها، وابتلعت دموعها، وترفع رأسها مثل وردة تتفتَّح بَتَلاتها، مدت يدها لأخذ الرَّغيف لكن أصابعها توقفت. تذكَّرت منديل أمها المطرَّز بأزهار الياسمين، ذلك الذي تلف به الخبز في ليالي الشتاء القارس، حين كانت أمها تقول: الخبز يحفظ بالحب، يا صغيرتي.

لفَّت الرغيف بالمنديل بحرص، كما لو كانت تخبئ فيه أكثر من مجرَّد خبز. تخبئ ذكرى لن تعود. فوالدها ينتظر، وفي تلك اللحظة قاطعها:

- من أنت، وما اسمك يا صغيرتي الجميلة؟

- صفاء، صفاء يا سيدي، أنا جائعة جداً، وأبي كذلك.

تحملق في وجوه الواقفين حولها، وتقرأ فيها الشفقة، وآخرون تعتليهم نظرة الازدراء والاستغراب، أما الخباز فقد نفض الطَّحين عن ملابسه، وأحضر كرسيِّين من القش، جلس مقابلها بعد أن أجلسها، وأحضر فطيرة لحم كان خبزها، وقدمها لها لأكلها متى شاءت، قائلاً:

- حدثيني عن أبيك، وعن أسرتك؟

بدأت تروي حكايتها البسيطة مثل عمرها، تنبش في ماضيها الموجع، وغمغمت كلماتها بالدُّموع حين قالت:

- وماتت أمّي بعد ذلك، تركتنا أنا وأبي وحيدين في البيت، ثم تَـرَكْـتُ المدرسة لأعمل. هذا كلُّ شيء يا عم.

كانت المفاجأة مدهشة له، هو يعرف والدها، فقد عمل عنده مدَّة من الزَّمن، وتذكَّر فرحته عندما وُلدت، وفرحه معه مما أيقظ تعاطفه معها. فأمسك بيدها وبالأخرى فطائر متنوِّعة، وتوجها إلى البيت. أوقف سيارته في باحته، وبدأ يتأمل نوافذه المغلقة على الحياة، والسكون يسود المكان، وجدرانه المشقَّقة تروي جراح ساكنيه، دخلا البيت وهو يربِّت على كتفها قائلاً:

- لن أؤذيك، وسأرعاك.

تقدم الخباز نحو أبيها، كان في غرفته متربعاً في قلب سريره، كومة من الأحزان أخف منه، وبالأَنين ينادي عليها:

- صفاء... صفاء

السّتارة البنيُّة مُسدلة على النافذة، بجانبها غُرِسَ وتدٌ في أحد الشقوق معلق عليه كيس من خيش، فيه بقايا طعام تعافها النفوس، تأمل البيت بجدرانه العارية التي لا تنتظر ضيفاً، ولم يجد في زواياه إلا نسيج العناكب، والفئران هجرته منذ مدة؛ بدا كئيباً مظلماً لا حياة فيه.

بعد جلوس الخباز على حافة السرير، التقط أنفاسه بعمق، يحاول استعادة شجاعة ضائعة. نظر إلى والد صفاء بعينين تائقتين بين الندم وبعض المكابرة، وأصابعه تتشابك وتنفك، يحاول عجين كمات لم تعجن بعد.

الخباز بصوته الأجش، ولكنه يحمل طبقات من الذنب:

- أتعرفني حقاً يا حسن؟ بعد كل هذه السنوات!

والدها يحني رأسه. غصن مكسور من علاقة قديمة كانا فيها مثل الأخوة، لكن صوته يحمل الكبرياء:

- كيف لا أعرفك؟ كنت أرى وجهك في كوابيسي كل ليلة. أسمع صوتك يهمس للزبائن: ‹هذا لص!› بينما يديّ تغرقان في العجين مثل أيامنا الأولى.

صفاء تضغط على يدي أبيها لتمنعه من الانفجار: أبي. أرجوك لا تغضب، ستتعب أكثر.

ينظر إلى ابنته ثم ينفجر غضباً، ويضرب صدره بقبضة يده:

- أنا... أنا من يجب أن يغضب، لقد سرقت رزقك؟!، وهل أنا من حولت طفلة بريئة إلى متسولة؟!

وينظر إليه وتشتعل عيونه ألماً وغضباً:

- أتذكر يوم علمتك سرّ الخميرة الباردة؟ كنت تبتسم كمن وجد كنزاً. أما أنا فكنت أخبئ السم في العسل؟!

بدأ والدها يسعل دماً في منديل، ثم يرفع عينيه بتحد مفاجئ:

- كنت تخاف أن أتفوق عليك. لكنك نسيت أننا أصدقاء قبل أن نكون خصمين.

الخباز ينهار داخلياً، وصوته يهتز في عاصفة كلام والدها:

- نعم. وخان الصديق أخاه! -يمسك بيد والدها- والآن ها أنا ذا أرى ما فعلته بك وبها -يشير إلى صفاء- لو عاد الزمن. لكنّ الدم الذي تسعلونه لا يعود إلى الصدر.

تتدخل صفاء من جديد ببراءة لتقطع التوتر بينهما:

- عمي أكرم. هل ستصنع لنا خبزاً بالزعتر كما كنت تفعل قديماً؟

ينفجر الخباز ببكاء غليظ، ينحني أمام السرير مستجدياً العفو:

- سأصلح أكثر من ذلك. سأعيد لك أباك كما كان، سأُدخلك المدرسة يا صغيرتي ثم الجامعة، سأجعل بيتي بيتك الثاني. لكن هل تسامحون شيخاً غبياً ظنّ أن الكرامة تسرق مثل رغيف خبز؟

يمسك والدها بكتف الخباز، عيناه تلمعان بتوق قديم:

- الكرامة لا تسرق. لكنها تهشم حين ننسى أننا خلقنا من نفس الطين.

كان والدها يتحدث عنه، وينظر إلى صورة أخرى في بركة ماء صافية. تلك الصورة تتمايل، وتحاول أن تثبت على هيئة واحدة، لكنها لم تستطع.

جاء الخباز وزوجته في صباح اليوم التالي، لم تكن صفاء تتخيل ذلك إلا في أحلامها. فقد حملت زوجة الخباز بين يديها سلّة خيزران مليئة بالطعام والخبز الدافئ، ورائحته تفوح من ذكريات جميلة. بينما الخباز أكرم يحمل صندوقاً كبيراً.

- عمتي... هذا... هذا كثير جداً.

تحتضنها زوجة الخباز قبل أن تكمل، دموعها تسقط على كتفي الطفلة:

- بل هو قليل يا حبيبتي. قليل جداً.

دخل الخباز وزوجته البيت، فاستقبلتهما بابتسامة عريضة، والفرحة ولدت من جديد على وجنتيها، فبدت محمرة ضاحكة.

- تفضل يا عم أكرم. أهلا بكما.

أما والد صفاء فقد بقي جالساً في زاوية الغرفة، عيناه لا تفارقان الخباز. ابتسامته خفيفة وموجودة، لكنها غير مكتملة. يشك في أن هذه اللحظة قد تذوب، لكنه رأى شيئاً جديداً في عيني صديقه القديم. خوفاً حقيقياً من أن يُرفَض.

الخباز يضع الصندوق أمام الأب، ويفتحه بيدين ترتجفان:

- هذه أدوات المخبز الخاصة بك يا حسن. احتفظت بها. كنت أقول لنفسي إنني أصلح لها، لكن الحقيقة أنني كنت أخاف أن تلمسها يدي فتُحرقني.

تتقدم زوجة الخباز بخطوة، وصوتها حازمٌ وحنون:

- لقد عاقب نفسه كل يوم يا أخ حسن. كان يصرخ في نومه: ‹اغفروا لي!› وأنا... -تتردد- أنا كنتُ شريكة في ذنبه حين سكتُّ.

يمرر الأب أصابعه على مقبض سكّين الخبز القديم في الصندوق، ثم يرفع عينيه نحو الخباز:

- لماذا الآن يا أكرم؟ بعد كل هذا العمر الضائع؟

ينزل الخباز على ركبتيه، جسده انكسر أخيراً:

- لأن هذه الطفلة -يشير إلى صفاء- جاءت إلى مخبزي، ونظرت إليّ وكنت في عيونها البريئة وحشاً، ثم سألتني: لماذا تبكي يا عم، وأنت تأكل خبزاً دافئاً؟ عرفت أن الله أرسلها لتكسر جدار قلبي.

تبسم الخباز ثم ضمّ صفاء إلى صدره. بينما قالت زوجته: كم تمنيت أن يكون لي طفلة أرعاها.

ضم الخباز زوجته إلى صدره، فشعرت بدموعه تسقط على شعرها. همست في أذنه بصوت يكاد يختنق:

- ربما كان حرماننا من الأطفال عقاباً على ما فعلناه. لكن اليوم، كأن الله منحنا فرصة ثانية.

أحكم الخباز حضنه حولها، ونظر إلى صفاء وهي تلعب بالأكياس الجديدة في السلة، تحاول معرفة محتوياتها. فشعر أن قلبه المليء بالندوب بدأ يلتئم أخيراً. ثم قال لها بحفاوة:

- انظري ماذا أحضرت لك.

وضع أمامها كومة من الأكياس، فبدأت تفتحها بفضول، وتثير ضجة من الضحك، وتتراقص حولها ممسكة بيد زوجته، فأحلامها بدأت تتحول إلى حقيقة. جلسا بجانبها، وبدآ يعدّدان ما أحضراه:

- هنا فستان أحمر مع قبعة صفراء، وتلك دمية صوفية، وهذا حذاء للبيت وآخر للمشي، وأشياء كثيرة.

ثم سأل الخباز: أين ذهب والدك؟

نظرت بدهشة نحو غرفته وهي تحمل الهدايا، فعاد الحزن إلى عيونها، وقالت بصوت مشفق:

- كما يفعل دائماً. يتجه إلى الكرسي الذي كانت تجلس عليه أمي ويبدأ بالبكاء.

نظرت إليها زوجته وقالت: لقد حضرنا لنكون معاً عائلة واحدة.

دخل الجميع غرفة والدها، وانشغلت زوجة الخباز بترتيب الغرفة. ثم خرجت مع صفاء، وبدأتا بإعداد طعام الغداء، بينما بقي الصديقان القديمان يتحدثان في شؤون العمل والحياة.

قال الخباز وهو يقبض راحتي يديه ثم يبسطهما، يحاول أن يمسك بشيء غير ملموس:

- أعلم يا صديقي أنني ظلمتك، وظلمت نفسي. وأرجو أن تسمح لي بالتكفير عن خطئي بحقكم جميعاً.

فأجاب والدها بهدوء: لا بأس، ولكن عليك أن تعلم أن صفاء هي كل حياتي.

والدها يعلم أن داخل الخباز روحاً مهووسة، تسكنه وتدفعه دائماً نحو التملك. لم يكن قادراً على التحكم فيها، ولا على شفائها. كل ما كان بوسعه هو الصمت والمراقبة، على أمل أن تتبدد شكوكه وتهدأ ظنونه.

وضع يده تحت يد الخباز، ليس لأنه وثق به تماماً، بل لأنه أراد أن يحميها من مخاطر بيع العلكة في الشوارع.

ذلك اليوم شكّل بداية جديدة لهما وللخباز الذي يبحث عن التوبة في عيون طفلة لم تكن تعرف إلا الصبر والأمل.

- سأعيدها إلى المدرسة، وسأتكفَّل بما تحتاجه. ولك العلاج والطعام والرعاية.

أمسك الأب لسانه عن الكلام بُرهة من الزَّمن، وأزاح يده من تحت يد الخبَّاز، وتأمل غرفته وتحسَّس جسده السَّاكن، وبكلمات بطيئة قال:

- يمكنني القبول بذلك، لنجرّب كيف سنكون معاً من جديد.

ويبادرها بالبشرى: ستذهبين إلى المدرسة، وستتوقفين عن بيع العلكة.

وقال الخبّاز: وأنت يا زوجتي عليك الاهتمام بها، والبيت سنحضر خادمة له في أقرب وقت.

والدها يأمل أن تتغيَّر حياتها، وأن تعيش مثل أي طفلة، فالمرض والعجز والأحزان سمحت للخبَّاز بالدُّخول من فوق عتبة اليأس في حياتنا.

يراقب أبوها كل ذلك بلا تأثُّر عاطفي، ويرقب تبدل الأيام، وقد كان بمقدوره الانتظار يوماً دون رؤيتها، وأصبحت أسبوعاً ثم صارت شهراً، والشَّوق يتمدَّد أكثر، وبدأت تتشكَّل في عقله أفكار ضخمة ومزعجة، وعزَّ في نفسه تبدل الحال، ويقول:

- من يدري، لعلَّها سعيدة جداً في حياتها، وما حاجتها لتضع طموحها بجانب همومي وضعفي.

في بيت الخباز وجدت الفتاة أكثر من سقف يحميها من الفقر؛ وجدت عائلة تفتح ذراعيها بقلوب دافئة. الخباز وزوجته التي عانت مرارة العقم، نظرا إليها هدية من السماء، فأغدقا عليها من الحنان ما جعل جراح طفولتها تلتئم شيئاً فشيئاً.

لم تكن رعايتهما مجرد إعالة. كانت احتضاناً لطموحها وطفولتها وشبابها؛ فساعداها في دراستها وشجعا مواهبها، وشاركاها لحظات انتصارها الصغيرة كأي أب وأم فخورين.

لم تكن صفاء لتترك كلّ شيء وراءها، فقد كان سعيها لتجاوز طفولتها يطغى على تفكيرها، وتهرب من شيء ظلَّ يلاحقها حتى بعد انتقالها المتقطع للعيش في بيت الخبَّاز، فقالت لأبيها:

- ليس الهرب من الفقر أسعد الحلول، وسأعود إليك أفضل حالاً مما كنت في طفولتي.

ظل أبوها يراقب من بعيد بقلب يمتزج فيه الشوق بالحيرة، فقد لاحظ كيف نضجت ابنته بين الحين والآخر في زياراتها الخاطفة. كان يراها تزهر، وترويها عاطفة زوجة الخباز التي عوضتها عن غياب الأم، ويحميها دفء الخباز الذي لم يبخل عليها بالنصح أو الدعم.

ومع كل نجاح تحققه صفاء من تفوقها المدرسي إلى مشاركتها في المسابقات الأدبية، والنشاطات المجتمعية، كان الأب يبتسم في صمت، ممتناً للقدر الذي منحها فرصة لم يستطع هو تقديمها، لكن غصة الغربة تعود إليه كلما رآها تندمج أكثر في حياتها الجديدة.

لكن صفاء على الرغم من كل ما أعطاها إياه بيت الخباز، لم تنسَ قط ذلك الوعد الذي قطعته على نفسها يوم تركت منزل أبيها. ظلت تحمل في قلبها جذوة تلك الطفلة التي تعهدت أن تعود إليه يوماً، لا باليد الفارغة، بل بقوة قادرة على تغيير مصيرهما معاً.

والآن وقد وقفت على أبواب الجامعة، تعلم أن الرحلة الطويلة التي بدأت بالهروب من الفقر ستصل إلى محطتها الأخيرة في العودة.

تضاعفت التَّجاعيد في وجه أبيها عاماً بعد عام، وفي صباح يوم صيفي لمحها من شباك الغرفة، فقد أصبحت شابَّـة يافعة، ترتدي زيَّ التَّخرج، وتجري نحوه مسرعة.

فقال لها: أنت تشبهين سيدة أعرفها من الماضي القريب، فخطواتك تدق أبواب سنوات مضت؛ لتوقظ فيّ ذكريات غطتها الأيام.

لقد كانت تشبه أمها، وهذا ما قرأته في عيونه الدّامعة شوقاً لها، أو فرحاً بها، وانكبت في حضنه باكية، ثمَّ تنفَّست بعمق قائلة:

- اليوم يا أبي، نعم، اليوم حفل تخرجي في الجامعة، وجئت لاصطحابك للحضور، ومعي عمي الخبّاز وزوجته، وسألقي كلمة الخريجين.

فاض الدَّمع في عيون الجميع، وانطلقا في السيارة، وقد دُفنت كل الحفر في الشَّارع، وجفَّ الطِّين على آثار خطوات طفلة مرَّت من هنا. تمسك بيد والدها وأصابعها تتقلَّص حول نفسها، فكوَّمـتها في قبضتها، وتستمد شجاعتها من عيون أبيها.

وقف الجميع عند باب القاعة، وأشعة الشمس تلمع على لوحة كتب عليها أصدقاؤها في الجامعة: "كل الحفر في طريقك كانت مجرد قالب لصب أساساتك"

مدت صفاء يدها لتمسك يد والدها المهتزة، لكنها هذه المرة لم تكن من الخوف. وقفت على المنصة وأخرجت من حقيبتها رغيف خبز يابساً ملفوفاً بمنديل قديم مطرز. رفعته عالياً بيد، وورقة التخرج باليد الأخرى، ثم بدأت كلمتها بصوت هادئ:

- هذا الرغيف كان أول شيء حاولت سرقته في حياتي. احتفظت به سنوات تذكاراً على جوعي، وها أنا اليوم أكشفه لكم شهادة على أن الجوع لا يقتل الأحلام. لقد علمتني أمي أن أجمل أنواع الخبز هو ذلك الذي نعجنه من ألمنا، ونخبزه بصبرنا، ونحفظه بالحب.

أبي. كنت الساق التي سندتني حين تعثرت، وعمي أكرم اليد التي مدت لي رغيف الخبز أولاً، ثم علمتني كيف أصنع رغيفي بكرامتي، وأمي الغائبة كانت الظل الذي دفعني لأبحث عن النور، واليوم أرى دموعكم تروي أرضاً جفت من سنوات، أذكركم بقول أبي لي: "الحياة مثل العجين يا صغيرتي. كلما عجناه بأيد متشققة، كان خبزنا أكثر دفئاً"

فشكراً لكل يد ساعدتني ولكل جرح علمني، فاليوم لم أنتصر على الفقر، بل انتزعت من جوعي قوة، ومن فقري إنسانية، ومن دموعي بذوراً لشجرة ظل سنزرعها لكل طفل جاع مثلي.

ثم أمسكت بمطرقة صغيرة وكسرت الرغيف اليابس فوق منصة التخرج، فتحول إلى فتات تهافت عليه حمام الجامعة الأبيض. قائلة بصوت صارخ:

- لن يكون في مدينتنا جوع بعد اليوم.

الزِّيارة

هكذا تهمس الجدران حين تمر بها، وتغمغم الأرض تحت أقدامنا كلما سار طفل حاملاً اسم أبيه إلى السجن. يقول: أنا لست راوية. أنا مجرد صمت رأت أكثر مما يحتمل، قد أكون النافذة التي شهدت دموع الأمهات تتساقط على عتبات البيوت، أو الصراخ الذي بقي وحيداً عند الباب حين اقتادوهم بعيداً، أو قد أكون الزمن نفسه الذي يتوقف كل ليلة عند نفس اللحظة، حين يُطرق الباب بذلك الأسلوب العنيف الذي لا يخطئه قلب فلسطيني.

بل ربما أكون الضوء في زنزانة أبي الذي يحاول أن يقرأ رسوماتي بقبضته المكبلة، أو الظلَّ الذي تركه الجدار. واحتضنت جدتي الهواء مكانه. لكنني في النهاية مجرد طفلة تنتظر من يسمعها.

في هذه البلاد لا أحتاج إلى من يكتب قصتي، فكل حصاة داسها الجنود تحمل ألف قصة، وكل طفل منا يعرف أن الحروف تولد في سجون الاحتلال قبل أن تولد في الكتب. أنظروا إلي وأنا أمشي أحمل العالم على ظهري وأسأل:

- لماذا أبي ليس بين ذراعي؟

والسؤال نفسه يولد من رحم الجدار العازل ومن خلف الزنازين، ومن تحت أنقاض البيوت. وفي المنفى وفي مخيمات اللجوء.

الليل هنا ليس ليلاً عادياً. كائن أسود يخرج من جيوب الجنود، يزحف على بطنه ويدخل بيوتنا من ثقوب الخوف.

لكن أكثر قسوة عشتها أن بعض الظلال التي تتناوب معهم نعرفها جيداً، نراها جميعاً تلبس وجوهاً بشرية في النهار، ثم تخلعها عند منتصف الليل لتصبح أسناناً في فكِّ الوحش.

في فلسطين حتى الحروف تسجن، والكلمات تُقيَّد بالأغلال. ولدت وفي عيني ألف سؤال عن أبي خلف القضبان، وعن وطن محاصر بالأسلاك والأسوار والبوابات. فلسطينية تحمل في صدرها قصص اعتقال والدها، كل عائلة لها شهيد أو أسير أو منزل مهدم. وأنا ما زلت أتوه في تساؤلاتي. اعتقلوا ذكرياتي قبل أبي، وحاكموا أحلامي قبل صاحبتها، ولدت وفي قلبي السؤال الأقوى:

- لماذا تسبق القيود إلى يدي قبل أحضان أبي؟

أسير بهذا السؤال في شوارع الوطن الملغمة بالخوف، أمرُّ على جدران المدرسة التي تحمل أسماء الشهداء، وأنظر بقلبي إلى سجن بعيد حيث يمسك أبي يديه خلف ظهره، ويحلم بلحظة واحدة يمسك فيها بي.

هذه مجرد زيارة، وهي واقع يعيشه آلاف الأطفال الذين يزورون آباءهم خلف القضبان، يحملون لهم حناناً لا يسجن، وذكريات لا تقبل التقييد. فتلك الزيارة قد تكون آخر حرية باقية لنا، كما لو أنها صرخة في وجه عالم صمت عن الظلم. لأنه في فلسطين حتى الدموع ممنوعة من السقوط بحرية. فكيف بالضحكة؟

أتى الجنود في جوف الليل يطرقون الباب بأحذيتهم الثقيلة، ويطرقون أبواباً ستفتح على الجحيم نفسه.

الكل يصرخ، والأم تحاول أن تغطي أعيننا عن الخوف. لكن من يغطي عيون التاريخ؟ من يمحو ذاكرة الجدران التي رأت كل شيء؟

بدأ الجنود بتكسير الأثاث، وقبلهم الشركاء الخفيون كسروا القلوب، وكلاهما يسرق شيئاً. أحدهم يسرق الأجساد، والآخر يسرق الأمل.

وفي الصباح حين أشرقت الشمس، عاد الجميع إلى أمكنتهم: الجنود إلى ثكناتهم، والشركاء إلى وجوههم الأخرى. أما بيتنا فبقي مهشم، ونحن نيام على وسادات مبللة بالدموع، ونحلم بكوابيس لا تعرف سوى لوناً واحداً، لون الدم.

ركبن الحافلة والشمس ما زالت نائمة تحت أغطية الليل، ولا يقطع هدوءه سوى صوت الكلاب الضالة في الشارع، ودوريات للاحتلال ترابط أمام منزل في زقاق بعيد على الجانب الآخر تراقبه ببرود. الكلاب تنبح والدوريات تراقب شركاءها في اللعبة اليومية، في استغلال الليل لبث الخوف، ومن هم أسياد شارع الزيارة عند البلدية.

حلا، ذلك الاسم الذي تحمله هدية من والدها، نغمة علقت في الهواء منذ ولادتها، فظل يتردّد في كل زاوية من زوايا البيت.

طفلة في التاسعة تحمل بين جفنيها بُحيرتين من دموع لم تجف. مُنتفختان حمراوان بعد عاصفة البكاء. تتدلى ضفائرها على كتفيها، كل جديلة تحكي قصة لم تكتب بعد، وكل خصلة مقطوعة تسرد رحلة شوق طويلة إلى أب غاب، تاركاً وراءه اسماً وذكرى، وطفلة تبحث عن أبويّته بين طيّات الفراغ.

وحدها حلا تعرف كم مرّة همست باسمه في الظلام، وأصابعها الصغيرة تتبع ملامح وجهه في صورته على الجدار، وتطلب منه العودة ليمسح دموعها التي لم يعد أحد غيره يجيد مسحها.

تسري ليلاً تـزاحم الغيوم وزخات المطر، تطير بجناحي الحب شوقاً لرؤيته، وتختبئ من البرد في حضن والدتها، لتعود إلى البيت ليلاً كما حدثتها.

جلست الجدة فخرية ترتب حقيبة الزيارة على كرسيها، بين يديها حقيبة ليست عادية، تفتحها بعناية لأنها ثمينة تحمل أماني العائلة كلها إلى السجن. أصابعها المتشققة نسجت تاريخاً من الصبر، فقد حملت حقائب شبيه منذ النكبة والنكسة وكل الانتفاضات، تتحسس المحتويات واحدة بعد الأخرى، فكل غرض له حكاية، لتتأكد من وجوده، ثم تقول بصوتها المليء بالحكمة والتجربة:

- لم نترك شيئاً طلبه والله أعلم. هنا الشبشب، -تطوي البيجاما بكل حنان- وهذه الملابس الداخلية، وتلك زجاجة الزيت، -تتوقف عند كيس الزعتر وتهز رأسها- لم ننسَ شيئاً. لكننا ننسى دائماً كيف نعيش من دونكم.

ثم التفتت إلى زوجة ابنها بجانبها، تحمل جرحين ثقيلين في عينيها. غياب زوجها، وجرح نازف من أمومة أصبحت فيها وحيدة، قالت الزوجة بصوت متقطع، والكلمات تتساقط من فمها مع كل نفس ثقيل:

- إن شاء الله يسمحون لنا بالزيارة هذه المرة. كل زيارة تنغصها قوانينهم، وتصير جلسة تحقيق. يفتشون حتى أنفاسنا. ويصادرون حتى أحلامنا البسيطة. هذا ممنوع وذاك مسموح، يلعبون بأعصابنا. ولا ندري حتى إذا ‹الكنتينة› وصلت أم لا؟

أطبقت الحجة فخرية على يد كنتها بحزم يخفي وراءه ألماً عميقاً:

- لا تهتمي يا بنتي، نحن لسنا ضيوفاً على أبواب سجنهم، ولن نكون الأخيرين. نحن أهل هذه الأرض حتى وهي مسجونة، يظنون أنهم يملكون مفاتيح الأبواب لقهرنا، لكنهم لا يعلمون أن صبرنا أقوى من كل الأقفال ومن قضبان سجونهم. سندخل، نعم سندخل وسنخرج منه بكرامتنا، حتى لو اضطررنا لترك أنفاسنا هناك.

فقالت كنتها: أخاف عليك وعلى صغيرتي. عظامك لم تعد تحتمل الانتظار في الطوابير. وصغيرتي قد تنسى كيف تُنطق كلمة بابا قبل أن تراه.

فردت فخرية بابتسامة هادئة بعد أن انحنت نحو حفيدتها الجالسة، تسند تاريخاً كاملاً على كتفيها الصغيرتين. ابتسمت تلك الابتسامة التي تختزن حكايات خمسين عاماً من المقاومة:

- يا بُنيتي، الخوف ظلٌّ لا ينمو إلا تحت أقدام الواقفين. نحن لسنا ممن يقف. -وضعت يدها على صدرها حيث القلب الذي شهد كل شيء- انظري ما زال ينبض. وما زلنا نذهب ونعود. قد يسرقون الأيام من أعمارنا، لكنّهم لن يسرقوا لحظة الوقوف أمامهم ونحن رؤوسنا مرفوعة كشجرة الزيتون العتيقة في ساحات الأقصى -ثم أشارت إلى الحقيبة- في هذه الأكياس الملابس والطعام، وقلوبنا تحمل ما لا يرونه

بذور الغد التي ستنبت حرية حتى لو تحت أنقاض السجون. فالحياة لا تعاش بالخوف، بل بالإصرار. وحلا تغوص في صمتها الخاص، وضعت العالم خلف جدار زجاجي سميك. لا تسمع إلا دقات قلبها التي تتسارع كلما اقتربت الحافلة من السجن. في رأسها الصغير، تدور الأسئلة مثل فراشات حبيسة:

- أيّ الكلمات ستكون جديرة بأن تكون أول ما أهديه لأبي؟

هل أروي له كيف تعلمت أخيراً حل مسائل القسمة المستعصية؟

أم أخبره أن شجرة اللوز في الحديقة أثمرت هذا العام رغم كسرها من الجنود؟

ماذا ستقول له وكيف ستختار الكلمات الأولى؟ هل تبدأ بحكايات المدرسة، أم بما حدث في البيت؟ أم ستخبره عن مشاجراتها الصغيرة مع أخيها عمر؟

أصابعها تلعب بهدية صنعتها له من عيدان البوظة الفارغة - سرير صغير كي ينام مرتاحاً في زنزانته- كما قالت لأمها. لكن ما لا تستطيع قوله هو كيف تحولت لياليها إلى ساعات انتظار طويلة، وكيف صار "بابا" مجرد صورة على الجدار، واسم أصبح تعويذتها تهمس به قبل النوم ضد الخوف.

حتى المصروف الذي تقلّص بعد سجنه لم يعد يكفي لشراء حلوى المدرسة، ويبدو تافهاً مقارنة بالسؤال الذي يطحن قلبها: كيف تشرح لرجل محبوس في زنزانة مظلمة أن العالم كله أصبح سجناً منذ غيابه؟

يقطع صمت أفكارها صوت محرك الحافلة الذي يملأ الأجواء. آيات من سورة يوسف تتردد في الخلفية، لتمسح على قلوب الزائرين ببشريات الفرج والأمل. هذه الرحلة هي الأولى لها لرؤية أبيها بعد ستة أشهر كاملة من الغياب. لقد علمت من حديث جدتها وأمها أن أبيها كان في التحقيق، وأن تنقلاته بين السجون جعلت زيارته أمراً صعباً. لكنها اليوم تحمل في قلبها الصغير كل الأشواق والهموم، وتنتظر اللحظة التي ستلتقي فيها بمن كان دائماً مصدر أمانها وفرحها. ولكن الآن:

- صدر تصريح الزّيارة...

لا تعرف ما هو التّصريح، ولكنّها تعرف أنّها ستراه، وستخبره بمدى اشتياقها، وستبثُّ له همومها، فكرت في كلّ شيء ورتبته في عقلها، ثمّ كتبته في ورقة انتزعتها من دفترها ليلاً، كانت مجعّدة وبهتت بعض حروفها، فدموعها تركت بصمتها عليها.

سارت الحافلة من حاجز لآخر، وعيونها تراقب الشارع مصارعة النُّعاس الذي نزل ثقيلاً على جفنيها، ورأسها يتمايل مع حركة الحافلة. واختفت عيونها البُنيّة في بطء شديد. ليستقر في حضن جدّتها.

بخطوات صغيرة مترددة دخلت ساحة السّجن، حيث البرد يتلاشى تحت إشراقة الشمس، وحرارة اللقاء تُشعِلُ في الجسد أشواقاً لا تنطفئ. ما تراه من بعيد أثار دهشتها؛ المعتقلون يجلسون في حديقة واسعة، فيها زهور وحوض نعناع ولم تشاهد الخيام، هناك أشجار عالية حولهم تشبه حديقة جيرانهم، ولا توجد أسلاك شائكة ولا قضبان، بعضهم يضحك أمام التّلفاز، ويلبسون ملابس جميلة، وتسأل نفسها:

- اليوم عيد عندهم؟!

وأمامهم طعام ولحم وعصائر وحتى كولا، وآخرون يأكلون الحلويات واللّحوم المحمّرة مثل التي في المطعم الذي رأته في التلفاز، وآخرون من بعيد يلعبون الكرة الطائرة في ملعب يشبه ملعب مدرستها، وفي طرف السّاحة مسبح واسع كالذي زارته مع والدها في آخر صيف. قالت في نفسها:

- هل جدّتي وأمي تكذبان، السّجناء سعداء، هذا ليس سجناً بل متنزّهاً، لا يوجد جنود ولا يعذبهم أحد، ويأكلون طعاماً أفضل من طعامنا.

أطلَّ والدها من بين الجموع، نعم إنه يظهر كما في الصورة المعلّقة على جدار غرفة المعيشة، يلبس البزّة التي ما زالت عالقة في ذاكرتها. أسرعت إلى احتضانه وهي تصرخ فاتحة ذراعيها:

- "بابا.. بابا"

يلتفت إليها، ويجري نحوها مسرعاً، ويمسكها من تحت ذراعيها محتضناً جسدها الصغير، كما كان يفعل عند عودتها من المدرسة، لينهال عليها بقبلاته وكلماته الجميلة، التي ما زالت في ذاكرتها، فهي الجميلة الرّقيقة، ابنته البكر، النّشيطة الذّكية والمتفوقة في مدرستها دائماً.

أحاطت به بشدّة متعلّقة بكتفيه، فرائحة عطره كما كانت تشمُّها في غرفة نومه تملأ المكان، جلسوا على طاولة خشبية تظلّلها شجرة صفصاف ضخمة، كالّتي جلسوا تحتها عندما أخذهم في رحلة العام الماضي، وفي الجهة الأخرى جلست أمها وجدّتها، والجميع يتبادلون أطراف الحديث والحكايات، يأكلون الحلويات كالتي صنعتها أمها يوم عيد مولدها، ويشربون القهوة، وهي تستمع بسعادة إلى ضحك الجميع، فقد اجتمعت العائلة كما كانت كل ليلة.

- والآن جاء دورك يا حلا -قال أبوها- أخبريني عن المدرسة، وما ترتيبك في الصف. أخبريني كل شيء.

لقد جاءت مستعدة، وأعدَّت قائمة كتبتها بعبارات صغيرة كي لا تنسى شيئاً من عالمها الصغير، وستخبر والدها بكل شيء، فهنالك الكثير من الأخبار، فهي الأولى في صفها، ولها صديقات كثر، ومعلماتها يحببنها جداً، وتشارك في الإذاعة المدرسية، وتم اختيارها لفرقة الكشافة، ودفاترها مليئة بعبارات التشجيع، وملصقات النجوم لتفوقها، فهي تحب الرّياضيات والأرقام.

ولكنّها ملّت سندويشات الزّعتر واللّبنة، وحقيبتها فيها ثلاثة ثقوب، وزيُّ المدرسة باهت اللون، وقد تآكل مقدّم حذائها، فصار الماء يتسرب إليه أحياناً فيبلل قدميها. لكنها لا تكترث، فقد اقترب العيد وستشتري بدلاً منه. ولن تشترك في الكشّافة لأنَّ مهلة التّسجيل قد انتهت قبل أن تدفع أمها ثمن الزّي.

أخوها عمر يأخذ بعض أغراضها المدرسيّة، وتسامحه لأنه صغير، وتساعد أمها في مسح الغبار، وأحياناً تقوم بترتيب الصّحون وتحضير الطعام، وتحب الذهاب إلى السّوق لشراء بعض الأغراض.

كان عندها عصفور صغير، لونه أخضر موشَّح بالبياض، طار أمس من القفص، فعندما سمعت عن الزّيارة وعن السجن تركت له الباب مفتوحاً، لأنها تذكّرت والدها فأشفقت عليه، وهي نادمة الآن فوالدها لا يعيش بين القضبان.

هزت أمها كتفها برفق، لكن الحركة كانت صاعقة على جسدها:

- أفيقي يا حلا، أفيقي صغيرتي. سنعود إلى البيت. الزيارة ممنوعة اليوم.

كلمات الأم سقطت على قلب الطفلة كالصخرة، فقد كانت تحلم بلحظة ترى فيها أبيها. نظرت حلا حولها بعيون غائمة تبحث عن شيء ما في الفراغ، عن تفسير لهذا الحلم الذي تبدد وهمست بصوت خافت تخشى أن تسمع الإجابة:

- لكن... لماذا؟

- الأسرى مضربون عن الطعام، ولا يسمح لنا برؤيتهم يا حلا.

في طريق العودة أطبقت حلا على يد جدتها، تمسك بآخر فرع زيتون قبل السقوط. نظرت إلى السجن من بعيد، ذلك الوحش الخرساني الذي يبتلع الأحلام. في عينيها لم يعد هناك دموع. فقط شظايا من براءة مكسورة. ضمّت ورقة صغيرة كتب عليها: "سأعود" إلى صدرها، وألقتها نحو السجن علّها تحمل بذرة ستنبت ذات يوم، حتى لو تحت أنقاض السجن. لأنهم لا يعلمون أن الأحلام لا تسجن، إنها فقط تنتظر.

خمسُ درجـات وزقاق

في تلك الأيام الذهبية، قبل أن تُخطف فلسطين من بين أحضان أهلها، يافا تزخر بالحياة، عروس تتهادى على شاطئ البحر الأبيض، تتنفس عبق البرتقال، وتتمايل مع أنغام الموج. وفي زحمة تلك المدينة النابضة، إبراهيم الفتى النحيل ذو العينين الواسعتين، يركض بين الأزقة الضيقة، أخف من طائر حر يعرف كل حجر وزقاق.

في الصباح الباكر يهرع إلى ميناء يافا حيث السفن القادمة من بيروت والإسكندرية، يحمل حقائب المسافرين بيديه القويتين، وتختلط أنفاسه مع رائحة الملح واليود. وفي الظهيرة ينتقل إلى محطة القطار العثمانية القديمة، حيث يصيح:

- "تذاكر... تذاكر...

بصوته الشبابي النقي، بينما تدور عجلات القطارات حاملة التجار من حيفا إلى القدس، ومن نابلس إلى غزة،

وموهبته الحقيقية بين حقول البرتقال وبساتين الزيتون مختلفة، الفلاحون ينتظرونه يومياً، حكيم يحسب لهم مواسم القمح بسرعة البرق، ويوزع لهم أرباح الزيتون بحكمة شيوخ القرى، وتتدفق الأرقام لصناديق البرتقال على لسانه بيسر وسهولة. يداه تعرف وزن التربة قبل وزن العملة، وقلبه يعشق فلسطين قبل أن يعرف أن الحب له اسم.

وفي أحد تلك الأيام، بينما يحصي صفوف الأشجار في بساتين القرية، ويحمل دفتر حسابات ممزوجاً برائحة التراب، سمع صوت غصن ينكسر.

التفت فإذا بها واقفة تحت شجرة برتقال تمد يدها ببراءة لقطف ثمرة، لكن الغصن المرن قاومها. انحنت بجسدها فانسابت أشعة الشمس بين أوراق الشجر ورسمت على وجهها نقشاً من ذهب.

توقفت أنفاسه، فالزمان توقف معها. ترتدي ثوباً مطرزاً من أزهار الجليل، وتتحرك نسماتها قادمة من جبال الخليل. أدرك أن فلسطين أرضاً تحسب مواسمها، ومعها امرأة تقف تحت شجرة برتقال، تضحك مع الريح، وتغري الثمار أن تسقط في حضنها.

هي فلسطين التي تحمل في عينيها أسرار بحر يافا، وفي خطواتها رقص السهول والوديان. وهناك بين أصوات البلابل وعبق الحمضيات، بدأت قصة حب وُلِد من رحم الأرض، قبل أن تعرف الأرض جراح النكبة.

ظل يراقبها من بين الأشجار، ويقرأ أسطراً من قصيدة ولدتها أرض يافا. تتنقل بين الأشجار وتلامس الثمار بأصابعها، وتقلب صفحات الشمس – تلك التي لا تشبه إلا شمس فلسطين – وهي تنساب على وجهها بحنان الأم، فتُذيب حبات العرق على جبينها المشرق، وتحول خصلات شعرها الأسود إلى تيار من الحرير المنساب.

تتحرك بين أشجار البرتقال بخطوات رقيقة، فهي جزء من تلك الطبيعة الساحرة، ويزيدها البرتقال جمالاً وحمرة خجولة، خاصة حين حاولت قطف ثمرة عنيدة، فتورّد خدّها من الجهد، لكن عينيها ظلتا تلمعان بتحدٍّ طفولي

ويتساءل:

- هل صمود برتقال يافا على أغصانه، أقوى من صمودنا على هذه الأرض؟

أم أن جماله الحقيقي يكمن في طريقة قطافه برفق، كما تروي الجدات حكايات الوطن؟

بدأت رياح الخيانة تعصف بفلسطين منذ أن أدار الانتداب ظهره، فتحوّل من حام -كما يدعي- إلى شريك في الجريمة. في شوارع يافا التي تعج بأصوات الباعة وضحكات الأطفال، صارت تسمع الآن وقع أحذية الجنود الغزاة، وخطوات المهاجرين الجدد الذين جاءوا يحملون أوهام "وطن بلا شعب"

إبراهيم الذي يحصّن أحلامه بين دفتر الحسابات وورق البرتقال، وجد نفسه أمام معادلة لا تحتمل الأرقام:

- كيف يحسب دماء الجيران؟

كيف يوزّع الحصص على العائلات التي طُردت من بيوتها؟

في القرية صارت النوافذ تغلق باكراً، وصارت القبلات تختتم بالدموع قبل المغرب. حتى بستانها لم يعد كما كان. الأشجار التي تنجب الذهب البرتقالي صارت تطرح الرصاص.

وفي ليلة ما سُمع دويّ الانفجارات يأتي من جهة البحر، فعرف أن يافا تذبح، فتح نافذة الغرفة العليا، وشاهد أعمدة الدخان تُلوّح في الظلام أطول من أيادي وداع سكانها. وغبار الهجرة يهبط في كل مكان، وصراخ المحتلين يحيط بالقرية، وأصابعه تمرّ على قشرة برتقال يابسة، تلمس جلد الزمن نفسه:

- هل تشبه قوة برتقال يافا صمودنا؟

تلك الثمار التي تعلّقت بالأغصان، ولبُّها معلّق بالوطن، ترفض السقوط. ولكنها الآن تنفصل عن الفرع بسهولة وتشكل قبلة وداع، حاملة في عصارتها حكايات الأرض، ودموع الأمهات وعرق الآباء.

وقف أمام الشجرة في بستانهم الذي صار أشبه بخرابة. أغصانها ما تزال تحمل بعض الثمار، صامدة مثل أجداده الأوائل الذين رحلوا ولم يرحلوا. مدّ يده إلى واحدة أخرى فوجدها باردة تحت الشمس، ضغط عليها فانفجرت رائحتها عابقة بأشياء لم يعد لها أسماء، رائحة البحر الذي صار بعيداً، ورائحة الميناء الذي لم يعد لهم، ورائحة والده وهو يرقع له حقيبة المدرسة في ليالي الخوف.

يقشر البرتقالة. شعر بنفسه يقشر طبقات من الذاكرة. وقطرات العصير التي تسيل على يديه تحمل طعماً مختلفاً فقال:

- مرارة الهزيمة، وحلاوة الانتظار، وحموضة الغربة. وعيون الحبيبة.

سمع صوت أمه من بعيد تناديه: البرتقال ليس للأكل فقط، إنه للذكرى.

يعرف أن بعض الذكريات أشبه ببرتقال يافا.. كلما ضغطت عليها أكثر، كلما سالت بذكرى جديدة مختلفة.

قريتنا الصغيرة لوحة حية ترسمها الطبيعة، ثلاث تلال أحضانها دافئة. تحيط بسهل أخضر يتمايل مع القمح تحت نسمات الربيع. في قلب هذا الجمال عين الماء الصافية تتدفق طوال العام، تروي ظمأ الزيتون والتين، وتغسل وجوه الأطفال الذين يلهون على ضفافها. الحياة هنا تسير بنسق الحكايات القديمة، يبدأ النهار بصراخ الديكة، وينتهي بجلجلة مواعين العشاء تتصاعد من البيوت الطينية.

في هذا المشهد الهادئ، هي الشعلة التي تضيء أيامه. يأتي المساء فيجدها جاثية عند العين، تملأ جرتها الخزفية بالماء العذب. يراقبها من بعيد مفتوناً بالطريقة التي تبلل بها خصلة شعرها الهاربة، وكيف يتحول شالها الأبيض إلى لوحة زهرية تحت انعكاس الغروب. وهي تنظر إلى انعكاس وجهها في الماء، فيختلط جمالها بجمال الطبيعة، حتى لم يعد يعرف أيهما خُلق من الآخر.

الصورة الهادئة بدأت تتصدع مع كل بزوغ فجر جديد، فأنباء شريرة من الاحتلال تصل إلى القرية. أصبح الناس يجتمعون في الساحة، ويهمسون عن بيوت مهجورة في القرى المجاورة، وعن عائلات طردت تحت تهديد السلاح.

يلاحظ ابتسامتها أقل اتساعاً، وصار ظلها أطول على طريق العودة من العين. في الليل وهو يسير بها بين الحقول، يحس بيدها ترتعش في يده عندما تسمع صوتاً غريباً، وكل ورقة تسقط من شجرة أصبحت تُذكّرها بزوال عالمها الجميل. في تلك الأيام صار يرى في عينيها سؤالاً لم تطرحه:

- هل سيظل بوسعهما حماية هذه القرية الصغيرة من العالم الذي ينهار حولهما؟

يعرف أن جدران القرية الطينية لن تصمد أمام المدافع، وأن عين الماء الصافية قد تتحول يوماً إلى بركة من الدماء. لكنه يعاهد نفسه:

- إذا كانت الأرض تستحق القتال من أجلها، فهي أيضاً تستحق أن يُقاتل من أجلها.

يتبعها بخطى ليسرق معها اللحظات في زمن لا يرحم. قلبه يخفق بين الخوف من أن يكتشف، والأمل الذي يرتعش في صدره. وجهه يضيء كلما ارتدى طربوشه الأحمر - الطربوش الذي اشتراه بماله الأول حين صار معلماً- شاهداً على كفاحه وكبريائه.

في يافا بين زحام "حي المنشية" وعطر البهارات يبحث لها عن ألذ حبات الحلقوم المعطرة بماء الورد، يضعها على حافة العين قبل أن تصل الشمس إليها، يقدّم لها قطعة من الليل قبل أن يبدأ النهار. ينتظرها هناك تحت شجرة التين، وقلبه يُقلّبه الشوق والخوف.

أمه، الحاجة لطيفة تعرف ما يدور في نفسه. تتلكأ في خطبتها متعمّدة، تمنحه الوقت ليثبت لها وليثبت لنفسه أنه يستحق تلك الجوهرة. وكلماتها تُذكّره بالحقيقة المُرّة كلما همّ بالحديث:

- يا بني. أبوها مختار القرية، وله أرض تمتد حد البحر، وماشية تغطيها، ومعصرة زيتون تتفجر بالخير. وماذا نملك نحن سوى طربوشك الأحمر؟

يعرف أن الاحتلال يتوسّع، وأن الأرض تسرق، لكنه يمسك بقبّعته كما يتمسك بوطنه. وفي عينيه إصرار يقول:

- سأثبت أن الحبّ أقوى من كلّ شيء حتى من الاحتلال.

ورث إبراهيم عن أبيه الشهيد مصطفى فقر الجيب، ولم يرث فقر الروح، ويحمل في صدره قلباً يخفق بحب الوطن، وذاكرة تحفظ صورة والده الأخيرة وهو يرفع علم فلسطين على أطراف يافا قبل أن يسقط برصاص الإنجليز. لم يترك له أرضاً ولا مالاً، لكنه ورث منه إرثاً أثمن، كبرياء المقاوم وشرف الدفاع عن التراب الطاهر.

أصبح معلماً لأن التعليم مهنة ورسالة. كل كلمة يكتبها على السبورة أشبه برصاصة في معركة البقاء، كل درس يلقّنه لتلاميذه بمثابة بذرة يقاوم بها محاولات طمس الهُوية.

وفي الصف بين مقاعد الطلاب الجائعين للعلم، يجد نفسه أكثر شجاعة وجرأة، حتى أنه لم يعد يخفي حبه، وصار يردده في أشعاره ليعربها الطلاب شطراً شطراً.

عين الماء في القرية تنعش روحه بالعزيمة. يرى في تدفقها المستمر رمزاً لصمود شعبه، وفي صفائها مثالاً لنقاء القضية. حتى أن الجميع في القرية ينحني له احتراماً لذكرى أبيه، وإعجاباً بإصرار الابن الذي اختار أن يبني ما لم يستطع الأب إكماله.

الأشجار على دربه تهمس بأسماء الشهداء عندما يمر، والأحجار تحت قدميه تحفظ أنفاسه كما حفظت يوميات المقاومين. الفقر يلاحقه في بيته المتواضع، لكنه في الحقيقة الأغنى بين أقرانه، غناه كان في كرامة لا تقدر بثمن، وفي حب جماهير القرية الذين رأوا في الأبن استمراراً لسيرة الأب.

حتى طربوشه الذي اشتراه بأول راتب له كان تاجاً معنوياً توج به ذكرى والده، وإعلاناً صامتاً أن الفقر لا يهزم الكبرياء، وأن الشهادة ليست نهاية المطاف، وهي بداية طريق آخر من النضال.

إبراهيم يفضل النوم على السطح، حيث يجد نفسه أقرب إلى السماء، وهناك بين ظلام السحر يبحث عنها في النجوم، فعيناها تلمعان في أعماق الكون. يتأملها بلهفة منتظراً لحظة ينبعث فيها شهاب بإشارة إلى أن الأمل لا يموت. لكن هدوء الليل لم يكن يسلم دائماً من الضجيج؛ فطلقات الرصاص والتفجيرات الصاخبة تقطع تأمله، لتذكره بأن المعركة لم تنته بعد.

العصابات الصهيونية تمدد ظلالها الشريرة على أطراف القرية، مرض خبيث يزحف نحو القلب. وإبراهيم يعلم أن النصر يحتاج إلى صبر، وأن الشموع تضيء أكثر في الظلام.

بزغت شمس يوم الخميس محمرَّة على غير عادتها من بين التلال، وتتناوب المرور من أمامها بعض السُّحب السوداء، وما زال مستلقياً على فرشته القطنيّة، يحاول أن يلملم ما تفكَّك من شعوره بالانتظار، ويقرأ آثار الليل على ملامح وجهه المنعكس على إبريق الشَّاي بجانبه، ويتابع صوت الإذاعة المتقطّع:

- "لقد احتلت جميع يافا. والعصابات الصهيونية تتجه نحو قرية..."

شعر بانقباض في قلبه ونزل مسرعاً باتجاه مضافة المختار ليستعلم عن الخبر، ويسأله:

- ما العمل؟

فرآها باكية تقف بجانبه، والخوف أذبل بتلات وجهها، حاول أن يبتسم ولكنَّ وجهه تصلَّب، ومحاولته للحديث معها فشلت، فهناك الكثير من الحروف القديمة المتجمِّعة في صدره. يحاول إقناعها بالاقتراب من بعضها لتتحول إلى كلمات ليتمكَّن من إخراجها، ولكن بلا فائدة، فهي تركض وتتنافر هنا وهناك. وبقي وجهه مشدوهاً وهو يراقبها ويتنهّد.

اجتاحت القرية زوبعة من الفوضى، نُفِخَ في رماد يختبئ تحت ترابها منذ عقود. تدفق الناس سيلاً من الظلال البائسة، يملؤون المضافة حتى اختنقت جدرانها بأنفاسهم المرتعشة. اختلطت الأصوات، فصار همس الصلاة يذوب في صراخ النساء، وانتحاب الأطفال يتداخل مع دويّ الطلقات التي تقترب بزحف غاشم جائع.

في زاوية احتشد رجال معدودون ببنادقهم الصدئة، يحملون أغصان شجرة يابسة أمام إعصار. وفي الزاوية الأخرى انحنى آخرون على أطفالهم، يحزمون الخوف والخبز في عُجلَة، والرحيل المؤقت قد يحفظ ما لم يعد له وجود.

وفوق العتبة الأخيرة لبيته وقف المختار، أصبح رمزاً من الماضي، وصوته يهتز في مهب الريح. خطب فيهم عن الصمود، لكن الكلمات تسقط من شفتيه مع حبات البرتقال النازفة من الأشجار أمامه، كل واحدة منها تشق الهواء قبل أن تتحطم على الأرض. العصافير فرّت بالفعل وتبعها الحمام، أدركت قبل الجميع أن لا مكان للجناحين هنا.

وإبراهيم واقف بين كل هذا الجنون، فراشة محنطة علقت في شبكة عنكبوت. راحت نفسه تحاوره بلهفة المذعور:

- أتركض نحو أمك التي قد تكون جثّة عند الفجر؟

أم تتبع قلبك الذي يخفق باتجاه بيت المختار؟

أم تبقى كالغراب الأبكم ينظر إلى وطن يدفن حيّاً فوق العتبة الأخيرة؟

وفي اللحظة التي قرر فيها أن يتحرك، سمع صوت زجاج يتحطم في بيت قريب، ثم صرخة مكتومة اختنقت، وعلم أن السؤال لم يعد له معنى. فالرصاص الآن يكتبُ سِفر القرية، والعتبة الأخيرة صارت أوّل درجة إلى الهجرة.

غربت شمس يوم الخميس، وأخذت معها كل دفء الحياة. وغابت زهور التي تملأ عالمه نوراً وعبقاً، تاركة وراءها فراغاً لا يُملأ. وتشتت الناس بين التلال يبحثون عن ملاذ آمن، أو حتى لحظة هدوء تسمح لهم بالتفكير، لكن ما حدث كان أكبر من أن يستوعبه عقل أو يتحمله قلب.

الأيام مرت ثقيلة، تحمل على كاهلها أحلاماً محطمة وأجساداً منهكة، وصارت كل خطوة نحو الاستقرار معركة جديدة. الوطن ينزف من كل جانب والجراح تتفاقم، ولا أيدي قادرة على تضميدها، محاصرة بهول الأحداث، وأكاذيب المذياع التي تزيد الطين بلة. فالهزيمة ثقيلة على الصدور، ليس لأن اليهود انتصروا، بل لأن الجيوش العربية تآمرت بخذلانها. جيوش جاءت باسم النصرة، فكانت أداة للتقسيم، وتخلّت عن القضية قبل أن تبدأ المعركة، وتركت الفلسطينيين يواجهون مصيرهم وحدهم، وجثثهم تتدحرج على حدود التاريخ، وقلوبهم تنزف على أعتاب المنافي والمخيمات.

في البداية قبلوا بالخيمة البيضاء حلّاً مؤقتاً، وهم يرددون:

- "عائدون".

"الشادر" الأبيض يخدعهم أحياناً، حين تهبّ الريح فتحرك أطنابه، فيغمضون أعينهم متوهمين أنها نسمات يافا تلك التي تعبث بشعرهم، وهم يجنون البرتقال من بساتينهم. لكن سرعان ما انكسر الوهم.

الأيام لم تكن رحيمةً؛ مرغتهم بالتراب والوحل والمرض، حتى صاروا جزءاً من تراب الغربة نفسه.

تحوّلت الخيمة إلى غرفة من الطوب الأسود، بناها اللاجئون بأيد منهكة، كلّ لبنة فيها تشي بموت جديد، موت الكرامة وموت اليقين، وموت فكرة العودة السريعة.

صار المخيم مدينة أشبه بمقبرة جماعية، تنمو كل يوم وتضمّ وجوهاً غريبة، لاجئين جدداً يتكلّمون بألسنة مختلفة، لكنهم يحملون نفس الأسئلة:

- لماذا نحن هنا؟ وأين سنذهب غداً؟

أسئلة تتدلى من أعمدة الخيام ولا تجد إجابة إلا صرخات الأطفال الجائعة، وهم يلهون بين أكوام القمامة، ويتعلّمون أبجدية التشرد قبل تعلّم الحروف.

انطفأت زهور من دروبه كما ينطفئ المصباح حين ينزع سلكه من الكهرباء بعنف. غابت عن أزقة المخيم، وظلها الذي اعتاد أن يسبقها عند المنعطفات صار شبحاً يطارده. حتى حنفية ماء الوكالة التي تنتظرها كل صباح بلهفة العشاق، صارت تبكي ماء مراً على حافة بئر القرية، بعد أن فقدت صوت ضحكتها التي تنساب مع خرير الماء. وفي طوابير الخبز الطويلة كانت تقف بين النساء وسط حقل شائك، لم يعد يجد سوى عيون نساء غائرة تبحث عن فتات. والعيادة التي تعالج صداع الأطفال وآلام العجائز تفتقدها؛ فكيف تداوي جرحاً صغيراً والوطن ينزف من خاصرتهما معاً؟

ظلّت صورتها في رأسه دوياً لا يهدأ. هناك عند عتبة الدار الأخيرة في يافا، بينما كان الدخان الأسود يلفّ المدينة تبادلا نظرة أقوى من كلمات الوداع. كان بإمكانه أن يصرخ وقتها، وأن يجرّها إلى صدره. أن يعدها باللقاء، لكنه لم يفعل سوى أن التقط برتقالة سقطت من بين يديها، التقطها كما يلتقط قلبها المكسور من الأرض.

الآن في زاوية خيمته الباردة يدحرج تلك البرتقالة بين أصابعه، ويتساءل:

- هل حبهما مجرد رقم في سجل اللاجئين مع كرت الوكالة؟

هل صارت زهور مجرد اسم يهمس في الظلام، وحلم سرقه الاحتلال من فميهما قبل أن يكتمل.

أم أنه ظل حياً عالقاً بين أشجار البرتقال التي تشهد على لقاءاتهما الخاطفة، حيث الظل يخبئهم بالحب المسروق؟

هل أخطأ حين أحبها ببطء اللاجئين في عودتهم، وبتردد المنفيين عن كسر الحدود، حتى ملّت انتظار غيمة لا تمطر، فقررت الرحيل مع آخر قافلة يائسة؟

الأسئلة تدور في رأسه مع عاصفة من شظايا المخيم، لكنها لا تجد سوى صمته الطويل. حتى ظله صار ينظر إليه بشفقة، وهو يحاول عبثاً أن يمسك بذكريات تذروها الرياح مثل أوراق هويته الممزقة.

في الليل حين ينام الجياع على أصوات البكاء، يرى في أحلامه العتبة الأخيرة. يراها وهي تتحول إلى حافة جسر، وزهور تقف على الطرف الآخر، وتلوح له بيدها ثم تختفي، تاركة إياه وحيداً عند حافة اللامكان.

ظل يبحث عنها في كل مخيم وفي كل مدينة فتحت أبوابها للاجئين. اللون الأزرق لشعار الوكالة بوصلته واتجاه مسيره، لكنها لم تكن هناك.

الأيام مرت بلياليها والأعوام جاءت بمواسم برتقال جافة وقاحلة في قلبه. البحث لم يتوقف رغم أن الطريق مليء بالوجوه الحزينة، بالأب الذي فقد ابنه، والزوجة التي لم تعد تعرف أين زوجها. جمع بقايا القلوب أصعب مهمة في ذلك الوقت.

هناك أشياء حزينة لا تُقال، ومشاعر ولدت من رحم واقع مرير لا يترك مجالاً للكلمات إلا أن تعترف بأن الحياة، بكل ما فيها أصبحت حزينة. فقط حزينة.

بعد سنوات من التيه بين طرقات المنافي والحدود، استقر به الحال أخيراً في مخيم جديد، بحث بين أكواخ الصفيح المتشابهة عن شيء يشبه الاستقرار، وعن بقايا نفسه المبعثرة بين حقائب المهجرين وبلا فائدة. وفي ليلة ظلامها أثقل من المعتاد، احتضن أمه للمرة الأخيرة. جسدها نحيل جاف، وصوتها صار يتسرب من بين شفتيها كآخر أنفاس شمعة على وشك الانطفاء.

- "اشتقت لرؤية أحفادي..."

آخر كلماتها قالتها بابتسامة غريبة، ترى ما لا يراه أحد. ابتسامة حملت تناقضات حزن الأم التي لن ترى أحفادها، وسعادة العائدة إلى الماضي، ورضا المحتضنة بقدرها. ثم أغمضت عينيها بهدوء وببساطة وذهبت إلى نوم طويل تاركة إياه وحيداً في مواجهة الفقد الذي بدأ ينسج خيوطه حول الجسد الدافئ الذي بدأ يبرد رويداً في حضنه.

وأنفاسها تتلاشى شعر بطفولته تموت معها. ظل جالساً يحدق في الظلال المتمايلة على الجدار، والعالم خارجاً يستمر في دورانه، غير مكترث بوفاة امرأة عجوز في مخيم لا يظهر على الخرائط.

جلس هادئاً في زاوية الغرفة، وعقارب السَّاعة تذوب في معصمه كلَّما نظر إليها، ولم يشعر بنبضها حتى أيقظته نداءات الصَّلاة، فهو ما زال في رحلته، وتتخلى عنه في كل محطة قلوب وأبدان أحبَّـها، يحاول أن يطوي ألم فراق في فمه كالعلقم، وينادي الشَّمس ويستعطف النُّجوم إن شاهدتها، ويتذكر الفراشات والعصافير، فيحدثها عن خصلة شعرها الهاربة.

بدأ الحب يشيب بعداً وغربة. في المخيم القريب من البحر استقر بعد رحلة الهجرة الطويلة، وعمل معلماً في مدرسة الوكالة، يستذكر تلك الأيام البعيدة. أيام الوديان والبساتين. كانا يجلسان معاً على الصخور المطلة على القرية، لطيفة وجميلة. قطعة من السماء نزلت إلى الأرض، يأتي منها الخير والحياة، وتذهب بلا وداع تاركة وراءها فراغاً لا يُملأ.

يقف الآن في المخيم أمام البحر، ويحاول بجسده أن يمنع الأمواج من ضرب الشاطئ، أن يحفظ الذكريات محفورة على الرمال بعيداً عن عبث الزمن. ينظر إلى الأفق، وتختفي الشمس شيئاً فشيئاً. فهناك شيء لا يرى بالعين لكنه يحس به. البحر نفسه يرسل له سراً يتعلق بالهجرة وهولها.

- هل هي القوارب التي اختفت في الأفق عادت، أم تركت وراءها أحلاماً غرقت في الأعماق؟

أم الرمال التي تحمل بصمات أقدام لم تعد تعود؟

شيء ما يدعوه للتأمل، وللبحث عن المعنى الذي يربط بين الماضي والحاضر، بين الحب الضائع وهول الفراق. شيء غامض يلوح في الأفق، حيث تبقى بعض الأسرار مدفونة تنتظر من يكتشفها.

نادى مؤذن يوم الجمعة إلى الصلاة، فلملم جسده المتناثر عن الفراش ليلبى النداء، فاستمع وصلَّى وكبّر، ثم لمح وجوهاً مألوفة تضيع بين الآخرين، ولكنَّها فاترة، شيء يطاردها، وتحجب تجاعيدها الكثير من الأسى.

- نعم، إنَّه الحاج جمال، وابنه يوسف وقد كبر، وعلى طرف المنبر يتكئ الحاج روحي. ولكن أين ذراعه اليمنى؟

لقد دفنها في أطراف القرية بعد أن دافع عنها، وبين أشجار البرتقال نصب شاهداً لها، تقدم إليهم وتعارفوا، واختلطت أضلاعهم ببعضها من شدَّة الشَّوق، وتداخلت التحيات مع الأخبار، ولكنَّه ينتظر نبأً يعني له الكثير، وطال شوقه له ليسأل:

- ولكن أين المختار؟

فجيبه الحاج روحي: إنَّه في أول المخيم بالقرب من مدرسة الوكالة، في البيت الذي يبعد عنها خمس درجات وزقاق، وعلى يمين شارع السوق.

الوقت بعد الظهر بساعتين، والشمس تشتعل من جديد، وخطواته تتردد في أزقة المخيم، تبحث عن شيء ضاع منذ زمن. الدنيا من حوله بدت موجاً، وقلبه يعصف بعنف.

وقف أمام الباب الخشبي الأزرق يتنفس كما لو أن الهواء أصبح شحيحاً. النافذة الصغيرة إلى جانب الباب لم تحجب ضوء النهار، تحجب بصيص الأمل الممكن لرؤيتها.

في داخله دار حوار مرير: هل يصرخ باسمها عسى أن تسمعه من وراء الزمن؟

أم يترك الباب مواربا ًكما تركا كل شيء غير مكتمل، مجرد وعد تلاشى مثل دخان مدافع ذلك الصباح البعيد؟

سأل بصوت خافت يكاد يذوب في الريح: هل يبقى في فنجان قهوتنا مكان للذكرى؟

لأنه يعرف أن عطش الروح لا ترويه مياه الدنيا كلها. فدق الباب بعنف، طائر يخفق بجناحيه المحطمين في قفص الزمن. وقلبه يهتف:

- أين أنت يا زهور؟

وفُتح البابُ..

وقفت هناك لكنها لم تعد زهور التي عرفها. عيناها تحملان بحراً من الذكريات التي لم تعد تخصه. سألها بصوت يرتجف: هل تتذكرين صيفنا الأخير بين أشجار البرتقال؟

أغمضت عينيها وأصابعها تلاعب قلادة حول عنقها - قلادة صنعها لها من قشر برتقالة يافاوية ذات يوم- فأجابت بصوت حالم: كل الأيام متشابهة. لا فرق بين اليوم وعام، ولا ألف عام.

حاول مرة أخرى أن يحفر في الرمال بحثاً عن ذكرى: هل تتذكرين ضوء القمر وهو يرقص على قطرات الندى بين أوراق البرتقال؟ كنا نسميها لآلئ يافا.

انهمرت دمعة على وجنتيها، كآخر قطرة ندى على ورقة في بساتين القرية. وهمست:

- نعم. ذلك ظل موجوداً هناك. مع آلاف الذكريات الأخرى. لكنك...

لم يحتمل أن تكمل الجملة. نظر حوله فرأى طفلاً يلعب خلفها. الطفل الذي حمل اسم - إبراهيم - شاهد ينمو على حب بقي حياً رغم كل شيء. فانكسرت الشمس على وجهها، فبدت الصورة القديمة تذوي ببطء.

الطفل الصغير تعلق بثوبها وسأل:

- ماما، من هذا الرجل؟

نظرت إليه نظرة طويلة، ثم أجابت بصوت يحمل الألم والحنين:

- هذا.. هذا... حكاية من الماضي يا حبيبي إبراهيم...

وعندما التقت عيناه بعيني الطفل، عرف أن هذا هو قدرهما أن يبقيا حيين في ذاكرة برتقالة يافا التي جفت في قلادتها، ولكن عطرها يبقى، فأدار ظهره وهو يهمس:

- وداعاً زهور. لقد وجدتك أخيراً.

على أطـراف الـوادي

عالمي محصوراً بين تلك التلال الثلاث، فراشة تحلّق داخل قارورة زجاجية. الوادي ضيق ويحوي أسراراً لا تُحصى، أكبر من صندوق العجائز القديم. أعرف كل حجر فيه، وكل نبتة برية تنمو بين الصدوع، حتى أنني أسمع أنفاس الأرض عندما ينزل المطر. الوعي فيه متماسك مثل وتد الخيمة، يهتزُّ أحياناً إن عصفت بنا حُمّى الحياة، لم أعرف مكاناً أكثر هدوءاً من نسيم تلاله.

"الأكاسيا" شجرتنا العجوز، عرشنا الملكي. نتسلقها أنا وأصدقائي، حتى نصل إلى تلك اليد العملاقة المتشعبة من الجذع لتحملنا فوق الوادي. من هناك نرى خريطة وطننا الحية.

ذات مساء بينما نتأرجح على "الأكاسيا"، سمعت أمي تناديني. جلست بجواري تحت الشجرة، وأشارت إلى التلال بيدها القصيرة التي تحمل حكايا عمر كامل من الشقاء:

- انظر يا ولدي. هذه التلال إنها حراس الوادي الذين عاهدوا أجدادك الأوائل. صخورها جنود وأشجارها حراس. لكن احذر. فهي تحمي من يحترم أسرارها.

فهبت رياح حركت أوراق "الأكاسيا". فسكتت كما لو أن التلال أشارت لها أن تكف. شعرت بالقشعريرة تسري في ظهري، وأن عيوناً خفية تراقبنا من بين الصخور. لم أعلم حينها أنّ التلال ستصبح لغزي الأكبر، وكلمات أمي تلك مجرد البداية لقصة ستدفعني يوماً لاكتشاف أن بعض الأسرار يجب أن تبقى مدفونة. خاصة تلك التي تحرسها تلال وطن لا تنسى.

وادينا لم تلمسه شوائب مخلفات الزَّمن، يرفض أن يتغير رغم أنه يكبر، ولم نفكر نحن سكان الوادي وخاصة الصغار منا ماذا يوجد خلف تلك التلال؟ وما تخفيه عنا؟

كلّ شيء فيه يكفينا ويُقنِعُنا ببساطة وسعادة. نعيش في مجاهل بعيدة عن الأضواء والعمران، نسكن الخيام المتناثرة في أماكن متقابلة، وتشاركنا حياتنا حظائر الماشية، وتنضم إليها أقنان الدّجاج وأقفاص الطيور، وبعض الصقور المحلّقة، تبقى حولنا دون كلل أو ملل؛ لتحمينا من الغربان السوداء المهاجرة، ولكنها تبقى حياة متماسكة بسكانها.

نحن الصغار لم نفهم يومها ذلك السحر الغامض الذي يجذبنا إلى أحضان الوادي. شمس الصيف الحارقة تنصهر فوق رؤوسنا، وتذيب أجسادنا النحيلة حتى كادت عظامنا تظهر من تحت الجلد المحترق. وفي الليل البرد القارس يتسلل إلى عظامنا، يجمد الدم في عروقنا، حتى صرنا نسمع دقات قلوبنا تطرق على أبواب من الثلج.

لكننا نعود لنهرول بين منحدرات الجبال الخطرة، حيث تختبئ الأفاعي، حبال مرقطة تنتظر من يخطو عليها. وعقارب سوداء تعيش بيننا ترفع ذيولها تحذيراً، وخلفها عقارب شقراء تنذر بالموت، والضباع تهزأ بضحكاتها المرعبة من بعيد. وفي الظلام عيون الذئاب المتوهجة تراقبنا من بين الشجيرات، بينما الغربان السوداء تحلّق فوق رؤوسنا تنذر بالشؤم.

كل يوم مغامرة قد تكون الأخيرة. وكل خطوة غير محسوبة قد تكون على حافة الموت. ومع ذلك نلتقي مساء تحت شجرة الأكاسيا العتيقة، ونتساءل بيننا:

- لماذا نعود إلى هذا المكان؟ ولماذا لا نبحث عن وادٍ آخر أقل قسوة؟

ثم ننظر إلى بعضنا وتأتينا الإجابة نفسها كل مرة، صلاة سرية نرددها بأرواحنا قبل شفاهنا:

- لأن هذا هو وطننا. هذا كل ما في الأمر.

الكلمات لا تحتاج إلى تفسير. الحقيقة عالقة فينا وتلتصق بملابسنا. كنا وسنبقى جزءاً من هذا التراب، من هذه الصخور ومن هذه المخاطر ومن هذا الوطن. فالوادي يحفر خريطته في لحمنا ودمنا مع كل شروق وشروق.

حتى تلك الذئاب والغربان صارت جزءاً منا. نعرف أننا سنكبر يوماً ونُفنيها، وسنصبح مثل التلال القديمة، حراساً لهذا الوادي الذي ربما سيبقى لغزاً حتى لأحفادنا.

صديقي أسعد له رأي مختلف غالباً، فهو واثق من حكايات العجائز، يلازم تجمعاتهن طمعاً في قطعة "ملتوتة" أو بعض "أصابع زينب" يستمع لأحاديثهن عند البئر، أو بجانب "الطابون" ويتفق معهن ليرضين عنه، ويروي لنا -على لسانهن- أنَّ الوادي يشبه وجوهنا المثلثة ولكن بشكل مقلوب.

في مخيلتنا الطفولية لم يكن الوادي مجرد أرض بين الجبال. لقد كان كائناً حياً، ونراه رجلاً عجوزاً ممدداً على ظهره، وجسده الواسع يشكل حدود عالمنا. وجهه المثلث المقلوب يرسم خريطة وجودنا، جبينه الشمالي حيث صخور الموت السوداء، وذقنه الجنوبية حيث ينتهي عالمنا بمنحدرات تنزف رمالاً حمراء عند الغروب.

هذا العجوز العملاق كان مضطجعاً بين أحضان العالم، محاصراً بأجساد أخرى. دول لم نعرفها إلا من أحلام الرحالة. ونعيش في لحية هذا العملاق التي تساقط شعرها، حيث تحولت أشجار "الأكاسيا" إلى شعيرات متفرقة، والوديان الجافة إلى تجاعيد عميقة في وجهه المتعب. وأنفاسه تلاحقنا صيفاً، ونفحات الهواء الحارقة التي تذيب الرصاص في الظهيرة.

كنا نقول إنها تخرج من فتحتي أنفه، تلك المغارات الغامضة حيث تسكن الخفافيش. والمطر الشحيح الذي بالكاد يبلل التراب. نعتقد أنها دموعه. دموع عجوز مريض حزين على حاله، كما نحن حزانى على حالنا.

ذات مساء بينما كنا نلعب بالقرب من "مغارة ابن آوى"، سمع أسعد جده يهمس لأبيه:

- النقب لم يعد كما كان. لقد شاخ كما نشيخ نحن.

عرفنا حينها أن اسم وادينا الحقيقي هو "النقب"، لكننا كنا نناديه بلقب "الجدّ" في سرنا، وفي الليالي القمرية نرى ظله العملاق يمتد عبر الصحاري، يحاول النهوض لكنه لا يقوى. ونحن أطفال الوادي نحلم بأن نكون الأدوية التي تشفيه، والمشط الذي يعيد شعر لحيته، لكننا أشياء صغيرة تتسلل بين تجاعيده، ونبقى نسمع همسات الأجداد:

- النقب يموت. وإن مات الوادي يموت أهله.

ما زلنا أطفالاً أو أكبر بقليل، ومعاً نشكل فرقة جوالة. أولاد وبعض الفتيات في مخيم كشفي، لا نترك حجراً إلا قلبناه، ولا مغارة إلا نبشنا خبيئتها، ولا عُشّاً إلا سرقنا ما فيه من بيض، ومهمتي جمع الحطب وإشعال النّار في موقدنا الصّغير، المكون من ثلاثة أحجار، ونقوم بتلوين البيض المسلوق بما توافر لدينا من مواد، ومهمة وليد سلق البيض في علبة سمن، ونعقد مباريات تصادم البيض، ومن تنكسر بيضته يخرج من اللعبة، غالباً أنا ووليد الأكثر فوزاً، ومهمة الآخرين الأكل، ليتساءل الجميع عن سر فوزنا الدائم. فهم لا يعلمون أنّ السر يكمن في كيفية إمساك البيضة، وإحاطتها بكف اليد بقوة؛ لتشكل لها درعاً يحميها.

نلهو ونمرح ونركض بلا تعب، حتى تتعب الأرض من خطواتنا؛ فتطفئ الشّمس نورها علينا؛ لتجبرنا على العودة إلى خيامنا، لم نتساءل عن العالم كيف يبدو خلف تلك التلال كما قلت:

- هل هم سعداء مثلنا؟ أم بؤساء؟

عالمنا يكفينا رغم ضيقه، واستراق أحاديث الكبار ينبئك بشيء أجمل خلفها، ولكنه ليس مخصصاً لنا.

في العاشرة من عمري عشت أوّل حزن في حياتي، أتى سريعاً مفاجئاً، حزن أفلت من حُرّاس التلال، كان ذلك في نهاية الصَّيف، حين علا صُراخ أحدهم:

- لقد غرق، ابني الوحيد، وليد. لقد ابتلعه البئر.

"لقد ابتلعه البئر..."

جملة يتردد صداها في غياهب الجُبّ وبين التلال، ومع كلّ صرخة من الشَّيخ عبد الغفار، بأمله المرتعد يعود صوته وحيداً دون جواب وحياة ودون جدوى. إحساس حادٌّ بالخوف ارتعشت منه أطراف من سمع صراخه، "الغول" الذي يتردد صيته بين العجائز قد هاجمنا، وزرع الخوف في عقولنا كما في أساطيرنا، واختطف أحدنا، وأتساءل بعينين مغرورقتين بالدموع:

- هل أصبحت بلا رفيق خامس؟

طلال يشعر بثقل في قدميه، وبدأ يتفكَّك من خوفه، يجلس خائفاً في حضن أمه، وأسعد يشرد إلى خيمتهم ويختبئ فيها، وهيام تجمّدت مكانها، وتحول لون شفتيها إلى الأزرق، وجلال يستطلع الحدث بذهول، وآخرون تعلو وجوههم لحظة حادة مرعبة بالانتظار.

الرّجال يعملون على إخراج الجثة من البئر، تلتفُّ أصابعهم حول الحبل بكلّ ما فيها من قوّة، وبين شد ورخي ومن بين جدرانه العالية، أُخرجت جثة وليد إلى شفق الشَّمس الّذي يغلّف الوادي، مثل وليدٍ خرج من رحْم ميت، جثة مُتقوّسة وتقطر ماء أحمر مصبوغاً من ضوء الشّفق، جثة لم تكن له يوماً ولا علاقة لها بذلك الشّقي المغامر، ساكنة هادئة وبذراعين ورجلين معكوستين.

لم تقتنع أمُّ وليد بموت ابنها، رغم أنَّ الخوف يحيط بأطرافها، ترقد بجانبه وتطلق صرخات يأس موجعة لا حصر لها، يردّدها الوادي في صدى صوته، مبدياً تألمه وتضامنه معها، وسرعان ما تتبدد الصّرخات، وتهزُّه من صدره علَّه يستجيب بكلمة أمّي، فتصرخ صرخة مخنوقة في بُحَّة ألم عميق، وعلى صدره الصَّغير وفوق قلبه تماماً تضع رأسها ودون صوت لكليهما، وحركات ارتعاش رأسها وجسدها من شدّة البكاء تُخرِج فوران الحزن من قلبها.

لم تكن لديّ معلومات دقيقة عن الحادثة، فقد اتفق كبار القبيلة على رأي واحد، يرددون مقولتهم:

- لقد ابتلعه البئر...

وليد. رفيقي وصديقي. جسدي يتألَّم ويتنكر بهيئة طفل صلب عنيد، والحقيقة أنَّني لم أكن كالآخرين، شعرت بأنَّني مصاب بالتَّسمّم، وطعم مرّ شنيع يغطي لساني، وقاربت على الإغماء، فتظاهرت بالجلد والثَّبات، أقف منتصباً قبالة الجثة. لم أفهم ما حدث حتى الآن، ولا المعنى الحقيقي لتلك الحادثة، وخوفي من عبارة "ابتلعه البئر.." أكثر خشية من الموت نفسه، وأتساءل:

- كيف يبتلع البئر ولداً، ولماذا اختار وليد.

لقد تنبَّأت أمّي بالحادثة، عندما قالت لي يوماً:

- لا تلعب بجانب البئر ولا تعانده، قد يبتلعك عندما يستيقظ.

البئر شخص بإمكانه أن يبتلع؟ وأن يتحدث! ويستمع إلينا...

- ولكن هل هو بهذا السوء؟

كنا نمسك بالحبل نفسه ونشده معاً بقوّة، ونشرب من الدّلو الأسود الذي ينزف ماؤه بسرعة، كبرنا بطعم الماء وبرودته، وارتوينا الحُبَّ جميعاً هناك، سألت نفسي وأنا أستمع للنحيب والبكاء:

- ما السرّ الكامن في البئر؟

بدأ شعوري بالخوف يتلاشى، ومع أصدقائي نقوم بمهمّة إشعال الحطب لتضيء لكبار القبيلة محيط القبر، فقد دُفِنت جُثّة وليد مساء، ورأيناها هادئة مسالمة، وغابت شقاوة صاحبها وعناده تحت أكوام التراب والحجارة، لقد دفن وليد وذكرياتنا معه كذلك توارت، بدا مشهد دفنه كمن يمنعونه من الهرب من لحده. يحاصرونه من أيّ محاولة للتَّسلل من تلك الحفرة الصَّغيرة، يرصفون الحجارة بإحكام وتراب ثقيل ينهال فوق جسده الصَّغير.

المقبرة في طرف تلَّة "الغُراب" -هكذا اسمها- ويقول بعض العجائز: أنَّ غراباً جاء مهاجراً من بلد بعيد يعيش هناك على شجرة جافَّة من اثني عشر غصناً تمثّل شهور السَّنة، وقد جفَّت الشَّجرة بسبب شُؤْم الغراب ونعيقه، وكلّ شهر ينتقل الغراب لغصن جديد لاحتلاله، وكلّما انتقل لغصن مات شخص من القبيلة، ويقولون كذلك أن الغراب أعور العين، وحين حاول الشَّيخ عبد الغفار -في شبابه- قتله، حين رماه بحصاة من مقلاعه ولم يمت، لكن اقتُلعت عينه فقط، ويبدو أنَّه عاد لينتقم من الشَّيخ، فقد شاهد بعض الأولاد الغراب بجانب البئر يشرب الماء، ويقول آخرون ومنهم أسعد:

- أنَّه كان يتحدّث مع البئر، فأيقظه، وطلب منه ابتلاع ابن الشَّيخ، وذلك مقابل أن يتوقَّف الغراب عن إلقاء الحجارة في البئر في الصَّيف عندما يقلّ منسوب المياه.

فسألت أمي:

- هل قصّة الغراب صحيحة؟
- نعم، العين بالعين يا عدي. عين الغراب مقابل ابن الشَّيخ. وهناك من يبيعك ليبقى.
- ولكنَّها ليست عينه، بل قتله جميعه.
- الولدُ قُرّة عين أبيه يا عدي. فقد اقتلع البئر قلب أبيه بدل عينه.

لم أفهم جيداً الحكمة من ذلك إن كان فيها حكمة، والأمر مخيف نوعاً ما، ولا بد لأحدهم أن يقتل هذا الغراب المهاجر لأرضنا ويحرق الشَّجرة؛ ليعود الغراب إلى أرضه الأصلية، وهكذا نتخلّص من شرّه، ومن انتقامه المتواصل من القبيلة.

الطريق ضيق نحو المقبرة ومنحدر، مرصوف بحصى ناعم، ويجب السَّير فيه ببطء حتى لا تتزحلق وتتكسر عظامك، ومن باب الوفاء والواجب، علينا زيارة القبر صبيحة اليوم التَّالي، فهي عادة من عادات القبيلة، تأخرت عن الزّيارة قليلاً، فقد هرب خروف صغير من الحظيرة، وتبعته حتى تل "عراد" فقد لحق خراف الأرملة سهيلة جارتنا القريبة، فقد ظن أنّه أحد الخراف السوداء هي أمّه، أتعبني ركضاً حتى استطعت إقناعه بالعودة لأمّه البيضاء الحقيقية لترضعه، كانت مهمة شاقَّة.

بعدها توجهت راكضاً نحو قبر صديقي لأزوره كما يفعل الجميع، ومن أعلى الوادي لمحت زوجة الشّيخ وبجانبها بناتها، ما أثار انتباهي هي والصَّغيرة هيام يسقيان القبر بالماء من القربة، ومعها تُبللان التُّراب بالدّموع، والصَّمت غادر القبور المتهالكة من بكائهن ونحيبهن، لم أقتنع بما يجري أمامي، وانتظرت خلف شجرة "الأكاسيا" أراقب المشهد وتلك الطقوس الغريبة في زيارة القبر، وتساءلت:

- ألا يكفيه ما شربه من ماء البئر حين غرق؟

وتذكرت خبراً من صديقي أسعد نقله لي عن جدّه، أنَّ القبور مثل المخازن، توضع فيها الجثث، ويجب زيارتهم وطمأنتهم عن أخبارنا بين الفينة والأخرى، وسقي قبورهم بالماء واجب على الأحياء، وسيأتي يوم يخرج فيه الجميع منها، عندما نصبح جميعاً من حبيسي تلك المخازن. حينها سألته مقترحاً:

- ولماذا لا نقدم لهم الطعام؟

قال بصوت متردّد: سأسأل جدي عن ذلك...

لحظات ليست طويلة وبدأ زحام الأولاد بالمغادرة، فوجودهم دون فائدة سوى ركضهم بين القبور وإزعاج الميتين، وحين ابتعدت شمس الضُّحى عن المكان، غادرن محيط القبر بخطوات صعبة، وهيام تحاول إسناد أمّها على كتفها حتى لا تتعثر، فلمحتني العائلة مختبئاً خلف الشّجرة فأصابني الحرج، فاحمرّت وجنتاي، حتى الجلد المحيط بعيني اشتعل خجلاً، ولم أعلم سبب خجلي حينها.

بعد كلّ تلك المتاعب والأحزان، التي استمرَّت أربعين يوماً، والحزن فيها رفيق سكان القبيلة، سمعت أمي تقول لجارتنا الأرملة، وهما تحاولان حلب الماشية، أنَّ الحليب قد جف في ضرع الماشية حزناً على وليد.

أظنني أعلم أنَّ ذلك ليس صحيحاً، فقد حلّ فصل الشّتاء، ومن المعروف لسكان القبيلة وما نسمعه من كبارها، أنَّ الماشية تخبئ حليبها في بطنها وتحتفظ به؛ لتشربه في البرد لوحدها، ويكفيها كرماً أن تسقينا طوال فصل الرَّبيع والصَّيف وبعض الخريف.

الأسى أصبح في القبيلة أقلّ من الماضي، وأصبح الحادث ذكرى تشبه بقعة سوداء في ذاكرتي، كلما مررت عليها أحسست بالعتمة والبرد، وما أكثر الذكريات مع وليد.

اقتربت من القبر بحذر، ولم أر شيئاً كما كان أول مرة، التراب تغير لونه وأصبح عنيداً تنمو فيه بعض الحشائش، وأنا أحمل في يدي فسيلة من نبتة "المجنونة" لأزرعها بجانب قبر صديقي لتظلِّل قبره، حتى يبدو المكان أجمل قليلاً مما هو عليه مثل الخرابة، وستتولى عائلته سقيها بالماء كما تفعل غالباً، وما أن انثنيت بجسدي على القبر وبدأت الحفر جانب الحجر المنتصب عند رأسه، والذي يسمونه "شاهد القبر"، وقد حفر عليه الشيخ بعض الآيات وتاريخ موت وليد، قاطعني صوت من خلف رأسي تماماً طالباً مني التَّوقف، فسبَّب لي الرَّعدة والهلع، فظننت أنَّ وليداً قد قام من القبر؛ أو كان خارجاً منه لقضاء حاجة ما وعاد إليه ليمنعني من القيام بذلك، فاستدرت بحذر وبطء شديدين لأستطلع مصدر الصَّوت، فإذا هيام وأمُّها تقفان باستغراب خلفي، كم كان صوتها يشبه صوته! له رنين يلامس أطراف الجلد ويسبب قشعريرة غريبة!

- ماذا تفعل يا عدي؟

شعرت أنّ ما أقوم به لا يخصني، أو أنه شيء خاطئ انتهك حرمة الميت، أو تدخلاً في شؤونهم، والسؤال يحمل عتاباً مؤلماً، فجازفت بابتسامة بلهاء لأرحب بهما؛ لأنحّي من تفكيرهما إحساس الظلم عني وعن تصرفي النَّبيل، وأشرح الأمر باختصار:

- أهلا بك يا خالتي، إنني أزرع تلك النَّبتة، وكان وليد -رحمه الله- يحبها كثيراً، ودائماً يقول عنها أنَّها عنيدة مثله، وأحياناً يقول، إنَّه عنيد مثلها. ينتف أزهارها القرمزيّة ليصنع منها طوقاً لأخته الصَّغيرة. لك يا هيام.

ردَّت زوجة الشَّيخ بسعادة ظاهرة: يسعدني يا ولدي أنَّك تقوم بذلك، سأساعدك أنا وهيام.

حمل كبير انزاح عن صدري تحت سماء تغطيها السّحب، لتزيح الشُّمس سحابة رمادية تغلّفني، وتنثني أشعتها جاثية على وجه هيام؛ فيشعُّ لأراه أول مرّة بهذا الإشراق. تهزُّ رأسها بسعادة كئيبة، وهي تداعب تراب قبر أخيها، واقترحت أن نروي النَّبتة من البئر، ونسلبه ماءه رغماً عنه ليكفِّر عن خطيئته.

رأيته اقتراحاً طفولياً ينم عن سذاجة ما، ولكنَّه يعبر عن الألم الكامن في ثنايا روح هيام وعواطفها، وقالت:

- سواء للزينة أو أحبها كما تقول، فليس هناك أجمل من الوفاء لشخص تحبه.

ذهلت حين سمعتها، وأصبح وجهي ملفوحاً من صفعة شمس قاسية، فقلت بلهجة مرحة:

- أتوقع أن نجد تحتها الظِّل القرمزي في السَّنة القادمة.

فقالت زوجة الشيخ بنوع من الثناء والجديّة:

- إننا محاطون برائحة الموت، وإن كان الأمر كذلك، لعلَّ روح وليد تصعد مع زهورها إلى عالم الأحياء مرَّة أخرى.

- وهو كذلك يا خالتي...

عدت إلى الخيمة واستلقيت بجانب أمي منتظراً طعام العشاء، محاولاً أن ألتقط شيئاً ما أحسست به هناك، مشاعر تتزاحم في ذاكرتي وتلامس عواطفي، أسعى لإزاحة بعضها وتنقية الكلمات التي سمعتها هناك، دون الرّضوخ لقلبي.

أمي تراقبني دون أن أدري، وتلتقط ما يدور في عينيَّ من بريق حين التقت عيوني مع عيونها، ونادتني لتناول الطعام، قائلة بضحكة ماكرة:

- لقد كبرت يا عدي...

شعرت ببعض الدَّهشة والخجل، لكنَّ البريق اختفى من عينيها، ودفنت الابتسامة خلف أسنانها منذرة بالتَّحذير، وأكملت بلهجة تخلو من العاطفة:

- لا توقظ عواطفك كلَّها فأمامك حياة طويلة، وجمال الحياة وسحرها ليس في محيط القبر والبئر يا ولدي.

شعرت أن حديثها مبني على واقعة ما، وعلمت لاحقاً أنَّ الأرملة سهيلة أخبرتها بما شاهدته هناك، حين جاءت لتنقل الماء لتسقي خرافها، ويبدو أنَّها أضافت بعض الحماس لما شاهدته وسمعته. فقلت محاولاً تبرير موقفي، ووجهي يتخذ شكل حصاة تتدحرج من أعلى "تلّ السبع" المهجور:

- نعم يا أمي، موت صديقي أفزعني، ولكنني سأواصل الحياة بسحرها، فكل شيء هنا جميل، ولكن تعاطفي مع عائلة الشيخ واجب عليّ.

لم يبد على أمي الغضب كما توقعت. فقد امتزجت في وجهها حكايات وآمال طالما حدثتني عنها، تسوقني بعطفها وحنانها وتحاصرني برعايتها وفراسة الأم الصحراوية.

لست أدري لماذا تسوقني قدماي إلى البئر، هل أصبح مزاراً أحج إليه كلما شعرت بالحنين؟

كثيرون يركضون هناك ويضحكون ويعملون، وأنا أركض نحوه كل يوم ولا أصل. ألهث بعنف دون تعب وأنظر في البئر ووجهي يتموج فيه، ويتمايل في انعكاس الماء كالأبله، محاولاً الاستقرار على رأي ما، حتى أنني لا أعرف أحياناً من القابع في قاع البئر، وأتساءل في نفسي:

- هل جئت لأشرب من البئر ما أكمل به حزني، أم أروي النبتة من مائه لينمو فرحي.

فأسأل البئر: ما نوع الماء الذي سيروي ظمئي فيك، أم أنني أشتاق لشيء بجانبك لا غنى عنه.

أعلم أنَّ الإجابة لن تأتي من قاتل اتفق يوماً مع غراب، كما قال أسعد رغم أنني لم أصدقه، ولكنها مواساة تنفع في لحظات الحيرة والضعف، فسأظل أراقب نمو النبتة وأرويها لتكبر سريعاً.

أجلس هناك أراقب الجميع مستغرقاً في التفكير، فجاء الشيخ عبد الغفار ليزور المكان، وهيام تمسك بأطراف أصابعه، وأسنانها تقضم أطراف أظافر يديها. دبَّ المشيب في شعر الشيخ قبل الأوان، وبدا رأسه مثل ضمة من القطن الأبيض، ويعبث بشاربه في شرود ويلفه بأصابعه حيناً، ثمَّ يسحبه لأسفل حيناً آخر، يرمق القبر من بعيد بنظرات خائرة، تأملت عينيه فبدت بيت عنكبوت نسج شباكه على بياض عينيه بخيوط حمراء. عابس يحدِّث نفسه مثل اليوم الأول لموت وليد، وهيام تحني رأسها وتمشي على ظلِّها، وتراقب وقع خطواته الثَّقيلة، قلبها يطلُّ من عينيها مثقلٌ بالهموم، فاليوم الذّكرى الثامنة لوفاته.

تلاقينا عند مفترق الطريق نحو المقبرة. توقفت في مكانها لحظات مترددة في استئناف المسير، وانتبهت أن يدها أصبحت معلقة بيد أبيها الذي ابتعد عنها خطوات. حثَّها على الإسراع قليلاً. استدار رأسها مثل نبتة دوّار الشّمس بطيئاً، لاحظت اتكائي على صخرة بالقرب من الطّريق، ابتسمت للتحية العابرة التي ألقيتها عليهما، وتابعت مسيرها خلفه، والشيخ لم يستمع للتحية أصلاً، فصوتي عميق مخنوق من الحرج، وهيام قرأت حركات شفتي، ولم تستمع لكلمة واحدة.

كبرت بسرعة، ووجهها يشعرك بآلام الوحدة، تزور القبر وتسقي النبتة وترتب الحجارة، ثم تعود إلى خيمتها. هكذا هي خطواتها، أو سلّم سنوات حياتها التي انطبعت في ذاكرتي.

هيام فتاة جميلة لبقة فصيحة، ووجهها صغير بوجنتين بارزتين. ممشوقة القوام تتدفق بالصّحة، قويّة وماهرة في كلّ شيء ومن سيدات القبيلة.

صمت يكتسي بالفرح، ويتسلَّل إلى قلبي مثل نمنمة قلب خَدِران طال اتكاؤه على الشَّوق، وشرايينه عادت تضخ دماءً غير تلك الَّتي تغذيه، دماء من نوع لا يصح التبرع بها، فصيلة نادرة، لم يكن حواراً بين عاشقين، بل بين روحين كادت الصَّحراء أن تجفف أنفاسهما.

الشَّيخ عبد الغفار -كما يعرفه أهل الوادي- صلب جلف في كلّ شيء، لا تروي غضبته مياه ينابيع الكون، لأنّه لم ينجب إلا ثلاث بنات، وبعد موت وليد غرقاً تزوّجت اثنتان وبقيت هيام، ومن الطَّبيعي أنها تخشى غضب والدها الشيخ، فالدَّساسون يملؤون الوادي، لم تنطق إلا بكلمات أقصر من سورة الإخلاص، وكان سحبها لحبل الماء ليخرج الدَّلو من البئر، أهون عليها من إخراج تلك الكلمات.

عندما يراني الشيخ في الوادي أرعى القطيع يقف ويهزُّ رأسه بخليط من الإعجاب والاستغراب. حركة رأس غير مفهومة تشبه رأس حصان أربكه شيء ما. عندما أنظر إلى عينيه مباشرة، يصبح وجهي متورّماً بالمشاعر، أرغب بالصُّراخ في وجهه بمكنونات نفسي. وأرتدُّ مثل كرة إسفنجية اصطدمت بجدار.

الشمس تميل نحو المغيب، وتلقي بخيوطها الذهبية الأخيرة على كثبان الرمال المتوهجة، تذوب في رمال الوقت البطيء. تحت قدميّ الأرض تحترق بلوعة الصمت، وقلبي يخفق ببرودة الأمل عند حافة المقبرة، حيث تلتفّ "نبتة المجنونة" حول الأحجار.

هيّأتْ فنجان القهوة بيديها، وتصبّ جرعات من شجونها بين السّكر والمرارة. لم تكن تحتاج إلى كلمات كثيرة، فالعيون تبوح بما تعجز عنه الشفاه.

- أبي عاد البارحة...

همستْ. بينما "المجنونة" تتمايل فوقنا، وتشهد على اللحظة الفارقة في علاقتنا. ثم أضافت بلهجة تخلط بين الخجل والترقب:

- "بتنوّرنا الليلة..."

جاءت الدعوة بنسيم عابر، تحمل في ثناياها رائحة الياسمين. عرفت حينها أن أبواب الخيمة ستكون مفتوحة ليس للضيافة فقط. بل لبداية جديدة. فسألت أمي ذات ليلة، بينما الظلُّ الطويل لجسدي على الخيمة:

- لماذا أبدو أطول من رجال الوادي؟

أمسكت بكتفي ونظرت إليّ بعينين تعرفان الحكايات قبل أن تُروى:

- كالنخلة يا بُني. نبتتَ في أرض قاسية، فاضطر جذعك يعلو بحثاً عن القوة. لا تلُمْ ظلَّ اليتم الذي ربّاك، فلولا جوعك إلى النور ما بلغتَ هذه السُّمو.

همست لها بخبر زيارة الشيخ: هيّام تقول: والدها يريد رؤيتي. ليتعرّف عليّ أكثر.

ضغطت على يديّ وقالت: امشِ ولا تهتز. لا تُكثر الكلام ولا تنثن كغصن خاوٍ. الشيخ سيمتحن صبرك، فليكن وجهك صلباً، وقلبك دافئاً تحت الرماد.

لم تسأل عن علمي بنيّته ولم تستفسر. فحكمة الأمهات نجوم تُضاء في الظلام دون حاجة إلى تفسير.

تهندمت بما تيسَّر، وقبلت يد أمّي بارتجاف شفتي من خوفي، خُيِّل إليَّ أنَّ الطريق أطول من العادة، الرّمال تمسك بقدميّ، ولفح الهواء يصفع وجهي، وعجاج الغبار جعلني أضلّ طريقي، ومحاذير تطوف حولي من اللقاء، واختبأت الشَّمس خلف الخيمة، فأطلّ والدها من بين رفرفة شرائِطها، أصلب من صخرة انشقت من قمَّة هرم عتيق، وفي ناحية ليست بعيدة، أطلت هيام تشرق من بين ستائر لا نوافذ لها، تخفي ابتسامتها خلف شالها، فالمسافات مهما كانت بيننا فهي لا تباعدنا.

- سأحاول الوصول إليك، سأقاتل الوادي ورماله، فالأمر ليس تباهياً بالشَّجاعة، بل شعوراً بالحب.

لم أطل النَّظر في عيني هيام، قرأت فيها رسالة جميل فحواها، فامتلأ قلبي وهدأت مخاوفي، وأمّها بجانبها تتفحّص القادم، "سفينة صحراء دون سنام" -هكذا وصفتني- أمُّها نوعاً آخر من النّساء، مشرقة من طيبة قلبها، فقد أخبرتني هيام مرَّة أنَّ أمها مثل الجذور قويّة بعواطفها، كلّها طيبة وكلامها قليل.

جلست مقابل الشَّيخ، وبدأ حديثه بصوت مجلجل كالعادة، وله ذاكرة أكثر وضوحاً من ذاكرتي، رغم سبعين عاماً أو أكثر عاشها في الوادي، ترحمنا على كثير من الموتى. نبشَ أسرارهم وانتقد ومدح وتأسَّف، وكثير من الأحياء نالوا نصيبهم، رغم أن القهوة تأخرت لكنَّها جاءت هادئة، تفوح منها رائحة الهيل، ومُدَّتْ إليه من خلف ستارة تفصلنا عن خيمة النّساء، فلمحت منها نظرة خاطفة، كنت كمن يسكن تحت رموش ظبية تراني ولا أراها، وما أن تذوقت قهوتها لم تقوَ شفتاي على حملها، فانسابت قطرات منها على قميصي.

وهنا عاد الشيخ مبتسماً ليكمل حديثه، وهذه المرة تعمَّد الهدوء ويتحدث بعاطفة، يصارع قوَّة حنجرته لتهدأ.

بدأ في شجرة عائلتي من جذورها حتى أطراف أغصانها، والمقصوصة منها أعاد وصلها؛ ليكمل الصّورة، وساعات من الليل تتسابق بيننا، أقضيها مثل فارس يسابقه باحثاً عن مهرته في ثنايا كلامه.

بدا لي أنَّه على عداوة مع الجذور والأغصان والأشجار العائلية. وأتساءل في نفسي:

- هل لأنَّه لم ينجب من الذّكور بعد وليد؟، وليس له جذوراً تنمو بعد موته.

لماذا أنا هنا؟

يضيع وقتي بين قصص وحكايات مدفونة، لا تحكيها إلا شواهد القبور، لقد أصبح لقاؤنا مثل طريق ملأى بالهياكل العظميّة، تروي قصصاً عبرت طرقاتها في زمن غابر ويكمل كلامه:

- أبوك -رحمه الله- رجل طيب كريم، كنت صديقه لفترة، وأمك امرأة فاضلة محافظة.

ثمّ اضطجع على ثلاث مخدات، إحداهن خرجت أحشاؤها من بطنها، وأخذ يحملق في وجهي، وأردف قائلاً:

- على كل حال أعلم لماذا جئت، ولا تقدر على الكلام خجلاً أو رهبة، ولو كنت قادراً لاستطاعت شفتاك أن تحتفظَ برشفة القهوة ولم تفلت منها.

شعرت بموجة خجل حارَّة تذيب جسدي، بدوْتُ مثل رجل متعب من اللّظى يشتاق للظّل، ولكنَّني مصمم وسأبقى، تمنيت لو أنّ الأرض تنشق وتبلعني، لأكون قصّة من قصصه، ولكنَّ الاطمئنان عاد من خلف رفرفة السّتارة، جاءت ضاحكة رقيقة وتسلَّلت ليرفَّ قلبي، شعرت أنَّها غطت عامريَّة الأرض وسماءها.

- أدعوك ووالدتك لزيارتنا بعد عصر الجمعة القادم، لنتفق على التفاصيل.

تسمَّرتُ في مكاني والتصقت يداي بفخذي، فقامت عيناي بالمهمّة، ترتفع لأعلى رغماً عني، شاكرة الله على بداية تحقق حلمي، غير أنَّني لست واثقاً ما سيكون بعد ذلك.

تجولت في وادي القبيلة حتى الفجر، تائه في الحد الفاصل بين أحلامي وأفكاري، وتشرق الشَّمس جزئياً علينا، حتى خرج بعض الصّبيان يرعون الماشية، واكتفوا بالنَّظر باستغراب إلى هذا التائه في قبيلته وبالقرب من بيته.

وصلت خيمتنا، أمّي تجلس في طرفها وتحني رأسها على "الغربال" تتفقَّد حبّات "الفريكة" تُخرج منها كل دخيل، تخيلت أنها تعدُّها، وبجانبها حفرة نمل، وتنقل النملات ما تلقيه من حبّ أسود مسوّس لتخزنه، بدا المنظر نملة تحمل الأخرى. مشهد يلخص الحياة، كلنا يعطي الآخر حتى لو كان مسوّساً.

رأسي ثقيل فاتكأ على كتفها من تلقاء نفسه، بعد أن قبَّلت رأسها أمسكت بيدها الأخرى، فقالت:

- سيوافق، لا تقلق.

ظل صوت الفريكة بيننا، سيّد الموقف بلا منازع، أتأمَّل حركات يدها ودقتها التي بدأت تتراجع. عندها مخاوف واضحة، وبعض التَّوتر جعلها تلقي حبّات سليمة. فقلت:

- هل أنت واثقة؟

- نعم واثقة، ولكنه سيطلب منك مهراً غريباً. فقد نقلت الأرملة سهيلة الخبر من والدتها.

- تناول فطورك وتمدَّد قليلاً، فالماشية بحاجة لمن يعتني بها.

خرجت مسرعاً أحمل زوّادتي على حصاني، أقود القطيع للوادي فالشَّفق يحفظ موعدنا، فكانت في الموعد تجمع الحطب وبعض الأعشاب، وتعتني بباقة من الأزهار، وابتسامة بحُمرة خجولة تغطي وجنتيها، وحبات من العرق تجمَّعت على جبهتها الضَّيقة، وضعت الباقة على الصخرة بجانب البئر، وبيدها أشارت إليها.

وبدوري وما قاد إليه تفكيري المضطرب، وبخطوات حذرة متلصصة تسترني فيها نبتة المجنونة، ألقيت بجانب البئر حُزمة من القشّ أخفيت فيها رسالة من ورقة واحدة.

ضحكت وحملت الحزمة بعد أن استطلعت المكان، وضمتها إلى حزم الحطب التي يحملها حمارها وغادرت الوادي.

- آه يا هيام. سرعان ما تأتي وسرعان ما تعود. سأفتقدك كثيراً حتى يوم الجمعة.

أسبوع قاس تسمّرت أيامه مكانها، الشمس بطيئة لا تتحرك، والقمر بحاجة لمن يقنعه بالظهور ليكمل نظام الكون.

- سيكون يوماً قاسياً. هذا ما أتخيله.

لم تأب مشاعر الشيخ الإطراء عليَّ عندما جلسنا مساء، ونظراته لائمة نحونا، ولكن هناك شعور بينهما، لمحت نظرات حزينة تنساب من عيني الشّيخ لأوّل مرّة، عندما قالت أمي:

- من ستتزوج ابني ستكون أسعد امرأة في الدنيا، لا يوجد من هو في صفاته ولا أخلاقه، ساعد الجميع، ووقف مع الكبير بشجاعته، والصَّغير بلطفه، لا تنسَ يا شيخ عندما هاجمت الريح الوادي، من تمسَّك بعمود خيمتك حتى لا تطير؟

- أنا أثق أنّه سيحافظ على...

قبل أن تنطلق كلماته توقف وتذكر شيئاً طواه الزمن. عيناها تحدقان في الشيخ بعمق، وفي صوتهما رنين حكاية قديمة:

- ذات يوم، كان لك مطلب. ورأيي كان ابني.

وبمشاعر فياضة قالت: إن كنت ستعاقب الماضي. فالماضي مات بعد أن فات. ولن يعود.

خشيت أن يقول لأمي قولاً خشناً فتنفلت أعصابي، ونتجه للنزاع بدل الاتفاق. فقلت بنبرة هادئة:

- لقد جئنا يا شيخ لنتفق كما قلت، ما طلباتكم؟

سكت الشيخ ثم ترحم على أبي الميت، ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة هادئة، وجد ضالته بعد طول انتظار. أمر بإحضار القهوة، ثم أضاف بنبرة تحمل قراراً مصيرياً:

- لتُحضرها هيام بنفسها ولتجلس معنا.

ارتعد قلبي من فرط ما سمعت: هل الشيخ يفتح باب الخطبة رسمياً؟

هل أرادها شاهدة على هذه اللحظة، إعلان بأنها ستكون شريكة العمر، لا مجرد خادمة للضيافة؟

لمحت أمي نظرة الموافقة في عينيه، بينما هيام تخطو نحونا بحركة متزنة، وتعرف أن مصيرها يكتب الآن بين رشفات القهوة وهمسات الرجال. أصوات أقدام هادئة تقترب وحواسي تتبعها، لم يطل الأمر إلا بعض دقات قويّة من قلبي، فأشرقت الخيمة فيها، لحظة بعد أخرى. ثوان معدودة حتى سمعت:

- أسعد الله مساءكم جميعاً، خالتي أمّ عُدي. كيف حالك؟

- مرحباً يا ابنتي الجميلة.

أحقيقة ما تراه عيناي ويحصل؟!

أطلت عليّ مادة فنجان القهوة، لم أجرؤ على رفع وجهي عن عيني الشيخ، حتى أقدر على حبس مشاعري داخل عيوني، ولا تخونني نظراتي إليها، سأبقى رغماً عني محتفظاً بهيبة ما، أستمدها من عينيه الجاحظة فيّ.

أخذت فنجاني بانضباط وخجل، وقلت:

- أشكرك، وأسأل الله أن يجمع بيننا في خير وسعادة.

زال قيد آخر. بينما نسمات المساء الباردة تعبث بأطرافها، رأيتها تفرك كفيها في ساقيها محاولة إيقاد شرارة دفء. غريب أمرها.

- هل خُلقت من تناقضات؟

تشع دفئاً من بعيد وتشعر بالبرد في نفس الوقت حين تكون قريبة.

احتضنتها أمي وأجلستها بجانبها، وأنا لا أدري ما تخبئه الدّقائق القادمة، فتنحنح الشيخ، فأفقت من ذهولي، وقال ضاحكاً: ما بك يا عدي، هل رأيت شبحاً، هيام ستصبح خطيبتك، وسنقرأ الفاتحة.

- أم أنّك نسيت لماذا جئت؟

وبصوت بدى الارتعاد فيه واضحاً، والذُّهول سيّد الموقف. لم تكن قهوة، بل جرعة من ماء يغلي.

- ماذا قُلْتَ يا شيخ؟

- أنا عمُّك الآن، وقلت هذه الخجلة ستصبح خطيبتك، وسنقرأ الفاتحة.

ابتسمت ابتسامة النصر والفرح، وربّت على يد أمي وقبلت رأسها، ونظرت إلى هيام وهي ثانية قدميها في وضع أتعبها، وقلت:

- أعلم أنها أصبحت وحيدة أبويها، مدللة لا يرفض لها طلب.

حاولت أن تغير من جلستها، فمدت قدمها فاصطدمت بفنجان قهوتي فانسكب على رجلي، فضحكنا جميعاً على سذاجة الموقف حينها ذكرنا الشّيخ أن حظي مع القهوة دائم الانسكاب. وتابع الشيخ حديثه:

- لا تظن أنّني لا أعلم برغبتك، ولولا ثقتي في محلها، لما سمحت لك بالاقتراب من طرف ثوبها، فظللت أزجُّ بك داخل حياتنا لتصبح أنت الشّخص الوحيد أمامها. ليمتلئ قلبها بمن نثق به ونأتمنه عليها.

الشيخ يعلم أنني نشأت بين الخيام والرمال والجمال، وتعلّمت منذ صغري فنون الصيد والترحال من والدي وجدي. ولدي معرفة واسعة بالتقاليد البدوية وقصص الأجداد، وأحب قضاء الوقت مع أصدقائي والاستماع إلى حكاياتهم.

وأردف قائلاً:

- قلبك ملك للقبيلة، وابنتي هي الفتاة التي رآها قلبك لأول مرة. منذ ذلك الحين لاحظت أنك أحببتها، أو تريد أن تظهر بعد الوفاء لصديق الطفولة، منتظراً اليوم الذي تستطيع فيه طلب يدها.

- واعلم يا بني أنها ابنة الشيخ، زعيم القبيلة المعروف بحكمته وشجاعته، لكنها أيضاً تتعلم وتقرأ بفضل تربيتي لها.

يعلم عدي أن موافقة الشيخ عبد الغفار لن تكون سهلة، خاصة أنه من عائلة أقل نفوذاً. لكنه مستعد لمواجهة التحديات لإثبات حبه وشجاعته. بدأ الحوار بينهما بجدية هذه المرة.

- أعرف أنك تريد ابنتي، ولكن في حياتنا البدوية، الرجل يجب أن يثبت أنه قادر على حماية عائلته، وتوفير ما يحتاجونه. إذا أردت أن تتزوجها عليك أن تجتاز اختباراً.

- أنا مستعد لأي تحد. سأفعل أي شيء؛ لأثبت أنني قادر على حماية هيام.

واجه عدي تحدياً صعباً وضعه الشيخ عبد الغفار، فطُلب منه أخذ الثأر من "الغراب الأعور". هذا الغراب رمز لحزن الشيخ والوادي، ويشكل تحدياً له منذ شبابه، ولم ينجح أحد في قتله منذ سنوات.

بدأ عدي رحلته نحو الغراب الأعور، ليس كصيّاد يبحث عن فريسة، بل كرجل يبحث عن مرآة وهمه. يعرف أن الغراب لا يسكن إلا في أعالي الأشجار، حيث يظن أن الخوف الذي يلقيه على الوادي يجعله إلهاً. وفي ليالي الصحراء الهادئة كان القمر يسرق بريقه من عيني الغراب الوحيدة، كان يتذكر هيام، وذلك الضوء الذي كان يسقط على الوادي قبل أن يأتي الغراب. كانت ضحكة الماء تحت الجذور، كانت اسم الأكاسيا القديمة حين كانت تُسمّى "الحبيبة". كان يتذكر أحلامهما المشتركة أن يزرعا معاً شجرة جديدة فوق تلّة المواجهة، شجرة لا يصل ظلها إلى الغراب، ستصل جذورها إلى قلبه. كلما تذكّرها كان إصراره يتضاعف، ليس لأنه يريد الانتقام والثأر للشيخ. لأنه يريد أن يُعيد إلى الوادي صوته الذي سرقه النعيق.

وفي يوم من الأيام بين كثبان الصحراء التي تبدو كأنها موجات بترت، رأى الغراب الأعور. كان واقفاً فوق شجرة تعلو على كل ما حولها كما تعلو منارة فوق خراب. كان الغراب ينظر من علوّه بعينه الجمراء، ينظر ولا يرى، يظن أن ارتفاعه حماية وأن العلوّ ملكوت. لكن عدي لم يكن لييأس، لأنه يعرف أن الغراب يُصطاد من الداخل. جلس تحت الشجرة ولم يصوّب، أخذ يستمع. فسمع أنين الجذور وسمع ارتجاف الأغصان التي ظلّت تحمل هذا الطاغية سنوات. عندها أدرك أن السهم وحده لن يقتله لأن الغراب فكرة سوداء استوطنت الوادي. لكنه مع ذلك رفع قوسه.

هبّت رياح الصحراء التي تعرف كيف تمحو الخطوات ولا تمحو الذاكرة. حاولت أن تشتت سهمه، لكن عدي كان ثابتاً بجسده وبذاكرته. أغمض عينيه ورأى هيام وجهها الذي يضيء كالقمر في عتمة عين الغراب الوحيدة. قال في نفسه:

- لن أصوّب نحو جسده، سأصوّب نحو عينه التي يرى بها ظنونه.

أطلق السهم فخرَق الوهم، وأصاب السهم الجناح ليكسر إحدى زوايا الخوف التي كان يلقيها على الوادي. فسقط الغراب سقوطاً بطيئاً، كسقوط مملكة من ورق. وبينما يتهاوى رأى عدي أن الغراب ليس أسود اللون. إنه شفاف مثل بيت عنكبوت وكان يبدو أسود فقط بسبب كل الظلال التي جمعها فوق الوادي طوال السنين.

هرع نحو الشجرة ولم يجد جثة. وجد على الأرض بضع رِيش وبيضة مكسورة ووضعها في جراب من جلد الظبي، فالغراب تحرّر من شكله القديم ولم يمت، وعاد إلى ما كان عليه قبل أن يعتور عينه ويغترّ بقوته. فجمع الريش والبيضة وعاد إلى قبيلته.

لكنه لم يعد منتصراً كما يظنّون. عاد للشيخ حاملاً سرّاً أنه لم يقتل العدو. لقد أطلق سراح الوطن من وهم العدو. وضع الريشة فوق صخرة الوادي وقال للقبيلة:

- الغراب لم يمت، لكنه فقد قدرته على أن يكون آمناً، ومن يفقد أمنه يفقد قوّته.

حينها رأى الشيخ عبد الغفار الإصرار والشجاعة في عيني عدي، أدرك أنه قادر على مواجهة التحديات. وبصوت مملوء بالعاطفة قال الشيخ عبد الغفار:

- لقد أثبت أنك شجاع، تتحمل الصعاب والوفاء بوعودك. لذلك أمنحك موافقتي على الزواج من هيام.

لم تكن نهاية لطائر. كانت فكّاً لأسطورة الخوف التي نسجتها الغربان حول أعناق الوادي. حمل عدي الريش والبيضة إلى وسط القبيلة، ووضعهما في صندوق من خشب "الأكاسيا"، وقال:

- هذه تذكارات الغراب الذي ظنّ نفسه دولة. أما الغربان الباقية فستعلم أنّ الوادي لم يعد ملاذاً لها، لأن الملاذ يصير سجناً حين يعرف أهله أنهم أحرار.

وبفعله أشعل في صدور شباب الوادي شرارة الانتقام، وشرارة المسؤولية. وقفوا صفّاً واحداً ليزرعوا شجرة أمام كل خيمته، كي يظللوا الأرض بظلّهم هم لا بظلّ الغربان، وردّدوا معاً:

- لن يعود الظلام إلى هنا أبداً. لأنه لم يكن هنا أصلاً، كنا نحن من نمنحه مكاناً.

هكذا تحوّل الوادي من رمز للفرقة إلى رمز للوحدة التي لا تُفرّقها الأعيُن، ومن حكاية شجاعة شيخ بدأ المشوار إلى ملحمة شباب أكمله بالسيف والوعي. وأصبحت "الأكاسيا" العجوز تُسمّى "أمّ السند"، وتعلّم الصغار أن الغراب قد يعود بعين أخرى وبوجه آخر، لكنهم صاروا يعرفون أن مقاومته في ألا يخافوه.

بعد مرور أشهر على زواج عدي وهيام، تلك التي كانت ضوء الوادي، أنجبت هيام طفلاً جميلاً أسمياه وليداً تيمّناً بابن الشيخ عبد الغفار الذي ابتلعه البئر، ذلك الطفل الذي مات غائباً، ليُولد حاضراً في روح هذا المولود. كان وليد نوراً ساطعاً في حياتهما، يملأ الخيمة بضحكاته البريئة.

ولما علم الشيخ عبد الغفار بالأمر، امتلأت عيناه بالدموع التي طالما احتبستها كبرياؤه. وجد في وليد تعويضاً عن الفقد الذي مر به، وعرف أن الحياة تمنح فرصاً جديدة، وأنّ الغراب قد يسرق العيون لكنه لا يسرق النسل.

عاشت العائلة بسعادة وسلام.

وليد يكبر وينمو بين حب والديه ورعاية جدّه. وكان عدي يروي له كل مساء قصص الغراب الأعور.
كان يقول له:

- يا وليد، لقد أخطأت في بداية رحلتي، ظننت أن الغراب عدوّ قوي في السماء. لكنني اكتشفت أنه كان في عيوننا حين نخاف. الغراب يتغيّر لكن الأرض لا تكذب. تذكّر: إن رأيت غراباً غداً لا تطلق سهمك أولاً. انظر إلى الأرض لترى ما إذا كانت جذورك حيّة. إن كانت حيّة فالظلّ مهما طال يزول بزوال الشمس.

هكذا توثّقت ذكريات الماضي الجميل بآمال المستقبل الواعد، وعرفت القبيلة أنّ الغراب الأعور قد يموت ويُبعث بعيون جديدة، لكنّ الوادي الذي يعرف نفسه لا يُستعمر مرّتين.

كمّـــامـــــة

كُـلُّ شيءٍ تغير في لمح البصر. توقف أبي عن الذهاب إلى مصنع الطّوب، حيث يقضي ساعات يومه بين الغبار والأسمنت، واختفى كذلك من مقهى الحارة ملاذه المسائي، ليس لأنه قرر ذلك. لأن الأبواب أغلقت بقرار حكومي طارئ. الآن يجلس ملتصقاً أمام شاشة التلفزيون بسرواله الأبيض الشفاف، وفنجان القهوة الذي فقد وجهه، وإبريق شاي الصباح يجثم بارداً بجانبه، تخلّى عن مهمته في إضفاء الدفء على اليوم.

عيناه مثبتتان على الناطق الرسمي الذي يعلن بأسلوب جافٍّ أن عدد المصابين ارتفع إلى مئتين، وأن هناك روحاً واحدة قد فارقت الحياة ولم يصل عليها إلا الطبيب.

أما جدي فقد اختار ساحة البيت مكاناً له، أشعة الشمس الهاربة من الباب تضيء وجهه العابس. يجلس هناك ويلف سجائره من "الهيشة"، وحركاته في لفّها يدوية ماهرة، فيمرر لسانه على طرف الورقة، ويسخر من الدنيا كلها فقد شبعت منه مشبع منها، ثم يشعلها ويراقب المارة القلائل من وراء الباب، فقد أصبح حارساً لزمن لم يعد موجوداً.

وفي غرفة أخرى يمارس إخوتي الصغار كل أنواع الشقاوة والألعاب التي تخترعها براءتهم، محولين الغرفة إلى ساحة معركة من الوسائد والضحكات العالية. وأمي في المطبخ كعادتها تحارب على جبهة أخرى من حرب الوباء التي لا ترحم. بين أكوام الصحون المتراصة، وبين هدير الغسالة الذي يختلط مع أنفاسها المتعبة، تحاول أن تُمسك ببقايا قواها. عيناها تقرآن تعباً أعمق من مجرد إرهاق، خوفها يختبئ خلف حرصها على تعقيم كل شيء، تقاوم الموت نفسه بمنشفة معقمة "بالأسبيرتو" ومرطبان "كلور" معلّق على باب المطبخ.

- ماما، أنا جوعان.

تسمع صوت أحدنا فتنحني مرة أخرى فوق الموقد، تحوّل بقايا الثلاجة إلى وجبة تُشبه المعجزة، بينما قلبها يتساءل: هل يكفي؟ هل الطعام آمن؟

هل سأستيقظ غداً لأجدهم بصحة جيدة؟

صوت التلفاز يذيع أرقام الإصابات، ويدها ترتجف وهي ممسكة بالملعقة تتنهد وتواصل، فالأمهات لا يملكن قرار التوقف. فيصرخ أبي من الغرفة:

- "وقفي صوت الزفت..."

فَتجمُد لثانية، الصوت مزّق حاجزاً بنته طوال النهار لتواجه الخوف. ثم تهمس وهي تعدّل "شالها" على وجهها:

- اللهم أحفظهم...

قبل أن تعود إلى دورة المغامرة اليومية: غسيل وطبخ وتعقيم، قلق... وانتظار لنهاية لا تعرف شكلها.

لأن الأخبار لا تنتظر والأرقام تتزايد، والعالم خارج البيت يبدو أكثر غرابةً وتهديداً كل يوم.

يوم الخميس يوم آخر، يحمل نذير تغيير كبير. في المدرسة وقفنا لتحية العلم، وأنشدنا "فدائي" بأصوات ملؤها الحماسة، لكن شيئاً مختلفاً.

في طابور الصباح بدأ الطلاب يتهامسون عن خطر غامض يتسلل بيننا، خطر لا يُرى لكنه يحس. بعضهم ارتدى الكمامات مثل أبطال خارقون من عالم "النينجا"، ويفرك آخرون أيديهم بمادة هلامية غريبة يسمونها "الجل"، لتشكل درعاً واقياً من عدو غير مرئي. أما أنا واقف بينهم، أشعر بالقلق الذي يعتصر قلبي، لكن شيئاً آخر يملؤني. الغيرة!

فنظرت إلى سارية العلم، وتساءلت: لماذا لست مثلهم؟

هم مستعدون لمواجهة موت يجتاح العالم، وأنا واقف بلا كمامة وبلا "جِلّ"، جندي أحمق نسي درعه في ساحة المعركة. همست في نفسي بصوت مسموع بين ضجيج الطلاب وتمتماتهم، التي تُسرق بعيداً عن أعين المعلمين وآذانهم: نفسي ألبس كمامة.

أقف على حافة عالمين، عالم فيه زملائي يرتدون الكمامات، ويتسلحون يحملون دروعاً ضد الموت، وعالمي حيث يداي فارغتان وقلبي مثقل بالقلق والخوف. نظراتي تتجول بين الوجوه المغطاة، أبحث عن إجابة لسؤال لم أجرؤ على طرحه: لماذا أنا الوحيد الذي لا أملك ما يحميني؟

أشعر بالخجل ليس لأنني لا أملك كمامة، بل لأن العالم من حولي بدأ يتحول إلى مكان غريب، مكان يحتاج فيه حتى الأطفال إلى أدوات للحماية. فقط أريد أن أكون مثلهم وأن أشعر بالأمان، أن أكون جزءاً من هذا التحوّل الجديد، لكن الظروف لم تسمح له بذلك.

ثم حاولت أن أعزي نفسي بقول: إنها مفقودة من السوق.

وإلا فلماذا سيتركني والدي دون واحدة. في أعماقي أعرف أن الكمامة مجرد رمز للأمان في عالم من اليأس بدأ يفقد توازنه.

دخلنا غرفة الصف، ودقّ الجرس معلناً بدء حصة تلو الأخرى، جرس إنذار لسلسلة من المحاضرات الطبية الطارئة في كل حصة، لا بدّ من سماع نفس التحذيرات:

- احذروا واغسلوا أيديكم، ابتعدوا عن بعضكم. عقموا كل شيء.

ظننت أن المعلمين تحولوا إلى أطباء، أو انضموا متطوعين إلى حملة عالمية للوقاية. مللتُ من تكرار المعلومات نفسها منذ الصباح، يعتقدون أننا نسينا ما سمعناه قبل عشر دقائق:

- نعم، فهمت يا سادة، المرض خطر والوقاية ضرورية، لست بحاجة إلى سماع ذلك في كل حصة. أنا فقط بحاجة إلى كمامة لأحمي نفسي كالآخرين، وكما تطلبون!

وفي خضم التصريحات الجادة عن الإجراءات الوقائية، الواقع يضحك في وجهنا، أهمس لأخي ساخراً:

- ما زلنا نشرب من نفس الحنفية واحداً تلو الآخر، ونستخدم المرحاض نفسه بأعداد كبيرة، فهل تطهّر المكان بالسحر، وفي الصف نتعارك ونتزاحم، وأصوات العطاس والسعال تأتي من كل اتجاه، مثل موسيقى خلفية لفيلم رعب.

فأين الإجراءات الوقائية التي يتحدثون عنها ونحن نغرق في الكارثة؟

في حصة الفنون، وهي الحصة التي تعتبر ملاذنا من الروتين، تحولت إلى مشهد يثير الحيرة والاستغراب. المعلم الذي كان يجلس في زاوية الصف القريبة، يحاول الهرب من رائحة أنفاسنا المختلطة في الغرفة، فالهواء نفسه أصبح خطراً يهدده. جلس على كرسيه منشغلاً بهاتفه، ونحن نتوزع بين همسات خفيفة بين الأصدقاء، وزميل آخر معروف بجديته المفرطة في الحصة.

أدوات الرسم التي امتلكها البعض تحول الحديث عن الكمامات وأنواعها إلى موضوع الساعة أصبحت ألوان "الأكريليك" مجرد خلفية، وتحولت أقلام الرصاص إلى أدوات لرسم مخططات لكمامات (N95).

في زاوية الصف في اليوم التالي كنا نتبادل سابقاً قصص أبطال الألعاب الإلكترونية، وجدت نفسي أجلس في دائرة مختلفة تماماً. صالح مد يده نحو حقيبته بلهفة يريد إبهار أصدقائه، هذه المرة لم يخرج لعبة أو غداء. أخرج كمامة زرقاء مجعدة.

- جربوها!

قالها بحماس بينما يمررها بيننا: إنها ناعمة مثل قميصي الرياضي.

في المقابل محمد يعدّ كماماته الثلاث بعناية، أمين مكتبة يرتب كتبه النادرة: هذه للخروج، وهذه للطوارئ، وهذه

-توقف ثم همس بسرية- هذه احتفظ بها لأعطيها لابنة عمتي.

رأيت عينيه تلمعان ويربت على جيبه حيث تطوى الكمامة المزينة برسوم "باتمان".

انفتح الباب بعنف ودخل عبد العزيز يجر قدميه، كل الأنظار التصقت بالحقيبة الغريبة التي يحملها.

- انتظروا حتى تروا هذا.

قال وهو يفتحها ليخرج قناع الغاز القديم الذي أخذه من أخيه الأكبر. ضحكنا جميعاً عندما وضعه على وجهه، لكن ضحكنا توقف عندما قال بجدية غير متوقعة:

- أبي يقول أن هذا قد ينقذ حياتي يوماً ما.

وسط هذه الفوضى ظهر طلال من بين الحشود بطل من عالم الفضاء، معقم اليدين في يد، والقفازات في الأخرى: خط الدفاع الأول معي.

أعلن وهو يوزع كحولاً معطراً على الأيادي الممتدة. حتى المعلمة ابتسمت وهي تراقب المشهد من بعيد، وكان يشرح بنبرة خبير: المهم ألا تلمس وجهك أبداً. حتى لو حككت أنفك.

جلست أتأمل وتذكرت كيف كنا نتباهى سابقاً بأحدث الألعاب والهواتف، واليوم أصبحنا نتبادل النصائح عن أفضل أنواع الكمامات، ونفحص بعضنا البعض:

- كمامتك مقلوبة! لم تغسل يديك كفاية!

حتى لعبة "التقليد" التي نلعبها في الفسحة، تحولت إلى محاكاة ساخرة لكيفية "السعال في المرفق بشكل صحيح"

في عالمنا المقلوب هذا، لم تعد الألعاب الإلكترونية أو الملابس الجديدة هي ما يثير الإعجاب. أصبحت الكمامة التي تشبه تلك التي يرتديها الأطباء في المسلسلات، أو عبوة الجل المعقم التي لا تنتهي، هي وسيلتنا الجديدة لإثبات أننا "مستعدون". بين هذه الأدوات والاستعدادات، ظل السؤال الأهم يدور في رأسي:

- متى سنعود نتباهى بأشياء الأطفال الحقيقية مرة أخرى؟

عاد معلم الرياضة إلى ملعبنا، فارس من العصور الوسطى، يتلحف بكمامته التي تغطي نصف وجهه، ويأبى انفه الاحتماء داخلها ويشعر بالاختناق، ونظاراته يغطيها ضباب أنفاسه. يتحرك بحذر بيننا، يتجنب ألغاماً غير مرئية. وأحياناً ينسى نفسه ويقترب أكثر من اللازم، نراه يتوقف وقد تذكر أمراً مهماً، يتراجع خطوتين إلى الوراء، ليعيد حساب مسافة الأمان بيننا.

بعد انتهاء دوام ذلك اليوم، وفي طريق عودتي إلى البيت، أمسكت بيد أخي الصغير بلال لنعود سوياً، لأنّ زميلاً له اعتاد مضايقته، ويسخر منه دائماً، لأن أخي يلبس نظارات سميكة، ويلقبونه بالأعمى لكثرة تعثره بالطريق

- أعتقد أنه يتعثر لارتدائه حذاءً أكبر من مقاس قدمه دائماً.

دخلنا إلى قلب المخيم حيث تتدلى أسلاك الكهرباء العشوائية في كل اتجاه، كل سلك منها يهمس بقصة، هذا يحمل أنين مروحة بالية في حرّ آب، وذاك ينقل ضحكات أطفال لم يعودوا يجرؤون على اللعب في الزقاق.

مقهى الحاج محمود نبض الحي مغلق، والزبائن الأوفياء لا يخونون موعدهم الصباحي، فقد تحول السور الخارجي إلى مقهى مفتوح. عبر شقّ في الباب تنزلق أكواب بلاستيكية دافئة كما لو تهرب من سجن، ويتبادل الرجال النكات بخفّة، فالفيروس لا يستطيع عبور حاجز السخرية الشعبي.

على الرصيف المقابل المصلون يكدسون أحذيتهم أيام الجمعة، نصب أبو عبود خيمة مؤقتة من أغطية بلاستيكية معلقة بعصيّ خشبية. بين الطماطم الذابلة والبطاطس بالدرنات، يدير "سوبرماركت الفقراء" ببراعة، خضاره موزعة بعناية كي لا تلمس الأخرى، وفي الزاوية جلس العجوز أبو ياسر يبيع السجائر مفردة، فالوباء علّم الناس اقتصاديات التدخين، والأصوات تتصادم في الهواء:

- خيار يا عالم! سعره ببلاش. أرخص من كمامة.

ليصرخ طبيب عيادة الوكالة: ممنوع التجمعات. شيلوا الكراسي وابعدوا عن بعض.

ليرد عليه الحج عوض: "والله لو الفيروس جوعان كان طلع من هالمخيم."

تحت سقف من الهموم اليومية، يخترع الناس هنا طرقهم الخاصة للبقاء. فإذا كانت الدولة تعقم الشوارع بالكلور، فهم يعقمون الخوف بالمزاح، وإذا التعليمات تنادي بالتباعد، فهم يمارسونه بطريقتهم، مسافة ذراع بين البائع والمشتري، مع ابتسامة عريضة.

توقفنا متأملين على باب الصيدلية نراقب أنواع الكمامات وأسعارها، قررنا توفير مصروفنا لنشتري كمامة نلبسها بالتناوب، واتفقنا على البدء من الأسبوع القادم. لم نعلم أنه ليس هناك أسبوع قادم، فقد تقرر إغلاق المدارس، وسنبقى في البيت، وحجر صحي، وممنوع الخروج، وممنوع العمل، وممنوع الزيارات والأعراس، وحتى دَفْنُ الموتى تَغيّر، كل شيء توقف، حتى الزمن توقف بعدما اختُصِرَ الآذان. وتزوجت ابنة الجيران دون عرس وحفل ساهر، وتلبس كمامة مع الطرحة.

زاد خوفي من فوضى الحياة، فوضى فوق فوضى المخيم، تُغْلَقُ الطُرقات وتوضع عليها المتاريس الحجرية المزينة بالإطارات الملونة، تحوّل المخيم لسجن كبير، ضاق علينا أكثر، الخُروج للعب مخاطرة، ومعانقة أمي كذلك مخاطرة ما نَلمَسه خَطراً.

صمتت الكلمات في المخيم، وتبعثرت الحياة مساء عن الشوارع، سوى من بعض اللامباليين، وتبقى بعض الأضواء حتى الصباح؛ لتحكي حكاية البيوت، فبعضها طبعته حالة من السهر واللعب، والأخرى اختصرت سهراتها بكلمات بائسة تختصر حال أصحابها:

- كورونا ومساعدات، وكرتونة. وصندوق وقفة عِزّ؟!

والدي يزداد توتراً ليس من المرض المحيط بأنفاسنا، بل سمعته يقول لأمي:

- من وين بدي أطعميهم؟

وأمي تشدُّ من أزره، فالصبر طبعها والله لن ينسانا، عندنا بقايا طحين والأرز فيه كفاية، والعدس رخيص. وجدي لا يدرك ما يحيط بنا من أحداث، فهو يطالب بحصته الأسبوعية من "دُخان الهيشة"، فقد قارب ما لديه على الانتهاء. وأنا وأخي "نريد كمامة"

نـهرٌ بضفتين
(بعض الأحداث مستوحاة من واقع حقيقي)

تشرق شمس يوم جديد، عادتها التي لا تتغير على جسدي، نهوضي من الفراش قصة مختلفة. نومي لم يكن سوى محاولة لإخفاء جسد يلتف حول نفسه، فالصباح يُطوي رداءً بالياً ملَّ من كثرة الاستخدام.

أتظاهر أحياناً بأنني ما زلت نائماً، رغم أن التعب لم يعد يشدني إلى السكينة، ولم يعد يمنحني النوم الطمأنينة التي أبحث عنها.

عندما يستيقظ دماغي يكون مصحوباً بصوت مشوَّش، أحلام تتحول إلى صوت جرش إزالة الصدأ عن قطعة معدنية دفنت في التراب دهراً من الزمن. تبدأ ذاكرتي بالتجول في أرجاء الغرفة، تبحث عن تلك الأحلام الجريئة التي ستخرجني من عالم الضجر إلى دنيا الأمل، لكنها تبدو الآن بعيدة، فقد اختفت مع أول خيوط النهار.

أتململ في فراشي، بوصلة تدور إبرتها حول محورها، باحثة عن اتجاه واضح في غرفة مليئة بالنور. إبرة البوصلة تشير إلى باب غرفتي وإلى أمي بالتحديد، التي أول من يسمع همسات استيقاظي.

أظلُّ في مكاني فما زلت حبيساً بين النوم واليقظة، وبين الواقع والحلم، والضجر والأمل. هذا الاستيقاظ مجرد رحلة داخلية في نفس البيت تبحث عن معنى جديد، ليس نسخة عن يوم سابق.

- هل يحمل في طياته إمكانية للتغيير حتى لو كانت صغيرة؟

جسدي مفكَّك بأكمله مثل لعبة "ليجو" سقطت من يد طفل بعد جهود طويلة في تجميعها، وصرت ليـناً لا أعارض الطيّ والإزاحة. أسهل من لعبة قماشية تركت في غسالة تتقاذفها الأشياء دون إحساس على الإطلاق، غير أن عقلي الذي فقد حدَّتــه يطفو بعيداً كل مرَّةٍ عن جسدي، ومقصلة القدر نـفـّذت حكمها فيه مبكراً، يبحث عن نفوذ ما، ومعطل عن أي شعور بالتوقع.

الشعور بالغضب مثل الشعور بالنُّعاس، أو ألم الاستيقاظ المفاجئ من حلم مزعج يلف الجسد، تلك اللحظات المحرجة للزحف نحو المرحاض. أو عندما تجبر نفسك على تحمل طقوس ومراسم الاستحمام، حتى تناول الطعام وشرب كأس من الشاي الفاتر حتى لا أحرق جسدي الميت. أصبح عبئاً ثقيلاً ومهمة شاقة.

أُعاني من عقدة المكان، فالمساحة الضيقة التي أشغلها تشعرني بالاختناق، ولا يهمني الزمان ولا الأحداث؛ فالمهدئات تقوم بعملها بكفاءة، تدفن أي رغبة في الرفض أو الاحتجاج، لا أملك حتى خيار الرَّفض ولا أعرفه، فكلمة "لا" محيت من قاموس كلماتي.

حياتي محصورة في حفرة مكعَّبة الشكل يسمونها غرفتي، أحياناً أتمنى أن تصطدم قدمي في طرف السرير، أو أن أغلق الباب على أصبعي لأشعر بشيء. أو أي شيء يذكرني بأنني ما زلت على قيد الشعور لا الحياة.

الإحساس المفزع بالرقود في الظلام يلتهم روحي، أجد نفسي مكوماً في الزاوية مثل غطاء قديم ينتظر استخدامه في يوم ما، أتمنى لو أستطيع التململ لأشاهد الحديقة؛ أو طرد تلك البعوضة الحمقاء التي تتغذّى على دمي، أتركها حتى تكتفي منّي، لأنها والزمان سواء في نظري. كلاهما يأخذ دون أن يعطي، وفي النهاية أهمس لأمي:

- لنكن مرحين مهما حدث.

تقولها أمي لي دائماً، جملة تحمل أملاً غامضاً. "النكن مرحين مهما حدث." ومع أنني لا أعرف معنى المرح الذي تقصده، ولا أجد في نفسي الرغبة حتى في المحاولة، إلا أنني أرسم لها ابتسامة من طرف شفتيَّ المقشَّرة. أفعل ذلك لأنني أعلم أن ذلك يسعدها، وربما يخفف عن قلبها بعضاً من الثقل الذي تحمله.

عيناها الحمراوان الزائغتان تشبهان حبتي فراولة ناضجة، تحيط بهما هالة خضراء مسوَّدة، آثار ليال من السهر والتعب. انحناء جفنيها ينبئ بكل شيء دون أن تنطق بكلمة. لا تحتاج إلى الكلام لتخبرني كم تعبت، فكل خطوة تخطوها، وكل حركة تقوم بها قصة من التضحية والصبر. ذات مرة قالت لي:

- إنه نوع من الكحل الأخضر.

تختلق ذلك وتجمل الكلام لتخفف عني، لتجعل الواقع أقلَّ قسوة. هي تكذب عليَّ أكاذيب جميلة، كتلك المرّة التي أخبرتني فيها: ستبقى صغيراً وسأرعاك دائماً. العظماء مثلك لا يكبرون.

التعب نحت عمرها وأطرافها، ووصل إلى عيونها العسليّة الجميلة. أشاهد دموعها تفور برهة من الزمن، لا تبتعد عن فوران الفقاقيع في زجاجة مشروب غازيّ، ثم تتبدد على تجاعيد خديها، وتسير في أودية وجهها نزولاً، أنهار صغيرة تحمل معها قصصاً من الألم والصبر.

هي لا تشتكي ولا تطلب شيئاً في المقابل. كل ما تفعله هو أن تمنحني الحبَّ والرعاية، حتى عندما يكون جسدها منهكا وروحها مثقلة. هي أمي والعالم الذي أعرفه، الذي يمنحني الأمان في وسط هذا الألم.

أبقى صامتاً محاصراً باللحظات الصباحية الكئيبة التي لا أستطيع الفكاك منها. لا مهرب لي ولا مفرَّ من هذا الجسد الذي أصبح سجني. حتى الصراخ ملاذي الوحيد، خفت صوته مع مرور الوقت. منذ كنت في المهد، لم يكن أمامي سوى الانتظار:

أنتظر قرص الشمس حتى يتجاوز جسدي قبل أن يجففه، فأتحول إلى عرجون قديم يابس بلا حياة. أنتظر الذبابة حتى تنتهي من لعق شيء ما عالق على بدني، أكبر رغباتي أن أحك ظهري أو أي جزء من جسدي، أتعامل مع "النمنمة" كأنها نبض قب إضافي يجب تحمله حتى يتوقف، كم تمنيت أن أقف أمام المرآة مثل أبي لأحلق ذقني لأشعر أنني إنسان، حتى هذه الأمنية البسيطة تبدو بعيدة. أحياناً أحاول الاستنجاد بيدي اليُمنى رغم ثقلها وتقوّسها الهلالي، وما تبقى فيها من حياة بالكاد تُذكر. أن أنقل الكأس البلاستيكي إلى شفتي، لكن يدي تحاول الانفصال عن جسدي وتتمرد عليه. أشعر أن عظامي غير منصاعة، ترفض الحركة كما أريد. وينتابني ألم شديد، فلحمي يتفتت من الداخل، لينتفض ويتمرد على هذا السكون الطويل الذي فرضته عليَّ الحياة.

رغم ذلك أستمر في المحاولة. أكرر الحركة مراراً حتى لو سقط الكأس، حتى لو رفض أن يتحطم، فأتأمل تدحرجه وصوت ارتطامه بالأرض بسرور. فالكأس رغم فراغه يعود ويمتلئ مرة أخرى، ولا يقنط من النهوض. ربما هو أكثر مقاومة مني، أو يعلم أن السقوط جزء من الحياة.

سمعت أبي مرة يشكو لأمي من خدران ذراعه لاتكائه عليها طويلاً. لم أكن أعرف معنى "الخدران" آنذاك، لكنني أفهمه جيداً. الخدران جزء مني ينتقل إلى عائلتي ليخبرهم كيف حالي كلما سألوني عنها، أشعر أن الخدران هو الجواب الوحيد الذي يمكنني تقديمه بدلاً من أنا بخير.

مرات كثيرة شعرت بالشفقة على نفسي، تلك الشفقة تلمع في عيني وتخنق صوتي المهموم. أتفاجأ كلما سمعت اسمي يذكر، أخشى أن يكتشف أحد كم أنا ضعيف وعاجز. لكنني أتعلم شيئاً فشيئاً، أن الضعف ليس عيباً، وأن الألم جزء مني، جزء يجعلني إنساناً من نوع فريد، حتى لو كان ذلك الإنسان يعيش في جسد لا يعمل كما يجب.

مالت شمس يوم الجمعة خلف جدار البيت، وهو أبعد ما أستطيع رؤيته، بدأ ذلك المشهد الذي يسمونه "الغروب". قادني أخي الصغير مهند إلى ردهة البيت ولا أبالي كثيراً، فمن يشعر أنه لا يملك جسداً لا يهمه أين ينقله الآخرون. كل ما يشغلني هو الشعور الذي ينتفض بداخلي بالترقب والانتظار.

وجدت نفسي أمام طاولتنا المستديرة وحولها أمي وأبي وأختي ميسون، وعدة شموع متراقصة وضعت فوق كعكة هلامية لونها يشبه الحنّاء.

الجميع يراقبني وينتظرون لحظة فرح مصطنعة اعتادوا عليها. لحظة حرق الشموع جاءت على استحياء، ولأن أنفاسي لا تقوى على إطفائها، قامت ميسون بالمهمة نيابة عني. أكملت عام حزن آخر أضفته إلى تسعة عشر عاماً. ولا أتذكر منها سوى رائحة الشموع المحترقة من أجلي.

- كل عام وأنت بخير.

أمي أول من نطقها، تلك الجملة صعبة في قاموس عائلتنا -أن أكون بخي- ثم تتوالى التهاني والقبلات من الشفاه الباردة إلا شفتي ميسون، فقد كانتا الوحيدتين الحارتين، ربما أثر إطفاء الشموع ما زال عليهما.

الهدايا المغلَّفة بالورق اللامع وضعت في حجري، قام مهند بفتحها لأشاهدها. تقبلت ذلك بوداعة وسرور، فما زال في إمكاني التفاعل معهم، وما تبقى من جسدي قادر على أن ينتفض ليبادلهم الشكر.

شعرت بأنني جزء من هذا العالم وجزء من العائلة، رغم كل الألم والصعوبات. ربما تلك الشموع المتراقصة ترمز إلى بصيص أمل ما زال يتوهج في داخلي، أمل بأن الحياة قد تحمل لحظات من الفرح والدفء، وحتى الحركة البسيطة يمينا ويساراً.

وبعد دقائق من فتح الهدايا أخذ مهند واحدة، وميسون فعلت مثله، وبقيت هدية واحدة حيَّرتني بماهيتها. تشبه بلاط البيت، وحولها قطع صغيرة تشبه مومياوات الفراعنة. أشياء مألوفة لكنها غريبة في نفس الوقت.

علمت لاحقاً أن أبي أحضرها بعد أن همس في أذن أمي بكلمات غير مسموعة:

- قد يستطيع... تحريك... يتعلم... ذكاء... فوز.

سحبت يدي إلى الأمام لأتحسس ملمسها محاولاً تقليبها. شكلها أثار فضولي، وحركة يدي المفاجئة أثارت دهشة أمي ومن حولي:

- هو يستطيع! لقد أحبَّها.

قالتها أمي بصوت مليء بالأمل.

جلس أبي على كرسيه ممسكاً بقطعة الكعك، وفي يده ارتجاف خفيف كلما حاول غرس شوكته فيها. الجزء الهلامي يهرب من الشوكة فهي بلا عظم يسندها. ولأخفي حرجي وأثير اهتمامهم أكثر، حاولت فتح علبة الهدية بطريقة ساذجة، فغرست أظافري فيها عساها تستجيب. بصوت متوتر قلت مجاملاً أبي:

- ما أجملها.

وجدت نفسي منهمكاً أكثر في ذلك النزاع الساذج مع العلبة، حاولت أن أجلس معتدلاً لأنتصر في مهمتي الأولى. ملامحي غير متوازنة بين فرح وبؤس، وبين شوق لمعرفة ما يخبئه الصندوق الكرتوني المبلط.

أخيراً تمزقت العلبة وانسلّت منها تلك القطع، وانتشرت على أرضية الردهة، كل قطعة منها تحتل مكاناً جديداً في عالمي الصغير. تأملت الهدية وتفكيري يتراوح بين الجدوى والعبث، جدال نشب بين جسدي وعقلي:

- هل يوجد شيء أستطيع فعله بها؟!

تقدم أبي وجلس على الأرض يلملم القطع المتناثرة. طاولتنا البلاستيكية فصلت بيني وبينه، وبدأ يرتب عليها القطع بطريقة ما. على سطح الرقعة الكرتونية المبلطة بالأبيض والأسود، تشكلت شواهدها الصماء. تُنبئ بنظام معين جذب تفكيري، وجعل جسدي الرافض يتراجع قليلاً.

- إنها الشطرنج لعبة العظماء والأذكياء والقادة. ولأنك منهم سأعلمك اللعب.

شرحه مختصر يحاول بثَّ الإصرار في قوة يدي اليمنى المتمردة على جسدي، لأنها ستكون كافية للعب والفوز.

يخاطب عقلي، لأن الإنسان -حسب رأيه- يجب أن يعيش بكامل عقله لا بكامل جسده. فشعرت بأنني لست سجين جسدي بعد الآن.

الشطرنج بوابة إلى عالم جديد، عالم فيه العقل هو السلاح، والفكر هو الطريق إلى النصر. لأول مرة تيقنت بأنني قادر على الانطلاق وعلى الفوز، على أن أكون أكثر من مجرد جسد عاجز. بداية تحول في حياتي من الانحباس إلى الانطلاق، ومن اليأس إلى الأمل.

تزاحمت في ذاكرتي الأسماء والحركات والخطط، لأميّز بين الملك والوزير، وأفهم قفزة الحصان، وهل تصمد القلعة أمام الفيل؟ ولماذا تقتل البيادق الضعيفة لحماية الملك والوزير القويين؟!

لم أكن أدرك قبل ذلك أنه يمكنك أن تصبح بطلاً بمجرد أن تتحرك قليلاً من مكانك فتصنع نصراً. أن تنتقل من المربع الأسود إلى الأبيض، كمن ينتقل من الظلام إلى النور. أن تتزحزح رويداً وتجتاز الخطَّ الفاصل بين المستحيل والممكن. ودون سبب محدد لازمني أبي في اللعب. هناك شيء ما يدفعه، شيء يستطيع الأحياء فعله من أجل الموتى.

صرت أسيراً للعبة على مدى أشهر متتابعة. تلك الأيام بثت فيَّ الحياة من جديد، فقد بُعثتُ مقاتلاً لا معاقاً.

هناك شيء يحتشد في مخيلتي من فنون المناورة والانتقال بين الحياة والموت. اللعبة غذت شجاعتي، وقناعة بأنني قد أموت بطريقة أكثر عبثية من البيادق، وأكثر سخافة من الفيل الضخم. وقد أعيش ليفعل عقلي شيئاً سليماً بعيداً عن جسدي ونيابة عنه.

لقد بدا العالم المتقاتل على تلك الرقعة الورقية قوياً، ورغم هشاشة إمكانياته وقلّة جنوده، فإن الغلبة فيه لمن ينظر جيداً في محيطه، ويخطط بدقة لحركاته، وينتقل ببطء وثبات، يجب أن تكون أسرع من ثعلب سيختطف دجاجة من قنِّها.

في كل حركة أقوم بها أشعر بتحدي قدراتي، أتحدى ذلك الجسد الذي ظلَّ لسنوات سجني. الشطرنج علمني أن النصر ليس دائماً للقوي جسدياً، بل لمن يستخدم عقله بحكمة وصبر. وأنا تدربت على الصبر جيداً طوال عشرين سنة. أتحرك على الرقعة وأتحرر من قيودي، وأجد طريقاً جديداً للحياة، غابت عني صرخة اليأس المعتادة التي أطلقها لاستجداء عطف أمي، وحلَّت مكانها صرخة النصر التي أهتف بها في وجه شجاعة وصبر أبي. تحولت الجلسات بيننا إلى نزال حقيقي، وجولات قتالية لا حصر لها، كلُّ حركة فيها تحمل تحدياً، وكلُّ خطوة تقربني أكثر من فهم معنى الحياةِ الحقيقية.

أدركت أنني لا أحلم عندما بدأ الأقارب وبعض الجيران والأصدقاء يحتفلون بنصري. يجلسون حول الرقعة، يخوضون معي أشواطاً قتالية متفرقة، كلُّ واحد منهم يحمل في عينيه نظرة التحدي والإعجاب.

نعم، هُزمتُ مرات كثيرة، لكنني أيضاً انتصرت. وصوت النصر دائماً يفوق مرارة الهزيمة، وفي صدري هناك شيء يشتعل يرفض العودة إلى الماضي. روح معنوية عالية يصعب إخفاؤها، وابتسامة ترتسم على شفتيَّ كلما انتقلت من غرفتي إلى الردهة، أخطو نحو عالمي الجديد. كلما تغلبت قطعة على أخرى، شعرت بأنني أتغلب على جزء من اليأس الذي يخيم عليّ.

كلماتي مرحة مليئة بالثقة كلما امتدت يدي لمساعدة أحد البيادق وإنقاذه من موت محقق. لست مجرد لاعب، بل قائد يحاول إنقاذ جنوده من الهلاك. أدركت أن المستحيل لا مكان له في حياة من يمتلك الإرادة.

وفي آذار مع ساعة شمس ربيعية تهفو فيها النفس لتذكرني بعمر الشتاء الذي مضى، عمر ليس لي الحق في استرجاعه. سارت بنا السيارة بين الأزهار المتفتحة، والطبيعة نفسها تبتسم لنا. أخبرني أبي أن نادي البلدة يقيم مسابقة في لعبة الشطرنج، ويدعونني للمشاركة.

أصغي إليه وتغشى وجهي قتامة ظل على بقعة أرض ما زال الشتاء يغزوها. رهبة غير المألوف، ورهبة الكلام والمكان والزمان.

- هل يكون هناك حظ لهذا الجسد العاثر؟

سؤال دار في خلدي والشريط الطويل للمكان يمتدُّ أمامنا. تجاوزنا مفترق الحي ودخلنا ساحة مبنى كبيراً تلتفُّ حوله الأشجار. محارة تنغلق على ذاتها. أغوص في غابة صغيرة باحثاً عن لؤلؤة في أعماقها. انفعالاتي مشحونة بإحساس غريب، هارب من رعب إلى آخر. آنست وجوهاً تطلُّ من بين الأغصان، وخلفها نافذة تشبه قفصاً من حديد. ظللت متوتراً حتى وصلنا الباب الخشبيَّ بجناحيه الكبيرين، اللذان يصرخان من صدأ الأيام. فُتح لنا البابُ بترحاب، ترددت عند عتبته في حالة حيرة، وعيوني تستنجد بعيون أبي المشتاقة للدخول.

- لننزل...

قالها أبي بثقة وجرَّ عربتي إلى مدخل المبنى عبرِ ممر مخصص. ألتصق بعربتي ويعتريني خوف كامن، خوف من أن يتخلى عني أبي ويودعني ملجأً في تلك الغابة بعد هزيمتي في الحياة. أغلقت عينيّ وتحرّرت من جسدي الثقيل، وصعدت إلى عالم الأحياء حيث الحياة تنبض في كل زاوية.

استقبلتنا رائحة القهوة تختلط بنفحات عطر أحد الحكام الذي مرّ بجانبي. طاولات الشطرنج المصطفة تلمّع بقطعة قماش، فانبعثت رائحة الخشب مع كل مسحة. عبر الضجيج التقطت همسات اللاعبين:

- "انتبه للفيل"، "هذه النقلة ستقتلك!

وكانت قطع الشطرنج تُرتب على اللوحات فتصدر خشخشة إيقاعية صغيرة. من النافذة المفتوحة تسللت نسمة باردة تحمل معها عبق الربيع الأول، فتنفستها بعمق لتعيد إليّ شيئاً ضائعاً. بين الروائح والأصوات والهمسات، شعرت بأنني أعيش أكثر من أي وقت مضى. الكرسي المتحرك لم يعد قيداً، صار منصة لمشاهدة الحياة وهي تتكشف أمامي برائحتها الزكية، وحركتها الدؤوبة، وتفاصيلها الصغيرة التي تمس الروح قبل الجسد.

المسابقة على وشك البدء، وأنا هنا جزء من هذا العالم النابض، أتنفس رائحة الحياة التي لا تحتاج إلى قدمين لتجري بها.

استمر أبي في حديثه المشجع دون ملل أو انقطاع، يحاول التقاط شرارة من أعماقي، ذلك الشيء الذي احتفظت به منذ كنت طفلاً صغيراً. نظراته الدافئة تزيح عنّي هواجس الماضي، يدور حولي ويَلتفُّ من كل اتجاه وشمسه لا تغيب.

أما أنا أراقب المكان وأغرق في ضجيج الحفاوة المحيطة بي. أصوات التحيَّات والضحكات تصل إلى أذنيَّ، لكنّني لا أستجيب كما يفعل الآخرون. غريب في هذا العالم الذي بدأ يفتح أبوابه أمامي. ومع ذلك لمست شيئاً غريباً في صدري.

- أهو الأمل؟

لأول مرَّةٍ منذ سنوات شعرت أنني على وشك اكتشاف جزء من نفسي كان مختبئاً في الظلام، قطعة شطرنج نادرة طويت داخل الصندوق ونسيها اللاعبون. لم تكن مجرَّد بداية مسابقة، كانت رحلة من العزلة إلى الانفتاح، ومن اليأس إلى المنافسة، لست وحدي فالعالم مكان أكبر من جدران غرفتي، وأرحب من كرسيّي المتحرِّك.

تَقدَّمت نحو الطاولة المخصَّصة لي، ورقعة الشطرنج الخزفية تلمع تحت الضوء، تعلن نصراً لم يحدث بعد، أو تحاول تبديد نظرات الشك الحارقة التي تحوم حولي. كنت على وشك أن أفقد رباطة جأشي، وظننت أنني مهزوم لا محالة. لكنَّ شيئاً ما بدأ يتغير عندما جلست "شيماء" أمامي لتخوض معي أولى معاركي.

عندما التقت عيوني بعيونها، شعرت بأن للحياة سحراً ما زال يفعل فعله. شيماء صماء لا تسمع كلماتي، ولا تتحدث إلا بابتسامتها وشفتيها، ترسم بيديها وأصابعها لوحة من الكلام يعجز الفنانون عن تلوينها. لغتها الخاصة بين الصمت واللمس بيننا نهر ينساب بهدوء، فيه أسراراً لا تقال. تساءلت في نفسي:

- ما نوع الحياة التي سأعيشها الآن؟

لكنني وبكل صراحة أشعر بفزع من هذا الحماس الجديد. أخشى أن أسقط مرة أخرى من أعلى الحياة إلى قاعها. لكن هل ستطول اللحظة التي اتخذ فيها وجهي شكلاً آخر؟

بدأنا اللعب، وكلُّ حركة تحدّياً جديداً. عيون أبي وابتسامته تتحرك مع حركاتي، تصمت أحياناً وتهتزُّ أحياناً أخرى، تضبط إيقاعاً خفيّاً. وأتساءل في سريرتي:

- هل أخجل من شعور الشفقة على شيماء، أم على نفسي؟

وسرعان ما أدركت أن الشفقة ليست هي الشعور الذي يربطنا. شيماء برغم صمتها أقوى من أن تشفق عليها. تنظر إليَّ بتحد، وتقول لي:

- هيا لنلعب، ولنرى من المنتصر.

في تلك المنافسة شعرت بأنني لست وحدي. فشيماء بابتسامتها الصامتة، تذكرني بأن الحياة لا تقاس بالكلمات، بل باللحظات التي نعيشها معاً. شعرت أننا قضينا مئات الدقائق نتحدث دون صوت، الكلمات تتبادل بيننا عبر نظرات خاطفة وابتسامات. لم يفقد أحد منا إيمانه بالحياة أو بالنصر، نتسلق معاً منحدراً طينياً زلقاً، متمسكين بصمتنا الذي كان أقوى من أي كلام. نظرات عيونها سهام تخترق قلبي وتُذكِّرني بأنني قد أخسر في جولة ما، لكنني مستعد لهذه الهزيمة لأنها تأتي منها.

أخسر بيادقي واحداً تلو الآخر، وشيماء تجيد الهجوم. تنسج خططاً لا ترى إلا عندما تتحقق. انتشرت رائحة الموت على الرقعة عندما قتل الوزير، وخيولها تدوس الفيلة بلا رحمة. واختفى الملك في النهاية خلف آخر قلاعه، يختبئ من مصير لا مفرَّ منه. عند هذه النقطة أصبح واضحاً لي مغزى الانتصار. فما يبدو لنا هزيمة يكون في أخرى انتصاراً لمن نحب.

لم يكن سهلاً شرح ما حدث، كنت فائزاً رغم هزيمتي. تلك الأوجاع التي شعرت بها غير متصلة ظاهرياً بجسدي، لكن قلبي قد فاز في جولة من الحياة. تمنيت أن تدوم لحظات هزيمتي، وأن تتلكأ في ابتعادها، لأنها لم تكن طريقة سيئة للبداية. الهزيمة طريق يتسع لنا لنعيش فوق حطام الحياة، كما اتسع قلبي لتقبل حطام جيشي وهزيمتي الأولى أمامها. أحياناً يعالج الحطام بالحطام.

احمرَّتْ وجنتاها عندما أعلن الحكم نصرها، ورغم حرجي لسماعي ذلك، اجتاحتني أحاسيس الطفولة بالرضا والسعادة. أشعر نفسي أهدي وردة مخملية لصديقتي في الروضة. لحظة مليئة بالتناقضات، هزيمة على الرقعة وانتصار في القلب.

ابتسم أبي تلك الابتسامة العجيبة التي أعرفها جيداً، والتي تخفي وراءها خططاً محكمة وأسراراً لم تكشف بعد. قال: يبدو أنكما تعرفتما جيداً.

نبرته تحمل شيئاً من الرضا الغامض، تشير إلى نجاح خطة دبّرها في الخفاء. يجلس بين الحضور زعيم حكيم، حاضر بجسده لكنه أكبر من المكان نفسه. ينسج الأقدار ويضع الناس في طريق بعضهم، يجعل النَّاس يواجهون قدرهم وحدهم. ثم يتراجع إلى الخلفية ليراقب المشهد بصفاء. لا يتدخل أكثر من اللازم، شعرت بأن كل تفصيل صغير قد مرّ بين يديه قبل أن يحدث. لوهلة التقطت نظرة شيماء وهي ترمقه بدهشة ثم تنظر إليّ، تدرك أن هذا اللقاء لم يكن صدفة. كان هو الخيط الخفي الذي جمعنا، الراعي الصامت لرحلتنا.

والآن بعد أن التقينا، وبعد أن تبادلنا الضحكات، شعرت بأن شيئاً مكسوراً بداخلي بدأ يلتئم. فهمت لماذا كان أبي يبتسم بهذه الطريقة. كان يعرف دائماً ما يعرف، متى يكون الصمت أقوى من الكلام، ومتى تكون اللقاءات البسيطة هي بدايات الأعاجيب.

انطلقنا نحو البيت والسيارة تبتلع الطريق خلفنا، ويختفي شريط من الذكريات الجديدة. عبر النافذة المفتوحة دخل الهواء حاملاً معه همسات الليل الدافئة، ليروي لي حكاية عن معنى الحياة، بأنها ليست مساراً مستقيماً بين نقطتين، هي نهر عظيم يجري بقوة. نهر يلمع تحت ضوء القمر، ويلتقي بضفتيه العتيدتين: أبي الذي ظلّ شجرة عملاقة تمتد جذورها في أعماق الأرض لتحميني من العواصف، وشيماء الضفة الصامتة الصلبة، التي تمنحني مساحة لأتدفق دون أن أخاف من الضياع.

مررنا بشارع مضاء بمصابيح برتقالية، فشعرت نفسي ذلك النهر الذي اكتشف أنه ليس وحيداً. فالتوجسات القديمة التي لازمتني سنوات بدت الآن أمواج صغيرة تلاطم ضفافي ثم تتراجع منهكة مهزومة.

في المقعد الخلفي أغمضت عينيّ وأنا أسمع صوت أبي يهمهم بأغنية قديمة، وشيماء تمسك بيد النافذة لتصافح الريح. وهكذا استمررنا في السير. أنا والنهر الذي بداخلي، والضفتان اللتان التفتا حول قلبي فجعلتا من رحلتي وطناً. فالنصر ليس في الوصول، بل في أن تجري وتعرف أن هناك ضفتين لن تسمحا لك بالجفاف أبداً.

الخيمة: (99)

يبدو المخيم للغريب مجرد بيوت متلاصقة وأزقة ضيقة، لكنه لأهله شيء آخر تماماً. كل حجر فيه يحمل أثراً، وكل جدار يخفي حكاية، وكل اسم محفور في ذاكرته يشهد على أناس رفضوا أن يتحول المنفى إلى قدر دائم.

ولهذا فإن من يدخل مخيم الجلزون لا يخرج منه كما دخل. فهنا تتسلل الحكايات إلى القلب دون استئذان، وتصبح الوجوه جزءاً من الذاكرة، ويغدو الطريق بين الأزقة طريقاً أطول بكثير من حدود المخيم نفسها. طريقاً يمتد عبر السنين ولا ينتهي إلا هناك. حيث تنتظر أشجار الزيتون أصحابها منذ الرحيل الأول.

كان كانون يشتعل كل عام في مخيم الجلزون بطريقة مختلفة. لم تكن النار المشتعلة في البراميل وحدها ما يبدد برد الشتاء، ذلك الشعور الخفي الذي يسري بين البيوت والأزقة، فالأرض نفسها تستيقظ من سباتها الطويل.

كان المخيم منخفضاً في الجغرافيا، محاصراً بالفقر وضيق الحال، لكن شيئاً فيه ظل يرفض الانحناء. فالسيول التي حفرت هذه الأرض الوعرة تركت في أهلها رسالة تقول لهم: أنتم لم تُخلقوا لهذا البؤس. أنتم أبناء طريق أطول من المخيم، وأوسع من المنفى، طريق ما زال يمتد هناك نحو البداية الأولى.

وقفت أمام صورة تتنفس، "مُغرّاة" بعناية. كانت صورة الشهيد (أمين) الذي "ارتقى" – كما يدعون – في زنزانة لا يعرفها إلا الموتى. ألوانها الباهتة تشيخ كل يوم، لكن عينيه ما زالتا تضيئان. وكنزته الصوفية المخطَّطة تحاكيه، وأم حزينة تحتضنه، وأصابعه المتيبسة تخبرها أن البرد لم يترك جسده بعد. ربما لأن بعض الأجساد لا تدفأ إلا تحت الأرض. همست وأنا وأخشى أن أخطئ التعبير:

- لن يفهم قسوة الاحتلال إلا من مزقت قدماه حصى الخيمة في النكبة، أو من صار سجيناً بين جدران زنزانتين، إحداهما من أسمنت، والأخرى من صمت العالم.

قبل أن يبلغ النهار منتصفه، اقتحمت مركبات عسكرية المخيم. لحظات الفرح التي تلوح في الأفق اختفت محاصرة بين غيوم الغاز النفاثة التي تخنق الأنفاس. أزيز الرصاص المتناثر يرتفع وينخفض، أنين مرعب مع الركض، وأصوات قنابل الصوت المدوية تضيء السماء ببريق يخطف الأبصار. عيوننا أصبحت منتفخة كالبرقوق المنفجر، وصدورنا تئن بقهر لا يطاق.

ركضت مع الجميع لنحتمي في زقاق "أبو أنور النجار"، ذلك الزقاق الضيق ملاذنا في لحظات الخطر. وجدت نفسي محاصراً بين ضوءين زاحفين يلاحقانني، يشقان غيمة الغاز الكثيفة، عينا ثعلب ماكر ينقض عليَّ بلا رحمة، فقد سقطت في الفخ.

اختفى الزقاق واختفت نداءات الأصدقاء بالتحذير، لم يبق في وجهي المغطى معصوب العينين سوى عتمة الليل التي تلف كل شيء حولي. ظللت واقفاً وهراواتهم تحاول هدم جبل من لحم وعظم ليركع لهم، ورغم الهراوات التي تهاجمني لتهدم كل ما في، إلا أن الصبر والقوة تنهال عليك، ومعها دعوات الوالدين المخبأة.

مركباتهم غطت على أصوات المخيم، وحولتنا إلى كائنات عاجزة، لا نملك سوى الحجارة سلاحنا الأخير.

أعلم أنني سأنتصر حتى في قبضتهم. وبعد لحظات طويلة من الانتظار، سمعت أصواتاً خشنة تدفعني:

- انزل، يلّا... يلّا.

كل كلمة تضرب على قلبي، أعلم أن الصمود هو انتصار، حتى لو كان صامتاً. ركلني أحدهم بحقد إلى جوف زنزانة ضيقة، تتنفس جدرانها العفن والرطوبة، بدت قبراً حياً بلا جثة.

في زاوية مظلمة يتكوّم شاب آخر، حاول النهوض لكن بِنطاله رفض البقاء حول خصره الناحل، ليذكره بجسده الذي أذابه العذاب. عيناه تلمعان تحكيان قصة إنسان حرم من كل شيء، حتى من كرامته.

سقطت بجانبه مغشياً عليَّ من الألم والإعياء. عندما استيقظت وجدته يتحسّس طعام العشاء في الظلام بيدين مهشمتين، يبحث عن بقايا أمل في صحن مليء باليأس. يطرد بضع صراصير تجرأت على مشاركته وجبته الوحيدة، كمية ضئيلة من الأرز اليابس الذي بدا بقايا طعام نُسي منذ زمن. فدفع الصحن ليقدم الطعام لمن لا يستطيع أكله، ثم همس بصوت مكسور:

- لقد أكلت منه العصافير. والقطط سرقت قطعة الدُّهن التي تُسمَّى لحماً. هذا ما تبقى.

صوته يحمل مرارة إنسان أُهينت إنسانيته، فالزنزانة لم تكن سجناً لجسده، بل سجناً لكرامته وأحلامه. كل كلمة نطقها تشي بظلم لا يحتمل، وقهر لا يوصف. شكرته على حماية طعامي من الغزاة وقدمته له، فالبؤْس الذي يقتات علينا لا يسمح لي بتناوله، وسألته:

- أين المرحاض؟

تبسَّم، أو هكذا تخيلته في الظلمة، أوْمَأ برأسه إلى الطرف المقابل، فيه "بطَّانيَّة" رثَّة تستر دلواً أسود كبيراً، وقال بِتهكُّم: "الجَرْدَل"!

فهمت قصده، تواريت خلف البطانيَّة لقضاء حاجتي، كان عليَّ أن أنحني بتوازن فيزيائيّ لم أتعلمه في المدرسة، أو في الحياة التي عشتها، فأي حركة خاطئة ستكون نتائجها وخيمة علينا، انكمشت في الزاوية أراقب ذلك الشاب، فإذا به يحوّل لباسه الداخلي إلى ضمادة، وأحياناً منشفة لوجهه، والكوب البلاستيكي لشرب الشّاي والماء، وللوضوء، فسألته:

- أين نحن؟

نظر في المحيط، يحاول أن يجد مَعْلَماً ما ليدلني، أشار إلى سماكة الجدران، ونافذة الزنزانة. عين "سَقْطَرِيَّةٌ" ترقبنا بقبحها، قضبانها بارزة تنهش حتى ظل كل من يقترب منها. ومنحوتات كثيرة هنا وهناك لمن سبقونا، مكتظة بأسماء وتواريخ ومعلومات متشابكة. ثم تمتم في ألم:

- سجن الفارعة. ـ ثم انكفأ ونظر إلى الباب وتراجع عن كلامه- مسلخ الفارعة، في مركز التحقيق (الإِسْطَبل).

بدأت أقرأ العبارات المحفورة على الجدران بما توفَّر من ضوء، وجفوني تَـخْتَـلج الحائط الأول، واسترعى انتباهي منها: "هدني التعب والشبح..."، وكلام غير مفهوم، وأخرى "يترحم على أبيه لأنَّه لم يشارك في جنازته"، وآخر يقول: "عذاب لا يزول. أشعر بالبرد"، وتحتها خرابيش متداخلة، ومن بينها اسم غير واضح. فلم أعر الأمر اهتماماً في البداية، فالأسماء والتواريخ بالمئات، تتراصُّ في جداول عدديّة كإحصاءات انتخابية.

تنفَّس الصباح من الشقوق، ولم يعد بإمكاني أن أتذكر ما أحسست به الليلة الماضية، فقد فشلت في تصور التجربة التي أعيشها، فما أعيشه يجمع بين السخرية والحرج، والترقب والقلق، ما شاهدته فاق خيالي وتصوراتي عما كنت أسمعه، فالمكان هنا يخبرك بقصته مباشرة دون انتظار لتستقصي، بل يضعك في قلب الحدث، وعليك أن تكون لمَّاحاً بقدر ما تستطيع، يجعلك المكان صاحب رأس عنيد في مواجهة كل ذلك، فقلت لرفيقي:

- لا ذنب للأرض التي تحتضن السجن، فهي مثلنا أسيرة.
- فقال لي: إن ضاق بنا المكان. فما ذنب التراب الفلسطيني الذي دفنت حريته قبل أبنائه؟

تنفَّست من تسرُّب الهواء في زنزانتي، شربت من نَـزِّ حنفيَّـتها، وتكوَّرت في طرفها فوق فرشة من سالف الزمن، اخترت أوقاتاً للراحة، واستِراق صوت الأَذان من بين صرخات المعتقلين وتكبيراتهم التي يتردد صداها في كل مكان، انتقلت إلى حياة مختلفة بكل تفاصيلها، تبعث الرَّعْدَةَ في جسمي. جسدي حار يشارك آب في لهيبه، أدركت حينها أن البرد يتغلغل في عظامي، والحمى تحتل مفاصلي كما احتلُّوا جسدي.

في صباح يوم آخر، وقف أحدهم إزائي، وعلى حين غرّة جذبني من شعري، نزعني من مكاني، فانعكَسَتْ صورتي في عينينِ مُتبَلِّدتين تذوبان من فَرْطِ الحقد، لأرى نفسي مجدَّداً منذ شهر ويزيد، دون جزع أو خوف، فقد نكأ جرحاً قديماً، فشعرت أن شيئاً فقِد من وجهي فيهما، طرحني في مكان مثل ثلاجة الموتى، وأَمرني بالاستحمام، وبسخرية قال:

- عند انتهائي من العد إلى العشرة. يجب أن تنتهي.

لم أعرف ما يرمي إليه. هل انتهي من الاستحمام؟! أم هنا سينتهي أجلي وأتحول إلى جثة مرقومة، انتهزت الفرصة لأبلل شعري عند الأربعة، توضأت عند التسعة، وساقاي ترتعشان من فرط البرد، ثم جرني إلى معبر مقابل في طرفه ممر آخر، يتكوم فيه السجناء فوق كراسي أطفال، أنَّاتهم أعلى من طنين النحل، تنتقل في الأرجاء، وفيه غرف لا يخرج منها سوى صوت الصياح والشتائم، وتقابلها الحوقلة والاحتساب.

خزانات حديدية أصغر من القبور وضعت لحودها في الشمس، يطرق من فيها الأبواب طلباً للهواء، وآخرون معلقون في ناحية الساحة، فأدخلني إحدى الخزانات وهو يصرخ: الموت للعرب، موتوا هون.

ما هي إلا دقائق حتى شعرت بصراخ في رأسي، كأن كل من وُئِدَ حياً في التاريخ الغابر ينادي ويسترحم، بقيت فيها حتى الغَبَش من الليل، فلمحت كتابات أخرى محفورة فيها، وكان منها: "عذاب لا يزول. أشعر بالبرد. لقد فتتوا عظام صدري.."

تكررت العبارة تارة أخرى يبدو للمعتقل نفسه، ثم أدخلني غرفة فيها محقق مثل كومة شحم منْتَفِخ الأوداج، شَفَتُه العليا ينقصها قطعة لحم، يظهر أحد أسنانه من ثغرة فيها، ذكرني بمصارع "سومو". يأكل الفستق بشراهة، يبصق بعضه في وجهي دون أن يتحدث، فمرت جولة المصارعة التي حاول فيها أن يخرجني من دائرة الآدميَّة دون إنجاز له يذكر. ثم اتَّكأ بمرفقيه على المكتب، ودفن وجهه بين يديه، وبصوت مبحوح فيه نحيب غريب، قال:

- إنها من حجر أصابني في مخيمكم، أخذت بثأري من أحدكم لاحقاً.

خاب رجاؤه في نَـزْعِ اعترافي، وانقضت عدة أسابيع من القهر والمشقة، فتحول اسمي إلى رقم من أربع خانات، متنقلاً بين الزنازين والمحاكم وجولات التحقيق.

الإنسانيَّة الكاذبة هنا، جنديٌّ يعالج "بالأكامولِ" والماء أمراض البشرية، وأمراض أخرى تعالج بالاستهزاء، نقف أمامه صباحاً، فيُظْهِر نفسَه قديساً، ليخاطبنا بعينيّه المستفهمة: هل ما زِلْتُم صامدين؟! لن يطول ذلك.

أعيش في دوامة الذكريات المتشابكة، لكن شيئاً منها لا يقاس بقسوة ذكرى ‹البوسطة›. ذلك التابوت المتحرك الذي يسرق منك حتى حقك في الخوف. صندوق معدني بلا نافذة ولا متنفس، تختنق فيه أنفاس العزلة والقيود. الأصفاد تنهش معصميك وقدميك، والعصابة على عينيك تجعل الظلمة زمناً آخر مراً تبتلعه بلا ماء.

الكرسي المعدني الذي نُزِعت إسفنجته عمداً ليكون جلاداً آخر. يغرز في لحمك سكاكين باردة، حتى تشعر أن عظم العَجُزِ قد صار وريداً مفتوحاً. والرحلة لمن يسأل؟

يوم أو يومان بلا حركة وبلا ماء أو طعام، بلا مرحاض، بلا كرامة. جثة تجوب شوارع الوطن المحتل، يبحثون لها عن قبر، تنتظر الدفن في "بُرش" من ألواح خشبية متعفنة يسكنها البق والقمل، ولا تجد من يدفنها.

حتى السجانون يتحولون إلى وحوش أكثر افتراساً، فضيق المكان يجعل قسوتهم أشبه بالاختناق. ولحظة نزع الأصفاد بعد النزول ليست حرية. بل إدراك مر أن الهوان الجديد ينتظرك خارج التابوت.

المصاعب التي تلتها بدت تافهة مقارنة بتلك اللحظة التي شعرت فيها بالضياع. ما زال الإحساس بالضجة السخيفة عالقاً في ذهني، فقط لأنني من مخيم ينظر إليه بعين الريبة والشك. حتى تلك الحادثة البسيطة، حين انتزعت قطعة لحم من شفة أحدهم، أصبحت جريمة تلاحقني لأنني من المخيم نفسه.

لم تتبخر الكتابات المحفورة على جدران الزنازين والخزانات من ذاكرتي، بل بقيت ندوباً في عقلي، تذكرني بكل لحظة ألم عشتها. وصدى صوت المحقق الذي هددني بالثأر ما زال يطن في أذني، شبح لا يتركني أبداً.

دخلت قاعة محكمة بعد شهر. يتربع القاضي على كرسيه، وينظر إليَّ من عليائه بعيني غطرسة وكبرياء. صوته يقطر استهزاء حين نطق اسمي لأول مرة:

- نعم أنا هنا...

فقد كنت مجرد رقم في سجل لا يعنيه. ثم قال بتعال: "أنت تعمل ضد دولتنا، وتقوم بتخريب السلام بيننا"

تدحرجت كلمة "السلام" على شفتيه بحروف مسمومة، تذكرت بها طفلة صغيرة أحبها تناديني "عمي" بينما والدها عانى الأمرين في زنازينهم. فرفعت رأسي نحو القاضي. الجلاد الذي يرتدي رداء العدالة فوق جبة الاحتلال، وسألته بصوت مع صليل الأصفاد:

- أي سلام هذا الذي تقدمونه لنا؟ سلام المقصلة؟ سلام القبور المرقومة؟ سلام يزرع بلا بذور فوق أنقاض بيوتنا المهجرة، ويسقى بدموع الأرامل؟

نظرت إلى عينيه الزائغتين. عينان لا تريان إلا خرائط المستوطنات، ولا تقرآن إلا قوانينهم المزورة. حاولت أن أشرح له أن العد التنازلي بدأ منذ النكبة، منذ أن سرقوا حجارة بيوتنا ليبني بها سجانهم هذا الكرسي الذي يجلس عليه الآن. لكن كلماتي تسقط وحبات المطر خارج القاعة على زجاج نوافذ سجنهم المسدود.

- على أيّ قانون تحاكمونني؟

سألته وأنا أحدق في شعار "العدالة" المعلق خلفه، والذي يحمل صورة بندقيتهم تحت غصن زيتون.

- أعطني محكمة لا تجلس على كرسي من عظام أجدادي، أعطني قاضياً لم يسرق طفولتي من حقيبة مدرستي، عندها سنتحدث عن السلام.

الفهم عديم الجدوى هنا. فما قيمة الكلمات أمام رجل يمسك بيده القانون، وبالأخرى مفاتيح زنازيننا؟ إنه يوزع الأحكام كما يوزع جنوده على حواجزهم. فالعدالة عنده هي أن تقف أمامه مكبلاً لتسمع كيف سيحول دموع أمك إلى "أعمال شغب"، وأصوات أطفالك إلى "تهديدات أمنية"

بينما يرفع مطرقته ليصدر الحكم، رأيت وجه أبي المتوفى يطل من النافذة. يهمس لي: "لا تخف، فالحكم الحقيقي سيكتب يوم تحاكم فيه جرائمهم لا مقاومتنا، يوم يقفون حيث تقف الآن، ويسألون عن كل حجر سرقوه، ودم سفكوه."

يمسك بأطراف أوراق بلا مبالاة، يفتش عن اتهامات أخرى ليثقل كاهلي بها. فقلت له بصراحة:

- لن نشكو إليك، فمن صنع نكبتنا لن تعجزه الخديعة باسمها الجديد. لقد صرنا نحترق بحقوقنا، ونموت من أجلها. وسلامك هذا ليس سوى صنم سيء الصنع، يتجسد فيه كفركم وظلمكم بلا تورية.

لم يلق بالاً لحديثي، وكلماتي تهب في فراغ لا صدى له. وأكملت:

- وسلام من اتفق معكم بلية فظيعة، أكلت الشجر والحجر والإنسان، وما كان إلا استكمالاً لنكستنا.

وقفت بلا خوف ولا هزيمة مستمعاً إلى حكمه. أخرج ورقة مطبوعة، "روشتة" جاهزة، وقال ببرود:

- سنة، وغرامة.

شعرت بصدمة غريبة حين نطق بالحكم، قاض يقرأ من "سيناريو" مكتوب مسبقاً. أشك أن ما يدور في عقله يختلف تماماً عما قاله، لكنه جعل الحقيقة تبدو أوضح في تفكيري، وقلت لرفيقي في الزنزانة:

- لقد فهمت كل شيء، إنهم ما زالوا يحاولون احتلالنا حتى الآن، ليس بأسلحة أو جنود، بل بقضاء ظالم، وقاض لا يعرف للقانون أو للأخلاق معنى.

قادتني عصابة نحو الخيام، إحداها معزولة، فتَّش أحدهم في مفاتيحه لعله يجد مِفتاحاً ليضعني في تلك المعضلة. وعندما دخلت ساحتها، بدأت تنهشني أسلاكها الشائكة من أطرافها الضيقة، فسألت نفسي:

- هل قدر اللاجئ أن يعيش والداه في خيام النكبة، ويعيش أبناؤهم في خيام السجن؟

الرقم (99) محفور فوق الباب بطلاء أحمر، ندبة نزفت يوماً ثم جفت. تذكرت صوت جدي وهو يروي كيف حملوا خيام الهجرة على ظهورهم تسعة وتسعين يوماً بعد النكبة، وكيف تحولت الخيام إلى جدران من الطين، محطات انتظار للعودة التي تأخرت عن الموعد.

والآن ها أنا أرث الانتظار نفسه، لكن بين جدران من الأسلاك الشائكة. الرقم تسعة وتسعون يصرخ في وجهي بتفاصيل لا تحصى، تسعة وتسعون شهيداً سقطوا في صباح واحد، تسع وتسعون قصيدة كتبها أبي على "كواشين الأرض"، تسع وتسعون جرحاً في ذاكرة الأرض التي لم نعد نراها إلا في أحلام الصغار. لكنها هذه المرة لم تكن خيمة انتظار، بل قفصاً من حديد.

(99) الصفحة الأخيرة قبل نهاية الكتاب، اللحظة التي تسبق اليأس الكامل، النقطة التي تسبق انغلاق الباب نهائياً، وفي الظلام تذكرت أنّ لله تسعة وتسعين اسماً. أترى يعلم السجان أن هذه الخيمة الضيقة تشهد عليها جميعاً؟

فهو الرحمن الذي يلفنا بعطفه في ليالي الشتاء القاسية، والجبار الذي يحطم أقفال الزنازين بإرادته وحده، والرحيم الذي يمسح دموع أمي على بعد المسافات، والمنتقم الذي يعد العدّة للقاء الظالمين. لا ريب عندي في هذا.

فهل يكون في هذا الرقم سر إلهي؟ هل جعل الله من التسعة والتسعين مفتاحاً للخلاص؟ أم أنها دعوة للصبر حتى يأتي الفرج؟

هكذا همست وأنا أتشبث بأسماء الله كما يتشبث الغريق بحبل نجاة. فكل اسم منها سفينة نوح، وكل صفة منها درع يحمينا. وستبقى الخيمة شاهداً على أن من تمسك بحبل الله فلن يضيع أبداً، وأن الظلم مهما طال فهو إلى زوال.

هنا في الخيمة الأسلاك تأكل لحمي كما أكل الزمن أحلام المخيم، إنها الغربة نفسها، فكل خيمة في حياتنا وضعت فوق جرح، وكل مِفتاح ضاع منا مرتين: مرة حين أغلق الباب في وجه الجد، ومرة حين ولدت أنا وفي يدي القيد بدل المفتاح.

بالقرب من القسم (أ)، يجلس في برج المراقبة مواجهاً لها جندي أصْهَب الوجه، غشيني شعور أنه تمنى الانتحار قبل أن يصل إلى سن الرشد ولم يفلح، عاش خلياً حتى وصل الأربعين، ولو أمكنه محو السماء من فوقنا لفعل، تحته كلب ينبح، وجندي آخر في عينه مسحة بيضاء يغلقها على قذاها، يحرس الأسلاك ليمنعنا من ملاقاة الحياة.

دخلت الخيمة بتريُّث، وإطْراق عيوني في جنباتها. مظلمة وكئيبة، وقفت عاجزاً، حتى تقدم أحد بابتسامة واهنة، وبعد تحيات عابرة، علمت أنه (أبو حاتم)، في آخر الأربعين من عمره، دبَّ فيه المشيب قبل الأوان، فسألته:

- أين أنا؟

بدا السؤال غريباً بعد رؤية ملامح وجهه، بعيداً كل البعد عن جميع مشاهداتي، فأَنا في السجن، فلماذا أسأل؟

- أنت في الخيمة (99) من خيام سجن الفارعة.

لا أعلم لماذا شعرت بالراحة والاسترخاء. بعيدٌ عن كل التعب، رحت أتبين ملامح المكان، أتفحص زواياه مثل بناء يعاين ورشته الصغيرة، واستأنف الرجل كلامه:

- إنها خيمة خاصة لمن يعملون في السجن، وبعض المرضى.

تراجع إلى داخل الخيمة ليكمل اتكاءه مستغرقاً في مطالعة صحيفة أخبارها وطعام السجن البائت لا يختلفان، وأسمع صوت اصطكاك أسنانه من حبة "ملبس" يقلبها في فمه لتذوب ببطء كما نذوب نحن، فسألته عن المرحاض، ومكان الاستحمام، قال:

- في الخارج، خلف مربع البطانيات، أما الاستحمام، فعليك أن تنتظر.

كان "جردل" آخر، لكنه هذه المرة في الهواء الطلق، تشعر أنك تجلس فوق فوهة بركان، دخلت الخيمة، خلعت بعض ملابسي لأستبدلها بشيء تركه أحدهم فيها، على العمود كنزة صوفية مخططة شبه ممزقة، خيل لي أنني رأيتها من قبل، فكرت في تسخين الماء؛ لأنظف جسدي، غير أنني تخليت عن الفكرة، وفقدت الدافع لذلك، ولم أجد شيئاً استخدمه سوى نصيحة أبي حاتم بالانتظار، وأعدت الكنزة مكانها، عندها قال:

- رحم الله صاحبها، لقد جاءنا محطَّماً من الزنازين.

استرخيت على "بُرشي" لأرتب عظامي من جديد، فصوت طقطقتها وفرقعتِها يخبر السامع كم تعرضت لِلَّوي والشد والضرب.

ظهراً أشاهد أسراب الحمام والعصافير ترتفع، وتعود لتحط في كل مكان، تلتقط الفتات الذي يجود فيه المعتقلون، تمنيت أن تحمل أخبارنا إلى من يسأل عن حالنا، لم أكن أعلم بوجود "عصافير" من نوع خائن، تتحرى أخبارنا خفية عنَّا، سحبت رأسي إلى الخلف لأشاهد أقسام السجن، وأستمع لأصوات المعتقلين، فضجيجهم ينبئك عن حياة مغايرة. بعد أن أنهكني التعب حتى حدود النوم، سمعت خشخشة أقفال باب القسم تفتح، تعلن عن دخول شيء.

دخل معتقلون يحملون قدوراً كبيرة ووضعوها في الزاوية، قواعدها متفحمة وأجسامها متشققة، تغطيها طبقة سميكة من الشّحار والرّماد، تنبعث منها رائحة الزيت المحروق لتطبع عليها سنوات من الاستخدام. مليئة بأرزٍ شاحب لا لون له. وفي قدور أخرى ماء أحمر، تسبح فيه حبات من الحمص والفاصولياء البيضاء، بقايا طعام من زمن مضى على سطح السائل، وجثث حشرات "السوس" تطفو منتفخة من كثرة الغليان.

وذلك ليس كل شيء، فقد جُرَّت صوان من "النقانق" المسلوقة، التي بدت ثعابين معاد تدويرها. فتساءلت في نفسي:

- هذا هو طعام الغداء؟!

طعام بالكاد يشبع بطن أحدنا، ولا يحمل أيَّ مذاق يذكر. ففهم أبو حاتم ملامح وجهي المستغربة، وقال:

- إنه مجرد شيء نأكله لنبقى أحياء، لا لنعيش.

طلب منا أبو حاتم أن نقوم بتوزيع الطعام على أقسام السجن، بحسب عدد المعتقلين في كل قسم. كل شيء هنا يحصى، حتى نحن يتم عدُّنا ثلاث مرات يومياً وأحياناً أكثر، فنحن مجرد أرقام في سجل لا ينتهي.

لكنّ أبا حاتم وبذكاء خفيٍّ، غرس يده في إحدى القدور بعيداً عن أعين الجنود، واستخرج منها بضع "كبسولات" مغلَّفة "بنايلون" شفاف. علمت لاحقاً أنها كانت مخبأة في أمعاء سجين آخر، جاء من سجن مختلف، لتمر عبر برازه وتصل إلينا، مختلطة بطعامنا البائس، فنظر إلي أبو حاتم بعينين تحملان همساً سريّاً، وقال:

- اذهب معهم لتستحمَّ في الخيمة الأولى من القسم (أ)، فقد رتبت لك كل شيء.

كلماته تحمل وعداً خفياً، لكنها أيضاً تذكرنا بأننا رغم هذا الظلم والإهانة، ما زلنا نحاول النجاة بكرامتنا، حتى لو عبر طرق يائسة ومحبطة.

ذهبنا معاً، استقبِلت بالترحاب والعناق الدافئ، وزادت فرحتي من حقيبة كانت في انتظاري، فيها: "ملابس وبشكير، شامبو، وشبشب"، ودلني أحدهم على مكان الاستحمام، فكان شغفي لا يوصف بانسياب الماء الساخن علي ليغسل آلامي وعرقي وتعبي، يجر كل شيء بعيداً، تحسست شعري من جديد، تخلى عن كونه كومة من القش الناشف.

تعلمت أعمال السجن وفنونه وبعض خفاياه، أن أكون خادماً لنفسي وغيري، احتفظت ببعض الممتلكات لتكون رفيقتي أينما حللت. فهنا تكاتف الجميع مبهر، أحياناً نذهب مجبرين لعمل بعض الإصلاحات والتَّنظيف في محيط السجن، وأحد الجنود يجلس في مقصورة أمامنا، يتولّى تنظيم الأعمال.

ذهبنا للعمل في مكان قرب الأسلاك الشَّائكة في الصَّف الأَخير منها، على بعد خطوات من الحريَّة، رأيت حقول الباذنجان والبطاطا والملفوف، وبعض الفلاحين من "الفارعة" يعملون هناك، خطوة واحدة كفيلة بأن تكون بينهم، لكن عواقبها ستكون وخيمة. أحياناً نعثر على صحيفة أو مجلَّة ألقاها الجنود، أو قلماً ما زال فيه رِيقٌ للكتابة، أو مَلعقة وكوباً منسيين، وعليك أن تخفيها في سروالك، أو تحت إبْطيْك، وتسلمها لمسؤولي السجناء؛ ليتولَّى كل منهم توزيعها، نحس بالتَّعب والإرهاق ونتحمَّل كل ذلك بصبر عجيب؛ لنكون جسراً بين المعتقلين.

نستمع لصوت الأذان من مخيم الفارعة وبلدتها، حفظنا أسماء العرسان من سهراتهم، وترحَّمنا على موتاهم، لأُدْرِك بعدها أننا نعيش في غربة مغلفة بالصمت العميق.

بعد شهر جاء يوم الزيارة، تأنَّقت قدر الإمكان، وتعطرت من معجون الأَسنان، وعلى غرار الحركة الدائبة في السجن فالأجواء مختلفة، صرخات الفرح لها أصداء لا حصر لها، والبشريات تجوب الخيام، وآخرون اتكأوا على مخداتهم، علَتْ وجوههم قتامة مؤلمة، فلم يحالفهم الحظ هذا الشهر.

توجهنا نحو شبابيك الزيارة، ومجموعة من المسنين والمسنات تلُفُّهم الفرحة والسكينة في انتظارنا، لأقابل أمي لأول مرة، بدا كل يوم مضى دهراً من الألم والشوق. فالعناق أمنية نقوم بتمثيلها بحركات بهلوانيَّة، تحاول إلقاء نفسك في أحضانهم ليصدك الجدار، ونستعير الفرح أمامهم من ذكرياتنا، نشغلهم بسماع الأخبار بكثافة حتى لا ينتبهوا لحقيقة حالنا، وفي نهاية الزيارة القصيرة، وفرة من السلامات تتطاير من الجميع إلى الجميع.

عدنا محمَّلين برائحة البيت من مقتنيات وصور وحلويات، يوم عيد تسلل من فتحات ضيقة، عاد أصل الانفعال من داخلنا يستنجد بالدعاء بأن يعجِّل الله الفرج.

نهاية الأسبوع جاءنا معتقل جديد، اسمه "رأفت عبيات"، جسمه رياضي ووجه جميل، مشيته مشية بطل من فيلم سينمائي. وكنا على وشك تناول طعام الغداء، وقد خصصناه بوجبة "فاخرة" مع حُبيبة تفاح، كانت وقتها جوهرة نادرة. دخل وسلّم باختصار، ونظر إلى الصحن باستنكار واضح، وقال بصوت مليء بالدهشة:

- هل هذا طعام الخيام؟!

توقع رأفت أن طعام خيام السجن سيختلف عن طعام الزنازين، لكنه سرعان ما أدرك أن الواقع هنا لا يعرف الفروق والطبقية، وبعد لحظات من التردد، قرر أن يتعايش مع الوضع بروح فكاهية، فقام برسم "فخذ دجاجة" على قصاصة ورق، ووضعها بجانب صحنه، وقال مبتسماً:

- "بسم الله عليها، وعلى كل ما نحلم به"

في الصباح طُلِب منا الخروج لـ"النينجا". عندما سمع رأفت هذه الكلمة، انتفض من مكانه بحماس، أدرك أنه على وشك المشاركة في بطولة عالمية. فتفاجأ عندما وصل إلى المكان، وسأل ببراءة:

- أين النينجا؟

فأجابه أحدنا بمرارة: تلك القمامة أمامك!

فقال متحسراً: هذا غراب البين...

صديقنا رأفت يحمل الحزام الأسود في الكاراتيه، وتوقع أن ذهابه للمشاركة في منافسة ودية، لكنه وجد نفسه أمام مهمة روتينية لإخراج "جرادل" القمامة إلى الحاويات المسماة "نينجا". سخرية القدر واضحة هنا، رجل اعتاد على القوة والانضباط، أصبح الآن يحمل "جردل" قمامة بدلاً من تحقيق أحلامه. هذه السخرية لم تكن سوى قناع يخفي تحته ألماً ومعاناة لا توصف. ففي هذا المكان، حتى الأحلام تختزل في رسم دجاجة على ورقة، والقوة تصبح مجرد حمل قمامة.

جاء شهر رمضان ليكرِّمَنا بتفوّقنا في دروس الصبر، فأيقظنا أبو حاتم بعد منتصف الليل لنحضر طعام السحور، كان من الفول الذي يشبه التراب المبلول، وبيضة مسلوقة من الظَّهيرة أصبح محُّها أخضر من عين فتاة أجنبية، وملعقة من المربَّى، فنظرت إليه باكتئاب، زار خيالي مع نعاسي سحور أمي، وصوت الصُّحون في المطبخ، ونداءاتها بالاستيقاظ، بقيت هائماً في خيالي حتى سمعت النداء من الفارعة: (كُفُّوا أيديَكُم عن الطَّعام والشَّراب)

فتعرَّقت من طلب المنادي من سماعة البلدة فقلت:

- يا شيخ، نحن أيدينا مكفوفة رغماً عنَّا، مكفوفة عن والنَّوم والأحلام، وعن الأحبَّة والأهل، مكفوفة عن المكان والزَّمان، عن الأمتار القريبة التي تنهَشُنا. فكيف لا تكون مكفوفة عن الطَّعام والشَّراب.

وضعت رأسي على طرف "البُرش" محاولاً أن أنال غفوة قصيرة قبل بزوغ الفجر. وفجأة بدا لي شاب يظهر بين غيمة ضباب بعيدة، يتجاوز الأسلاك الشائكة والحراس بسهولة غريبة. يسير بتعب وإنهاك، وكلماته تتردد في الهواء مع صدى من عالم آخر: "عذاب لا يزول. لقد هشَّموا عظامي، وأشعر بالبرد. أنا أموت"

نهضت بسرعة محملقاً نحو مصدر الصوت، محاولاً أن أتبين ملامحه. بدأ الضباب ينقشع، وكدت أرى ملامح وجهه، خاصة تلك الكنزة الصوفية المخططة التي يرتديها. لكن قبل أن تتضح الصورة تماماً، أيقظني "أبو حاتم" من غفوتي بصوت غليظ، وزفر من أعماقه في ضيق شديد:

- "حَضِّرْ حالك، جاء قرار نقلك إلى سجن النَّقب"

بقيت لحظة حائراً، أتساءل: هل كان ذلك الشاب مجرد حلم؟

أم مجرد رسالة من الماضي يعود ليذكرنا بأن العذاب هنا لا يزول؟

الغموض هنا يلفُّ كل شيء، فالسجن نفسه أصبح عالماً من الأوهام والأسرار.

الكنعانية

(إهداء إلى الحاجة حفيظة من قرية سالم صاحبة الصورة التي تحتضن جذع الزيتونة)

حين نزلت الجرافات إلى الوادي، كانت الشمس في منتصف السماء، تنشر حرارتها على الحجارة البنية حتى بدا المكان كأنه يتنفس ناراً. لم يكن في الحقول أحد سوى امرأة تدعى حفيظة، تقف عند سفح التّلة، تضع يدها على جذع زيتونة، وتنظر إلى الحديد الزاحف نحوها بعينين لم تعرفا الانكسار.

تجاعيد وجهها حفرتها السنون كما تحفر السيول مجاريها في الجبال. أما يداها فكانتا تحملان خشونة الأرض نفسها؛ يدان غسلهما المطر وجففتهما الشمس، وتشققتا من غرس القمح، وقطف الزيتون حتى صار التراب جزءاً من جلدهما.

اقتربت الجرافة وارتفع هديرها، ثم انغرست أسنانها في أول شجرة، ودوى صوت الانكسار في الوادي كطلقة أصابت قلبها، وتطايرت الأغصان، وسال الزيت الأخضر على التراب قبل أوانه، فانحنت والتقطت حفنة من الأرض، وضغطتها في قبضتها حتى سال الغبار بين أصابعها وصاحت:

- اصبري. لقد مرّ عليك من قبل من كان يظن نفسه خالداً.

لم يسمعها أحد، لكن الزيتونة اهتزت. والجرافة تتقدم بلا تردد، تقتلع شجرة بعد أخرى، حتى لم يبق في طرف الحقل إلا جذع نصف مكسور مع بعض أوراقه. ركضت نحوه واحتضنته بكل ما بقي في ذراعيها من قوة، وألصقت خدها بخشبه اليابس وأغمضت عينيها، وقالت بصوت خرج من مكان بعيد في صدرها:

- هذه آخر الروح فلا تقتلوها.

وقف الضابط يراقب من بعيد، ثم تقدم ويتبعه جنديان ويحمل أحدهما خرائط ملفوفة. ابتسم ساخراً:

- أتعانقين جذعاً قتلناه؟

رفعت رأسها إليه ولم تترك الشجرة: الميت هو من اقتلع جذوره بيده.

هز كتفيه بلا مبالاة: هذه الأرض أصبحت لنا.

- الأرض لا تصبح لأحد لأنها كُتبت على ورقة.

أشار إلى الخرائط: هنا ستقام بيوت جديدة، وطرقات وأسوار ومستوطنة.

ابتسمت ومدت يدها إلى التراب وأخرجت حجراً: قبل أن تعرف خرائطك هذا المكان، كان هذا الحجر يعرف خطوات أبي وخطوات جدّي، وخطوات الفاتحين الذين بنوا أول بيت هنا حين كانت أسماء مدنكم لم تولد بعد.

نظر إليها باستخفاف: التاريخ لا يحمي أحداً. ولا يحفظ حقاً.

- لكنه يفضح الكذابين والقتلة والمتخاذلين معكم.

اقترب أحد الجنود ليبعدها عن الجذع، لكنه ما إن وضع يده على كتفها حتى التفتت إليه، ولم يكن في عينيها تهديد. كان فيهما شيء أشبه بالحزن. تراجع الجندي دون أن يدري لماذا، وقال لرفيقه:

- أشعر أننا لا نقتلع شجرة. نحن نوقظ شيئاً تحت الأرض.

وصل زوجها يحمل في يده حلقة تتدلى منها مفاتيح، وقف إلى جانبها ورفع الحلقة أمامهم:

- هل تعرف هذه أيها المسخ اللعين؟

قال الضابط بعنجهية ساخرة: لن تنفعكم أمام دباباتنا وجرافاتنا. حديد صدئ مثل حقوقكم.

- لو كانت من حديد لصدئت وانتهت. لكنها صنعت من مهور الأمهات، ومن دموع الذين خرجوا وهم يظنون أنهم سيعودون بعد أيام.

لوح الضابط بيده: الماضي لا يغير الحاضر، ولن تعودوا.

- لكنه سيغيّر المستقبل. فالأرض لنا، والقدس لنا. والله بقوته معنا.

ومن خلفه ظهر ابنه، شاب أسمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين، يحمل مجرفة على كتفه. اقترب حتى وقف إلى جواره:

- اسمي خالد - قالها وهو ينظر إلى الضابط لا إلى جنوده- جدي كان يقول إن الأرض تحفظ أسماء من يحبونها.

ضحك الضابط: وهل تتكلّم الأرض؟

- نعم، لكنها لا تضيع وقتها مع الغرباء لأنهم لا يفهمون لغتها.

ارتفع الضحك بين الجنود ثم خمد حين رأوا المرأة تغرس أصابعها في التراب وتخرجه إلى كفّها. رفعت قبضتها أمام الجميع:

- انظروا -تفتت التراب بين أصابعها- هذا الغبار فيه رماد مواقدنا وعرق فلاحينا، ودم شهدائنا، وبقايا لعب أطفالنا. تظنون أنكم تسرقون أرضاً، لكنكم تسرقون وطناً وذاكرة.

تغيرت ملامح الضابط، وشعر أن الكلمات الصهيونية التي يحفظها لا تكفي للرد، وأراد أن يثبت سيطرته، فقال بصوت أعلى: نحن نملك قوة العالم.

نظرت إليه ثم سألته: وهل تعرف ما معنى الأرض أو الوطن أيها الدخيل؟

لم يجبها. وأمر جنوده بالانتباه والاستعداد. فأكملت:

- الأرض أن تحمل نبضها في قلبك، وأن تعرف رائحة المطر قبل أن يسقط، وأن تفرح حين تزهر شجرة زرعها جدك ولم ير ثمارها. -وأشارت إلى الزيتونة التي تحتضنها- هذه امرأة مثلي حفظت أسرار العابرين، وأطعمت الجائعين وظلّلت الغرباء، ولم تسأل أحداً عن اسمه.

بدأت الشمس تميل نحو الغرب، وألقى الضوء الأحمر ظلاله على حجارة قرية سالم، أحس الضابط أن الوادي ينظر إليه. الحجارة والأشجار، والأجمة والمغارة، وحتى الهواء، فالقرية ترفض أن تمنحه اعترافاً بقدر ذرة تراب أو ورقة شجر. فتراجع دون أن يشعر، ورأي الجميع ذلك.

هبط المساء على الوادي، والشمس لم تكن راغبة في المغادرة قبل أن تطمئن إلى أن الزيتونة لم تُترك وحدها. تمددت الظلال على السفوح، وصارت الحجارة تحتفظ بحرارة النهار مثل قلوب العجائز التي لا تبرد مهما طال الشتاء. وقف الضابط يحدق في الجدة حفيظة، ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية وفتحها، وقال بنبرة حاول أن يجعلها حاسمة:

- هذا قرار عسكري. ابتداء من الغد ستبدأ أعمال البناء، ولن يبقى شيء لكم.

أخذت الورقة من يده. قلّبتها بين أصابعها، ثم مزقتها إلى قطع وتركت الرياح تحملها. لم يغضب الضابط كما توقع جنوده. اكتفى بسؤالها: أتظنين أن تمزيق الورقة سيغيّر الحقيقة القادمة؟

نظرت إليه وقالت: الحقيقة لا تُكتب على الورق حتى أمزقها. الحقيقة تحت قدمي، وكل ما عداها حبر يخاف المطر.

اشتعل الغضب في وجهه، ولوّح بيده نحو الجنود: اقتلعوا ما بقي.

تقدمت الجرافة نحو الزيتونة. لكن قبل أن تصل خرج من بين البيوت رجال ونساء وأطفال لم يحملوا سلاحاً. بعضهم يحمل معاول، وبعضهم مناجل، وآخرون أغصان زيتون خضراء. وقفوا في صف طويل خلف حفيظة، ولم يهتفوا ولم يرفعوا قبضاتهم. اكتفوا بالوقوف الغاضب.

ارتعب السائق وخفف من سرعة الجرافة حتى توقفت، فصرخ الضابط فيه: تقدّم!

لكنه ظل ينظر إلى الواقفين أمامه. كانت طفلة تمسك مفتاحاً أكبر من كفها، تضمه إلى صدرها كأنه دميتها الوحيدة، فاقترب الضابط وسألها ساخراً:

- ما الذي ستفتحينه بهذا المفتاح؟

رفعت الطفلة رأسها وقالت بثقة لم يتوقعها: باب بيتنا حين نعود للقدس ويافا.

ضحك الجنود، لكن الضحكة ماتت سريعاً، لأن الشيخ عبد الله تقدم ووضع يده على كتف الطفلة وقال للضابط:

- كل مفتاح هنا ينتظر بابه. أما أنتم، فحتى أبوابكم لا تعرف أسماءكم.

كانت الرياح قد اشتدت، وأخذت تدور في الحقول كأنها تجمع الأصوات القديمة التي مرّت من هنا. فانحنت حفيظة وحفرت بإصبعها حفرة صغيرة في الأرض، وأخرجت من جيب عباءتها نواة زيتون وغرستها في التراب.

سألها خالد مستغرباً: ألن تحتاج سنوات حتى تصبح شجرة؟

ابتسمت وهي تردم الحفرة: وما الذي يستحق أن يبقى إذا لم يحتج إلى الصبر؟

سمع الضابط الجملة، فالتفت إليها: حتى لو نبتت سنقتلعها كما سنقتلعكم.

رفعت رأسها نحوه: وستنبت غيرها. وغيرها...

- وسنقتلعها...

- ستبقى البذور...

- وسنحرق البذور...

- سيحملها الهواء إلى مكان آخر.

- وسنمنع الهواء...

ارتبكت الكلمات في حلقه، وهي تنظر إليه. قالت لكنه مشى ووصل إلى آخر الجموع:

- هناك أشياء لا يستطيع البشر منعها: المطر إذا قرر الهطول، والفجر إذا حان وقته، والأرض إذا قررت أن تتذكر أبناءها.

رفع خالد رأسه ثم التفت للضابط: بحرنا لا ينام يا هذا، ويحفظ أسماء أجدادنا الصيادين. اذهب واسأله عن السفن التي غرقت، وعن الأطفال الذين حملتهم الأمواج، وعن الصيادين الذين عادوا بشباك فارغة وقلوب ممتلئة. سيخبرك أن الماء قد ينسى الوجوه، لكنه لا ينسى المظلومين.

أخفض الضابط بصره. وشعر أن الأرض تضيق بهم. لم يكن يخاف المرأة ولا الشيخ ولا الشاب مثل أي محتل. كان يخاف اليقين الذي يسكنهم، والإيمان بأن الغد مهما تأخر لا بد أن يأتي. وحين انصرف الجنود مع آخر ضوء، بقيت الحجة حفيظة وحدها عند الزيتونة الجريحة. جلست على صخرة قريبة، ومسحت بيدها الجذع كما تمسح أم جبين ابنها المحموم:

- لا تخافي. لقد مرّ فوق هذه البلاد من كان أشد منهم قسوة، وصاروا حكايات في أفواه الرعاة.

لم تنم حفيظة ليلتها، وأشعلت كانون الحطب في ساحة الدار، وجلس أحفادها حول النار. ألسنة اللهب تتراقص على وجوههم، فتجعلها تشبه وجوه الرجال الذين غادروا منذ زمن، ولم تغادر صورهم الجدران.

كان الشيخ عبد الله يحدق في الجمر، ويقلب أحد المفاتيح بين أصابعه يخشى أن ينام، فينسى شكل الباب الذي صنع من أجله، فقطع الطفل نعيم تفكيره وسأله:

- جدي متى سننتصر؟

رفع رأسه إليه ولم يجبه مباشرة. مد قطعة حطب إلى النار حتى اشتعلت:

- هل رأيت الزيتونة حين يقطعون أحد أغصانها؟

هز رأسه.

- ماذا تفعل؟

أجاب الطفل: تنبت غصناً آخر.

ابتسم وربت على رأسه: وهذا هو الانتصار. أن يبقى فيك ما يجعلهم يعيدون المحاولة، وتعيد أنت الحياة.

قال عمرو، وكان أكبرهم: لكنهم يملكون كل شيء؛ السلاح والمال والجرافات.

التفتت إليه الجدة حفيظة وأشارت إلى الجدار الحجري الذي بني قبل عشرات السنين:

- انظر. الذي بناه مات، والذي حمل حجارته مات، والذي خلط طينه مات، لكن الحائط بقي. الأشياء التي تُبنى بالمحبة تعيش أكثر من أصحابها.

ثم رفع الشيخ عبد الله نظره إلى السماء، حيث كانت النجوم تملأ الليل:

- أما الذين يبنون بالخوف والسرقة، فإنهم يقضون أعمارهم يحرسون ما شيدوه.

وفي الفجر حين بدأ الضوء ينساب فوق الجبال عادت الجرافات. لكنها لم تجدها وحدها. كان أهل القرية جميعاً هناك. وقف الشيخ بمفاتيحه، ووقف خالد بمجرفته، وجاءت النساء يحملن سلال القمح، وحمل الرجال شتلات زيتون. أما الأطفال فقد اصطفوا في المقدمة، وفي أيديهم حجارة وصور لشهداء ومعتقلين يبتسمون من زمن بعيد. نظر الضابط ثم قال للمرأة:

- ألم تتعبي؟
- وهل تتعب الأرض من حمل أبنائها؟
- أنتم تعرفون أنكم لا تستطيعون إيقافنا.
- ونحن نعرف أنكم لا تستطيعون اقتلاعنا.

اقترب منها حتى صار على بعد خطوة واحدة: من أنتِ؟

نظرت إليه نظرة طويلة، كأنها تستخرج الجواب من أعماق التاريخ ثم قالت:

- أنا الكنعانية. أول امرأة عجنت طين هذه البلاد بالماء، وأول أم ودعت ابنها إلى الحقل، وأول من انتظرت غائباً عند الباب. أنا كل زيتونة قُطعت فعادت فأثمرت، وكل حجر بقي في مكانه رغم الزلازل. أنا لست اسماً. أنا الحكاية كلها.

ثم أغمضت عينيها. وقالت بصوت امتزج بأصوات الواقفين جميعاً من أهل القرية، حتى صاروا صوتاً واحداً:

قد تقتلعون شجرة، لكنكم لا تستطيعون اقتلاع موسم، وقد تهدمون بيتاً، لكنكم لا تغلقون الطريق إليه، وقد تقتلون إنساناً، لكنكم ستعجزون عن قتل الحكاية إذا بقي من يرويها.

لسنا هنا لأننا الأقوى. نحن هنا لأننا بقينا، ومن يبقى يصبح الأرض والزمن، ولا يغادرهما أبداً.

عَـريـن

قبل أن تفتح الشمس عينها على حيِّ الياسمين. النسوة سبقنها إلى البئر. ترتطم الدلاء بجدرانه ثم ترتفع مبلّلة، وتتطاير الأخبار من فم إلى آخر. واحدة تزف بشرى مولود جديد، وأخرى تذكر اسم شاب اعتقلته دورية الفجر، ورابعة تشير بطرف إصبعها إلى بيت أُغلق بابه منذ الليلة الماضية. لأن نعشاً خرج منه ولم يعد.

الحي يستيقظ والقطط تتمدّد فوق العتبات، والخباز ينفض الدقيق عن ساعديه قبل أن يدفع أول رغيف إلى جوف النار. وحجارة أرض الحي لم تتغير، فكل حجر يعرف من داس عليه، والزقاق يحفظ أسماء من عبروا فيه. وحين تهب نسمة خفيفة تختلط رائحة الياسمين بالزعتر، ثم يجيء أثر بارود قديم. في آخر الحي ترتفع مئذنة مسجد النصر أعلى من البيوت، وأعلى من الخوف والصوت. وإذا ضغطت أذنك على الجدران ستسمع همسات الأجداد "العُمريّة" الذين طردوا الغزاة ذات يوم بسيوف لم تغمد. تنتظر أيدي فتيّة تحملها لتذكرك: "هذه الأرض ليست للبيع أو السمسرة"

أبو طلال يرفع غطاء قدر الذرة كلما يسمع الأذان، ويمسح يديه بمئزره:

- إذا بقي المسجد عامراً، بقي الحي واقفاً يا ياسر.

كنت صغيراً يوم سمعتها. ولم أفهمها إلا بعد سنوات. حين يحل المساء تنطفئ المحال واحداً تلو الآخر. يجر أبو طلال عربته ذات الإطار المعوّج إلى جانب الجدار، يربطها بسلسلة ثم يربت عليها، وتغلق أم نافز نافذتها المطلّة على الزقاق. وتجذب أم يزن حبل الغسيل قبل أن يبتل بندى الليل. ويبدأ أبي جولته المعتادة داخل البيت. يتأكد من إغلاق الباب ويفحص النافذة والحنفيات. ثم ينظر إلينا: حان وقت النوم يا جماعة.

حين تمشي فيه تسمع أصوات دفاتر الأرض تتناهد. "هنا سقط الجد "محمد"، وهناك رمت الجدة "فاطمة" قنديل الزيت على دبابة العدو". و"قرب القوس استشهد فلان"

لم أكن أحب النوم. كلما أغمضت عيني وجدت نفسي في أرض لا أعرفها، فيها أسلاك شائكة تمتد إلى الأفق، وحقائب مدرسية ممزقة، ودفاتر معلّقة على السلك. وأنا فيها أمشي وحدي، وكلما اقتربت من النهاية ظهر رجل ملثم يقف فوق ربوة لا يتكلم ولا يلوّح. يكتفي بالنظر إلي. فأركض نحوه. وقبل أن أصل إليه أصحو مذعوراً. يتكرّر الحلم حتى حفظت تفاصيله.

في إحدى الليالي استيقظت على أصوات صراخ وأبواب تفتح وأقدام تركض. قفزت إلى النافذة فرأيت رجالاً يحملون شاباً على أكتافهم. ذراعاه تتدليان بلا حركة. ورأسه يميل إلى الخلف. لم أميز وجهه لكنني رأيت أمه تركض خلفه حافية، وتمسك بطرف جرزته. وقف أبي خلفي ووضع يده على كتفي: سبقنا إلى الله.

لم يقل مات ولا قُتل. ظلت الكلمة تدور في تفكيري حتى الصباح حين جلسنا للإفطار. خبز طابون وزيت زيتون وزعتر. وكأس شاي بالميرمية. لم يفتح أحد حديثاً حتى سألته:

- "لماذا يموت الشهداء وهم صغار؟"

نظر السماء وقال: "لأن الأعمار تُقاس بما تتركه، لا بما تعيشه. -وأردف وهو يقطع لقمة- الرجل قد يعيش ثمانين عاماً ولا يترك أثراً، وقد يعيش عشرين فيصبح طريقاً يمشي عليه الناس."

أنهيت إفطاري على عجل. فأدهم ينتظرني عند نهاية الزقاق. كان يحمل حقيبته بيد وكرة بالأخرى. لوّح لي فركضت نحوه. قال: "رأيتَ الملثم من جديد؟"

- توقفت متفاجئاً: "كيف عرفت؟"

- "لأن وجهك يخبرني."

سرنا ومررنا بعربة أبي طلال. فناولنا كوزي ذرة ساخنين: "كِلاهُما هديّة - ثم أشار إلى المسجد- ولا تنسيا الظهر."

هزَّ أدهم رأسه باحترام، وفي الطريق إلى المدرسة كانت الجدران مغطاة بصور الشهداء. وجه يبتسم ووجه يرفع إصبع السبابة. وجه يطل من خلف كوفية حمراء والعيون كلها تنظر إلينا.

- قال أدهم: "أتعرف ماذا يخيفهم. أن تتحول هذه الصور إلى أفكار. الصورة وحدها لا تصنع شيئاً، لكن الفكرة التي تعيش بعدها قد تغير جيلاً كاملاً."

وصلنا، وفي الساحة وقف المعلم المناوب عند البوابة. يحرك عصاه كما يحركها قائد أوركسترا. يوقف هذا ويعيد ذاك. ويربت على رأس طفل تأخر عن الطابور. اقتربنا منه، وسأله أحد الطلاب: "اليوم دوام أم إضراب، أم حداد؟"

ابتسم المعلم: "اليوم عِلم."

بعد انتهاء الدوام خرج الطلاب وتشعّبت طُرقهم. عاد بعضهم إلى البيت. واتجه آخرون إلى السوق. وسلكت مجموعة صغيرة طريق الحاجز القريب. نظر إلي أدهم: "إلى أين؟"

- قلت: "إلى البيت."

- ابتسم: "وأنا إلى النصر."

سبقني ودخل المسجد. وقفت عند العتبة والمؤذن يرفع الأذان. وكانت الصفوف الأولى قد امتلأت. خلعت حذائي ومشيت فوق السجاد الأحمر. شعرت أن همّاً انزاح عن صدري. وبجانب رفوف المصاحف رأيت شيخاً يعلّم طفلاً الصلاة. ورجلاً مسناً يوزع التمر على المصلين. وشاباً يقرأ القرآن. لم يكن أحد يسأل الآخر من أين جاء. ولا لأي فصيل ينتمي، ولا ماذا يملك. الجميع يقفون صفاً واحداً.

- قال أدهم: "أرأيت؟!"

- التفت إليه. قال: "هذا هو."

نظرت إلى القباب والوجوه الساجدة. فهمت ما يقصده أبو طلال. خرجنا بعد الصلاة. رأيت رجلاً يقف عند أول الزقاق يلفُّ كتفيه بكوفية سوداء. لمحت وجهه لحظة ثم اختفى. التفت إلى أدهم لأسأله إن كان رآه. لكنه كان ينظر في الاتجاه نفسه ويبتسم.

مساء وعند الموعد المحتوم للنوم. ألتفت إلى دجاجات الجيران. وأحسدها لأنها ما زالت تنقق مستمتعة بليلها الطويل، بينما أنا مضطر للاستسلام لفراشي مبكراً. أستلقي وأحدق في تشققات السّقف التي تشبه شرايين جسد متوتر، تسير لتتجمّع حول "النوّاسة" الحمراء لتضخ الدم إليها فتضيء. أشعر أنّني مصاب بمتلازمة الشقوق، فهي تلاحقني في كل مكان فأراها. وفي زاوية الغرفة الظّلال تتلوى مثل حية سوداء، وهناك يقبع "الشّعشبون" بأرجله الطويلة، وخيوطه المريبة تمتدُّ. يداه تنسجان شباكاً حول كل شيء، حتى حول ذكرياتنا. لكنَّ أمي بمكنستها تنهي وهن بيته في لمح البصر. صباحاً تبدأ معركتها معه فتضربه ليسقط خلف السرير ميتاً-أو هكذا تظن- لكن "الشّعشبون" ليس وحيداً، له من أمثاله الكثيرون، ينتشرون في كل زاوية مظلمة وفي كل بيت، وفي كل شارع، وفي كل الوطن. ومع حلول الليل يعودون ينسجون خيوطهم، ويعيدون بناء عالمهم الذي لا يراه إلا من يحدق في الظلام والزوايا طويلاً.

استيقظت في اليوم التالي قبل أن يوقظني أبي. خرجت إلى فناء الدار فسمعت حفيف مكنسة أمي وهي تجمع غبار أمس في كومة. وتكنس خيوط العنكبوت المعلّقة في الزوايا، ثم تهز رأسها وتتمتم: "كلما أزلناها عادت."

راقبتها ولم أفكر في العنكبوت. فكرت في أشياء أخرى تعود كلما ظننا أننا تخلصنا منها. رفعت أمي رأسها فرأتني أحدق في السقف. قالت: "لا تشغل قلبك بما فوق رأسك يا ياسر، انظر إلى الطريق أمامك."

- لست أدري لماذا يقتلني الفزع كل ليلة.

خرجت مبكراً لأرافق أدهم. بائع الخضار يصف الصناديق على الرصيف، والخباز يخرج أرغفة جديدة. وأبو طلال ينفخ في البابور حتى اشتعلت النار تحت قدر الحمص. ابتسم لنا وهو يناول صبياً كوزاً ورقياً من الحمص الساخن. قال: "كلوا قبل أن تكبروا بعد التوجيهي. فالكبار لا يجدون وقتاً للأكل."

عند مفترق الطرق توقفت سيارة عسكرية. لم تنزل منها القوة. نظروا إلينا واكتفت بالدوران ثم مضت. فأغلقت امرأة نافذتها. وسحب صاحب البقالة بضاعته إلى الداخل. وتوقف الأطفال عن اللعب. حتى العصافير ارتفعت دفعة واحدة عن أسلاك الكهرباء. قال أدهم وهو يراقبها حتى غابت: "الخوف لا يحتاج إلى أن يطرق الباب. -انحنى والتقط حجراً وقذفه بعيداً- يكفي أن يمر من الشارع."

في المدرسة وقبل أن يبدأ الدرس. دخل المدير إلى الساحة، ووقف الطلاب في صفوف طويلة. رفع يده لنصمت لما سيقوله:

- "نزف إليكم ابن مدرستنا محمود..." ولم يكمل.

فانطلقت همهمة خافتة. رأيت طالباً في الصف الأول يخفض رأسه ويبكي. ورأيت معلماً يشيح بوجهه نحو السماء حتى لا يراه أحد. وقرأنا الفاتحة. ثم انصرف الجميع دون أن يرن الجرس. خرجنا كما يخرج المشيعون من المقبرة ولا أحد يتحدث. ولا أحد ينظر في عين الآخر. في الطريق سألني أدهم:

- "لو خيّروك بين أن تحمل كتاباً أو حجراً، ماذا ستختار؟"

- أجبته دون تفكير: "الكتاب."

- ابتسم: "وأنا أيضاً - سكت ثم أضاف- لكن الكتاب هو الذي يعلمك متى تحمل الحجر."

حين وصلنا الحي كان الناس يتجمعون عند المسجد. نعش مغطى ورجال يرفعونه على الأكتاف. وأطفال يحاولون لمس الخشب بأطراف أصابعهم. وقف الإمام ورفع صوته: "استووا." فاستوت الصفوف. كبَّر. فكبَّر الجميع. وفي لحظة صار الحي قلباً واحداً. فهمس أبي في أذني:

- "لهذا يخشون المساجد. لأنها تعلم الناس أن يقفوا صفاً متراصاً."

بعد الصلاة خرج المشيعون بهدوء، وتحرك النعش وراءه آلاف الأقدام. الأزقة تضيق بهم لكنهم ظلوا يتقدمون. وقفت امرأة على شرفتها ورفعت يديها إلى السماء. ثم ألقت حفنة من الياسمين فوق النَّعش. تطايرت الزهور البيضاء في الهواء واستقرت فوق العلم.

نظر إليها أبو طلال وهو يمسح دمعة سقطت رغماً عنه. وقال بصوت بالكاد سمعته: "الأرض تعرف أبناءها."

في تلك الليلة عاد الحلم لكن شيئاً تغير. لم يقف الملثم بعيداً كما في كل مرة. اقترب حتى صرت أرى كوفيته بوضوح. وأشار بيده إلى جهة. لم تكن نحو الأسلاك ولا نحو التلال. كانت نحو مئذنة مسجد مرتفعة. ومع أول تكبيرة للفجر اختفى. استيقظت مذعوراً وفتحت النافذة. كانت المئذنة أمامي والمؤذن يرفع أذان الفجر. شعرت أن الحلم يطلب مني أن أتجاوز الأسلاك وأعرف الطريق.

في الصباح خرجت والحياة تستعيد أنفاسها من جديد. أبو طلال أشعل البابور ونفخ فيه مرتين وثلاثاً. ثم اندلعت النار، فضحك وقال لمن حوله: "حتى النار تحتاج من يصبر عليها."

امتدت رائحة الحمص والذرة المسلوقة في الزقاق، وعلى الجدار المقابل كان طفلان يرسمان بالطباشير. فاقترب منهما إمام المسجد وسألهما: "ما هذا؟"

- قال الأكبر بثقة وفخر: "هذا عريننا."

ابتسم الشيخ وأشار إلى مسجد النصر آخر الشارع: "وذاك؟!"

بعد سنة دخلت الجامعة وبدا كل شيء عادياً. المحاضر يشرح والطلاب يكتبون. لكنني أشعر أن شيئاً ما تحت هذا الهدوء. بين محاضرة وأخرى كانت تصل أصوات سيارات الإسعاف. يلتفت الجميع نحو النوافذ. ثم يعودون إلى دفاترهم. قال الدكتور: "أكملوا." لكن أحداً لم يكن قادراً على التركيز. فالمدينة كلها تقرأ درساً آخر.

في طريق العودة مجموعة من الفتية الملثمين يحملون الإطارات. توقفوا عند المفترق القريب من الحاجز. سكب أحدهم البنزين وأشعل آخر عود ثقاب. ارتفع اللهب سريعاً وصعد الدخان الأسود. وبعد دقائق ظهرت آلية عسكرية. ثم انفجرت الأزقة بالحجارة. كل شيء يحدث بسرعة. صبي يناول شاباً زجاجة حارقة، وامرأة تفتح بيتها ليحتمي فيه جريح. رجل يلوح بيديه محذراً الناس من قناص فوق سطح بعيد. ورجل انتشل مطارداً بسيارته وأنقذه منهم. والحجارة تطير في كل مكان. شدني أدهم من ذراعي وقطعنا الزقاق. ودخلنا من الباب الشرقي للمسجد. قال الإمام للشباب الذين امتلأت بهم الساحة: "اجلسوا."

جلس الجميع وبدأ أحدهم يقرأ القرآن الكريم. قال أدهم: "الآن فهمت؟"

- أومأت برأسي: "نعم."

- "ما الذي فهمته؟"

نظرت إلى القبة ثم إلى الشباب وقلت: "المسجد لا يحمينا بجدرانه. إنما يجمع قلوبنا قبل أن تفرقنا المصالح."

- "لهذا كان العرين دائماً هنا. فإذا خرجوا منه مجتمعين صاروا صفاً لا ينكسر، وإذا هجروه تفرقت بهم الطرق، فالتقطتهم أوكار الثعالب وجحور الأفاعي واحداً واحداً."

هدأت المواجهات قبيل المغرب. خرجنا نمشي فوق بقايا الحجارة، ورائحة الغاز ما تزال عالقة في كل شيء. طفل يجمع الفوارغ المعدنية. ورجل يكنس الزجاج المتناثر أمام متجره. وحين مررنا بجانب جدار رأيت العبارة التي كتبها مجهول قبل سنوات: "الحي الذي يبقى فيه الأذان لا يموت." توقفت ومددت يدي ولمستها، وكانت خشنة. فسألني أدهم:

- "ماذا تقرأ؟"

- قلت: "وصية."

في الليل عاد أبي متعباً، جلس في حوش الدار. ناولته أمي كوب شاي. ظل ينظر إلى البخار المتصاعد ثم قال: "يا ياسر..."

اقتربت منه وأشار إلى المئذنة التي تظهر. "هل تعرف لماذا يبدأ الأذان بـ ‹الله أكبر›؟"

هززت رأسي بلا...

- "حتى يبقى كل شيء بعده أصغر. أصغر من الخوف. وأصغر من السجن. وأصغر من الاحتلال. وأصغر من الموت العادي."

ظللت أنظر إلى المئذنة. وخُيّل إليَّ أنني رأيت الملثم هناك. لم يرفع يده. اكتفى بأن أدار وجهه نحوي ثم اختفى.

مرت أسابيع لم يظهر فيها الملثم في أحلامي. غاب كأن الأرض ابتلعته. زادت الحيرة ولم تتبدد. كنت كلما مررت في الزقاق وسمعت وقع خطوات ألتفت خلفي، وحين أصل إلى آخر الشارع لا أجد سوى ظلي ممدوداً. لاحظ أدهم شرودي. قال وهو يربت على كتفي: "تبحث عنه؟"

- تظاهرت بعدم الفهم: "عمّن؟"

- "عن الذي يسبقك في الحلم."

لم أعترف له حينها، وفي يوم الجمعة ازدحم المسجد حتى امتلأ. جاء الرجال من كل الأزقة: العامل الذي عاد وثيابه ملطخة بالإسمنت، والتاجر الذي أغلق متجره على عجل، والطبيب الذي حمل حقيبته معه. حتى أبو طلال أطفأ البابور قبل أن ينفد الحمص من قدره. دخل الجميع. ووقف الغني إلى جانب الفقير. وصاحب الشهادة إلى جانب الأمي. ثم استقامت الصفوف كأنها بنيان مرصوص. فهمس أبي في أذني قبل تكبيرة الإحرام:

- "لو عرف الناس سر هذه الصفوف لما استطاع أحد أن يهزمهم."

بعد الصلاة لم أغادر. جلست في الزاوية تحت رف الكتب. ومن بينها برز آخر كتاب فتحه صديقي أدهم، وحياتنا كانت تتشكل من حبر كلماته. ذلك الكتاب خريطة رسمت لنا معالم الطريق، وأضاء لنا دروباً كنا نظنها مظلمة. لنكون أسياداً على العالم كما أراد سيد الكتاب. فاقترب مني أدهم وقلت له: "هيا بنا."

رفع رأسه رافضاً: "اجلس واقرأ."

كانت أشعة الشمس تدخل من النافذة العالية للقبة، وترسم مستطيلاً من الضوء على السجاد. وغبار خفيف يسبح في الشعاع الذهبي.

قال أدهم: "هل ترى هذه الذرات؟ لو بقيت في الظلام لما رآها أحد. وكذلك الإنسان. لا يعرف نفسه حتى يقف في النور."

في تلك الليلة عاد الحلم. والأسلاك الشائكة اختفت. وحل مكانها طريق تحفه أشجار الزيتون. في آخره وقف الملثم. اقتربت منه أكثر من أي مرة، وعلى بعد خطوات مددت يدي فمد يده. وحين لامست أصابعي أصابعه شعرت بدفء. فهمست: "من أنت؟"

رفع يده وأزاح الكوفية فتراجعت مذعوراً. كان يشبه أدهم. ليس شبهاً عابراً. العينان والابتسامة. صرخت باسمه فاستيقظت. خرجت أركض، ولم أنتظر الإفطار. ركضت حتى وصلت بيت أدهم. ولم أجرؤ على طرق الباب. ابتعدت وبدأت أمشي بلا وجهة. لم يكن أدهم يرافقني لأنني عجزت عن نسيانه. ولأن الذكرى الصادقة لا تموت. ولأن الأرواح تعرف طريقها إلى من أحبها.

في الأيام التالية بدأت أفتش عنه في الناس. أراه في شاب يحمل مصحفاً تحت إبطه. وفي طفل يرفع الحذاء عن عتبة المسجد احتراماً للمصلين. وفي رجل مسن يطفئ المصابيح بعد صلاة العشاء ثم يخرج آخر الناس.

كان أدهم يتكاثر. أدركت أن الشهداء لا يتركون مقاعدهم فارغة. كلما رحل واحد نهض آخر ليكمل الطريق. وأستذكر قول أبي ذات مساء: "المدن تبنى بالرجال وتحرسها المساجد. إذا بقي المسجد عامراً بقي الرجال رجالاً، وإذا هُجر دخلت الثعالب من الأبواب وتسللت الأفاعي من الشقوق، حتى يظن الناس أن الذل قضاء لا مفر منه."

في صباح الجمعة التالية امتلأت الشوارع بالمارة. رجل يحمل سجادة صلاة على كتفه. طفل يسابق أباه إلى الوضوء. المشهد بسيط لكنه بدا لي أشبه بجيش يعود إلى حصنه. كل وجه أعرفه يدخل من ذلك الباب. وكل قلب مثقل يعود أخف مما كان. فقلت لنفسي: "العرين لا يبنى بالجدران، بل بمن يدخله."

بعد الصلاة خرج الإمام وتجمعنا حوله. سأله أحدهم: "يا شيخ، لماذا نسمي المسجد بيت الله؟"

انحنى حتى صار في مستوى ولد واقف. وقال: "لأن الإنسان إذا ضاقت به الدنيا وجد فيه سعة. وإذا خاف وجد فيه أمناً. وإذا ضل وجد فيه معالم الطريق."

سمعت العبارة، فالتفتُّ نحو أدهم على عادتي. لكن المكان إلى جواري كان خالياً. ابتسمت رغم ذلك. كنت أعلم أنه يسمع.

مرت شهور وشهور. كبرت خلالها أشياء كثيرة. أما حي الياسمين فبقي. كلما رحل منه شهيد، خرج في جنازته آلاف الأحياء. وكلما هدمت فيه دار بنيت غيرها. وكلما حاولت يد أن تطفئ نوره، أشعل الناس مصباحاً آخر. وفي ليلة شتوية طويلة عدت من صلاة العشاء وحدي. وقفت عند مفترق. الطريق الأول يقود إلى السوق. والثاني إلى مقهى. أما الثالث فينتهي عند المسجد. فتذكرت حلمي والأسلاك الشائكة والملثم. والطريق الذي كان يشير إليه بيده. ضحكت بيني وبين نفسي. لم يكن يدلني على رجل ولا على معركة. ولا مكان سري. كان يدلني على باب لم يغلق منذ أربعة عشر قرناً. إذا دخله الإنسان خرج منه أصلب عوداً وأوضح بصيرة وأهدأ قلباً.

رفعت بصري إلى القبة الخضراء، وقلت في سري: "الآن فهمت يا أدهم. كل مسجد في فلسطين عرين. في القرية عرين. وفي المخيم عرين. وفي المدينة عرين. ومن خرج من عرينه وترك بوصلته خلفه، ضل بين أوكار الثعالب وجحور الأفاعي، حتى ينسى اسمه وطريقه."

منذ ذلك اليوم صرت أراقب الناس بعين أخرى. أرى الرجل الذي يدخل المسجد منكسر الظهر، ثم يخرج منتصب القامة. وأرى الشاب الذي أثقلته الدنيا، فيجلس دقائق بعد الصلاة يطيل النظر إلى المصحف، ثم يقوم وكأنه ألقى حملاً ثقيلاً كان فوق كتفيه. حتى الأطفال كانوا يتغيرون. يأتون يركضون وراء الكرة، ثم يصطفون خلف الإمام في سكينة، كأن أحداً وضع يده على قلوبهم فأطفأ ضجيجها. أدركت أن العرين يحمي الجسد ويحرس الروح.

كنت أعبر السوق يوم الثلاثاء، فرأيت رجلاً أنيق الثياب يحمل في يده أوراقاً بيضاء ويبتسم لمن يقترب منه. يعد الشباب بالوظائف والفقراء بالمال. والجميع بحياة أسهل قادمة. اقترب منه البعض وأخذوا الأوراق. ظلوا يقرأونها باهتمام. بينما وقف أبو طلال يراقب من بعيد. مسح يديه في مئزره: "الثعلب لا يدخل الحظيرة وهو يكشر عن أنيابه. يدخل مبتسماً."

التفتُّ إليه وابتسم هو الآخر. وأضاف: "ولهذا أوصانا آباؤنا أن نبقى قريبين من العرين."

بعد أيام اختفى لكن أثره بقي. شاب ترك دراسته وآخر باع أرض أبيه. وثالث انشغل بجمع المال حتى نسي الصلاة. كان أبي ينظر إليهم بحزن ويقول: "ليس كل ضياع يبدأ بالرصاصة الأولى. بعضه يبدأ بخطوة بعيداً عن الطريق."

في تلك الليلة لم أر الملثم ولا الأسلاك. ولم أر حتى الطريق الطويل. رأيت حي الياسمين كما هو. الأطفال يلعبون، وأبو طلال ينادي على بضاعته، وأمي تنفض الغبار من النافذة، وأبي يجلس عند الباب يشرب الشاي. ورأيت أدهم من جديد يخرج من المسجد. اقترب مني وربّت على كتفي. ثم قال: "حافظوا على العرين."

- سألته: "ومن يحافظ علينا؟"

- أشار إلى المئذنة. وقال: "ما دمتم لا تتركونها، فلن تترككم."

لم يخطر في بالي يوماً أن أسأل نفسي: كيف لا يراه الناس كما أراه؟ كنت أظنه جزءاً طبيعياً من الحي، مثل شجرة التوت أو البئر والمئذنة. في أحد الأيام جلسنا في الحديقة. كان الزوار يدخلون ويخرجون. بعضهم يركض. وبعضهم يتجه إلى السوق. وآخرون يقفون عند بائع الفلافل. أشار أدهم إلى ثلاثة شبان يضحكون عند بائع العصير. قال: "هل تراهم؟ بعد سنوات سيختار كل واحد منهم طريقاً. كما اختاروا عصائرهم المختلفة"

- "وكيف عرفت؟"
- "لأن الطرق لا تبدأ من الشوارع يا ياسر. الطرق تبدأ من القلوب والعقول المختلفة."

في تلك الليلة اقتحم الجنود الحي. أغلقت أمي الباب وصرخت: "لا تخرج يا ياسر." لكنني خرجت للقائه.

طال الحصار حتى الفجر. كانت الأزقة مغطاة بالحجارة. والدخان ما زال يتصاعد من إطار محترق. والمؤذن صعد إلى المئذنة كأن شيئاً لم يكن. وفي طريق عودتنا مررنا بجدار تهدم نصفه. عليه عبارة لم يبق منها إلا كلمات قليلة: "إذا سقط..." ثم فراغ. "...فتمسكوا..." ثم حجر يخفي بقية الجملة. فاقترب أدهم وأزاح التراب بيده. فظهرت الكلمات كاملة: "إذا سقط الرجال، فتمسكوا بالمساجد، فإنها تنجب رجالاً جدداً."

سألته: "من كتبها؟"

نظر إلى الجدار طويلاً. ثم قال: "ربما شاب رحل منذ زمن... لكنه لم يرحل حقاً."

في صباح أحد الأيام مررت مع أدهم من أمام المقهى الوحيد في طرف الحي. كان يعج بالشباب. دخان الأراجيل يتصاعد ويخنق المكان. شاشات معلقة على الجدار. أصوات مرتفعة وسباب وضجيج لا ينتهي. جلس بعضهم ساعات طويلة يراقب الأخبار، ثم يخرجون كما دخلوا، لا يحملون إلا مزيداً من الغضب.

وقف أدهم عند الباب. نظر إلى الوجوه. ثم قال: "أتدري ما الفرق بين هذا المكان والعرين؟"

هززت رأسي بالمعرفة. قال: "يجلس هنا الناس متقابلين وقلوبهم متباعدة. وهناك يقفون متراصين، وقلوبهم متقاربة ولو لم يعرف بعضهم أسماء بعض."

واصلنا السير. وقبل أن نبتعد سمعنا رجلاً يصرخ في وجه آخر. وتطايرت كراسي البلاستيك في الهواء. التفت أدهم إليّ: "أرأيت؟! إذا غاب العرين كثرت الأوكار."

في الأسبوع نفسه عاد الرجل. حتى إن بعض الشباب بدأ يسخر من أبيه لأنه ما زال يعمل في الأرض. ومن جده لأنه ما زال يفتح المصحف بعد الفجر. راقبت المشهد بحيرة. قلت لأدهم: "يبدو مشروعه ناجحاً."

ابتسم بأسى: "الثعلب يعتني بفرائه أكثر من الخروف."

مرت أسابيع ثم أغلق المتجر واختفى. واختفت معه أموال الناس ومبادئهم. وقف الرجال عند الباب يطرقونه عبثاً. وبكت امرأة باعت حليها لتعطيه المال. وجلس شاب على الرصيف يضرب رأسه بالحائط. أما أبو طلال فاكتفى بهز رأسه. وقال: "قلت لكم. الثعالب لا تترك خلفها إلا الريش."

في تلك الليلة حلمت للمرة الأولى أنني أسير وحدي وأمشي في صحراء واسعة. توقفت وسمعت صوت أدهم. لم أره. لكنني سمعته بوضوح. قال: "لا تنظر إلى الزينة. انظر إلى النهاية."

استيقظت قبل أن أخطو. لكنني بقيت طوال النهار أفكر لم يعد الحلم يزورني كل ليلة. صار يأتيني متى شاء، ويغادر متى شاء، كأنه لم يعد يحتاج إلى إذن مني. وفي كل مرة كان الملثم يقترب أكثر. حتى صرت أشعر بأنفاسه. لكن وجهه ظل غائباً.

في مساء قائظ من تموز اجتاح الجنود حي الياسمين. دارت الآليات الثقيلة عند المدخل وأغلقته. وصعد القناصة إلى أسطح البنايات. انطلقت صافرات الإسعاف قبل أن يبدأ إطلاق النار. وركض الناس. أما أنا فبحثت بعيني عن أدهم. وجدته واقفاً عند رأس الزقاق. هادئاً على غير عادته. لا يركض ولا يصرخ، ينظر فقط. فصرخت: "أدهم... انتظر!"

التفت إليَّ ثم اختفى بين الناس.

في اليوم التالي ذهبت أبحث عن أدهم، فقلبي يرفض ما يعرفه عقلي. طرقت باب بيتهم بعناد لا أفهمه، ففتحت أمه وهي ترتدي ثوباً أسود. ابتسمت حين رأتني، لكن ابتسامتها تلاشت عندما قلت بإصرار: أريد أدهم.

تجاوزتها بعيني لأفتش عنه في الساحة وعند النافورة كما لو أنه سيظهر. نظرت إليّ بحزن عميق وقالت:

- "نسيت يمّا يا ياسر!؟ أدهم استشهد."

هززت رأسي أرفض الحقيقة وقلت:

- "لكنه يرافقني كل يوم إلى المدرسة والجامعة والمسجد."

ارتجفت شفتاها واستندت إلى الباب، ثم انهمرت دموعها. عندها خرج والده. اقترب ووضع يده على كتفي قائلاً:

- "يبدو أنك بتحبه كثير يا ابني." رفعت رأسي وأجبته بفخر: "هو أخي.“

تنهد الرجل واستدار عائداً، وعاد بعد لحظات يحمل إطاراً وناولني الصورة، وما إن وقعت عيناي عليها حتى انطفأ كل ما حولي.

كان أدهم يحدق إليّ من خلف الكوفية نفسها التي طالما رأيتها في أحلامي، وعلى زاوية الصورة كُتب: "الشهيد أدهم..."

اختفى الحي والبيت والشارع، ولم أعد أسمع سوى دقات قلبي المتسارعة. تمتمت: "مستحيل..."

فقال والده: "أنت بتعرف أنه استشهد يوم اقتحموا المخيم. إنت اللي حملته للإسعاف"

ظللت أحدق في الوجه الذي سبقني آلاف المرات إلى المسجد وإلى الطريق، الوجه ذاته الذي كان يزور أحلامي كل ليلة. تراجعت وجلست على عتبة البيت عاجزاً عن الكلام. جلست أمه إلى جواري ومسحت على رأسي كما كانت تفعل لنا صغاراً، ثم قالت وهي تنظر إلى السماء:

- "كان يقول دايماً إنه الإنسان إذا صدق مع الله ما بغيب. الجسد بيرحل يمّا، أما الطريق بيظل في القلوب وفي الدعاء وفي كل خطوة مشاها نحو الخير."

خرجت من عندهم مثقلاً بما لا يُحمل. كنت أهرب إليه كل ليلة كما يلوذ الغريق بخشبة. فأظن أنني أستعيد نفسي، لكنني كنت أعود مع كل صباح أكثر هشاشة. كقطعة "قرشلة" تغمسها أمي في الشاي؛ تنتفخ قليلاً قبل أن تتفكك وتذوب، فتتبعثر معها ذكريات الطفولة وأيام الرفقة.

هكذا كنت مع أدهم؛ كلما حاولت أن أتشبث به لأتماسك، اكتشفت كم ترك غيابه من فراغ في روحي، وكم ظل حضوره أقوى من الغياب نفسه.

أمشي بلا هدف. وصلت مع أذان المغرب. جلست في المكان الذي اعتاد أدهم الجلوس فيه. وضعت يدي على السجاد وكان دافئاً. كأن أحداً نهض منه قبل لحظات. رفعت بصري نحو المحراب. ورأيت طفلاً يقف في الصف الأول. يحاول أن يقلد الإمام. خلفه وقف أبوه يعدل كتفيه برفق. ورأيت فوق رف الكتب نفس الكتاب، ولكنه يتمرد على البقية ويبرز للخارج.

لم أعد أذهب إلى بيت أدهم. في كل مرة أصل إلى بابه أتراجع قبل أن أطرق الباب. أخشى أن تفتح أمه الباب، فأرى في عينيها السؤال نفسه: كيف يمشي معك من سبقك إلى السماء؟

حلَّ رمضان وتبدل حي الياسمين. قبل المغرب بدقائق الأزقة تمتلئ بصواني الطعام وأطباق التمر، وأكواب اللبن والخروب والتمر هندي التي تتنقل من بيت إلى بيت. إذا نقص السكّر في دار وجدته في دار الجيران. وإذا غاب الأب عن مائدة جلس مكانه قريب. وحين يرتفع أذان المغرب، تنطفئ الحركة، فالمدينة تأخذ نفساً واحداً. ثم يبدأ الناس بالتوافد إلى التراويح. فالوجوه تعرف بعضها ولو التقَت لأول مرة.

في الليلة السابعة والعشرين خرجت بعد التراويح. جلست على درجات المسجد. مرَّ أبو طلال بعربته ولم يبق فيها إلا كوز ذرة واحد. ناداني: "تعال يا ياسر."

اقتربت فناولني الكوز الأخير. قلت: "وكم ثمنه؟"

- هزّ رأسه. "هذا ليس للبيع."
- "لمن إذن؟"
- "للشهيد الذي لا يزال يجلس جانبك."

تجمدت في مكاني وحدقت في وجهه. سألته بصوت خافت: "كنت تعرف؟"

قال وهو ينظر إلى المئذنة: "كل الحي يعرف. أما أنت فاحتجت وقتاً أطول."

ثم مضى يدفع عربته حتى ابتلعته العتمة.

مرت الأعوام وشابت لحية أبي. ورحل أبو طلال تاركاً عربته لابنه. وصار الأطفال شباباً يحملون أبناءهم على الأكتاف. أما حي الياسمين فلم يتغير. كان كل فجر يبدأ بالأذان. وكل مساء ينتهي عند باب المسجد. وحين تُكسر نافذة تصلحها الأيدي نفسها. وحين يسقط جدار يرفعه الرجال. الحي تعلم أن يبقى واقفاً مهما تعبت قدماه.

وفي صباح ربيعي كنت أعبر الساحة. رأيت صبياً يركض خلف حمامة. تعثر فسقط على ركبتيه. وقبل أن أبادر لمساعدته، سبقني رجل وأمسكه من ذراعه ونفض الغبار عن ثوبه ومضى.

فتحت عيني واختفى كل شيء، أدركت أن الحكاية لم تكن عن أدهم ولا عني. ولا عن حي الياسمين وحده. كانت عن كل قرية ومدينة ومخيم في فلسطين خرجت إلى الساحة. ورفعت بصري إلى المئذنة. وقلت:

- العرين الذي يسكن القلوب لا تقدر عليه معاول الأرض كلها.

ثم مضيت ولم ألتفت خلفي. لأنني كنت أعرف أن الطريق الذي يبدأ من العرين لا ينتهي أبداً.

واستوت على الجودي

سماؤها تئنُّ من الصمت، ورمالها تتسرب مع طلوع الشمس على صدر البحر الأزرق، ودمع الموج لم يجف، تقف غزة هناك. مدينة صغيرة تتمسك بالحياة بين أنياب الحصار، عصفور يحمل نفسه بجناحيه المكسورين ويرفض السقوط. بيوتها وشوارعها الضيقة تعج بالأمل لتحكي سراً واحداً:

- هنا تخلق المعجزات من رحم اليأس.

في زاوية من المدينة تختبئ أحلامهم تحت الأنقاض. عليٌّ يقف أمام الحشد وعيناه تشعّان بالأسى، بريق نجم في ليلة حالكة. خطواته جراح تتحوَّل إلى حكاية:

- لنبدأ من حيث انتهى الأمل؟

هكذا قال لهم، وذكرياته الغزيّة تتدفق رافضة الجفاف. هل سمعتم من قبل قصة تروى بالدم؟ هذه قصتي وصوتي الذي لا تقهر:

غزة ليست أرضاً ندفن فيها كما أرادوا لنا، أو مكان للسكن، غزة قصة خلود وصمود وإيمان لا يتزعزع. لقد رأيت بأم عيني الحياة هنا. سنابل تنبعث من تحت جنازيرهم، والحياة هنا على الرغم من مصاعبها تختصر في نفس واحد بين الرصاص والحياة، ولا تزال تخفق بقلوب تعبت لحد الحناجر. رأيت أمهات يفقدن أبناءهن، ثمّ يصمدن أكثر، وشباباً يزرعون الثأر، ويضحون بكل شيء من أجل أن تبقى هذه الأرض حرة.

علمتني غزة أنَّ الألم بداية النصر. والجذور العميقة في الأرض وفي سماء تحميها من العواصف. نحن هنا ولن نرحل، فهذه الأرض جزء من إيماننا وتاريخنا، ومسرى نبينا ومعراجه وطريق الأنبياء.

علي شاب في العشرين من عمره، يتوجه صباحاً إلى جامعته، ويحمل بين ضلوعه أحلاماً أثقل من كتبه. كل صباح يقطع أزقة "خانيونس" الضيقة، وتلاحقه ضحكات الأطفال وأناشيدهم القصيرة، وهمسات الأمهات اللواتي يعرفن ثمن الأمل جيداً. تصل همساتهن إلى روحه وتدفعه إلى الأمام.

- "روح... الله معك، وربنا يوفقك يا ابني"

فالأمل في غزّة عمره قصير. أقصر من عمر فراشة بلا جناحين في غابة مليئة بالعناكب.

ذات صباح علي يقلب صفحات كتابه، فحطمت قذيفة هدوء المدينة. لقد عادت الحرب مرَّة أخرى، عاصفة من حديد ونار تغرق المدينة بالدّماء. وفي طريقها تبتلع الضحكات والأغنيات قبل أن تقتلع الشوارع والبيوت.

جيش العدو يجتاح المدينة بوباء أسود من آلياته، ويبدأ هجومه والقذائف تنهمر من السَّماء، والبيوت تراكمت فوق بعضها أسرع من أوراق الخريف المتساقطة من إعصار. وسط هذا الجحيم وقف علي بشيء أكثر ثقلاً، سؤال وحيد:

- كيف يحارب الإنسان دون سلاح عندما يصبح كل ما حوله ضده؟

دقائق هذا احتاجه الرعب ليفتك بغزة. النساء يجررن أطفالاً مبعثرين في إعصار الدم، صرخاتهم تثقب سماء اختنقت بدخان كثيف، حتى الشمس -التي شهدت كل شيء- لم تعد ترى شيئاً.

وعلي ذلك الشاب الذي كان -قبل قليل- يقلّب صفحات كتابه بحماس، يقف الآن في قلب الجحيم، عقله يرفض تصديق أن هذا كابوس لا يُصحى منه. ركض بجنون بين الحطام، ويداه تحملان جريحاً بعد جريح، ودموعه الساخنة تذوب في دماء الغرباء، في محاولة يائسة لغسل جراح لا تغسل.

اكتشف معنى أن تكون بطلاً بدون خيار. فالأبطال الحقيقيون لا يختارون معاركهم، فالمعركة تختارهم.

وسهام الأم الشجاعة، تختبئ مع أطفالها الثلاثة تحت طاولة في منزلها. لم يكن أصغرهم ياسر يعرف ما الموت. فأمسك بذراعها وسألها بصوت بريء:

- ماما، هل العدو وحش حقيقي؟

ابتسمت سهام وهي تخفي خوفها: لا يا حبيبي، الوحوش لا تعيش إلا في القصص الخيالية.

سهام أم شابة في الثلاثين من عمرها، تحاول حماية أطفالها تحت الأنقاض، وبجانب جثة زوجها الممزقة. ياسر يرتجف من الخوف، ثم سألها وهو يراها تخفي دموعها:

- أمي، لماذا لا تتوقف الأصوات؟

- ستتوقف يا حبيبي، وغداً ستشرق الشمس.

الشَّمس لم تشرق بعد تلك الليلة، فالوحش الذي رآه طفلها حقيقية واقعة، وفي الليلة المظلمة العاشرة توقفت دقات قلب ياسر من الرعب، وأمه تحتضنه بين ذراعيها وتهدهده، وتراقب النّجوم علّها تواسيها.

لقد سكتت أسئلة ياسر إلى الأبد. فجسده الصغير لم يحتمل الجوع والبرد والخوف، وسهام تحمل جثته ولا تبرد من حمم القذائف، فصرخت في وجه الطائرات المحلّقة في السماء:

- لماذا... لماذا يموت الأطفال وعالمنا صامت؟

جارتها أمينة تجر ابنها أسامة بين الحطام، ويداه تتشبثان بدميته المحروقة، وهي تحمل رغيف خبز متفحماً التقطته من بين الجدران المنهارة.

- الأمطار ستكون باردة هذه السنة.

قالت في أذنه وعيناها تراقبان السماء، وعند منعطف الشارع توقفت ليلى أمام حذائها الأحمر تحت الركام. ركضت إليه تنظفه بكمّ ثوبها:

- بابا شفت؟ رجعت لنا أشياء من المدرسة.

صرخت نحو الفراغ، والرياح حملت صوتها إلى مكان لم يعد فيه أحد يسمع، وفي الخيمة التي تهتز مع كل زفرة رياح، جلس الجد أبو محمد أمام فنجان القهوة ويداه ترتجفان وهو يحاول إشعال آخر سيجارة له:

- يا زينة، القهوة بتعكر إذا ما شربتيها.

ثم سكبها على الرمال ليروي شيئاً لن ينمو. وخارجاً الدبابات تدقُّ كل ساعة بالموت، فانكمشت أمينة حول أسامة تحت سلة الملابس: "ما تخاف آخرتهم يروحوا".

لكنها شعرت بأنفاسه السريعة على كتفها، فعادت تحضنه بقوة، وتحاول إعادته إلى جسدها الذي خرج منه ذات يوم.

ليلى ما زالت تضم حذاءها وتغمض عينيها، تتخيل صوت جرس المدرسة، وانفجار قريب يذكّر الجميع بأن الجدران الوحيدة التي ما زالت قائمة في غزة هي جدران الصبر، والغد في غزة ليس سوى يوم خراب آخر.

الليل يسقط كل يوم والظلام مختلف لا يخفي شيئاً، ويكشف كمّ الفراغ الذي تركه الغائبون. وأسامة يغمض عينيه أخيراً، وأمينة تقول في الظلام لزوجها:

- "أنت قلت لي عنا بيت جديد بكرة، صح؟"

الصباح ليس ببعيد عنهما، يجلس القائد يحيى وعيناه تشعان بإصرار وعزيمة. اقترب منها ووضع يده على كتف أمينة، وقال بحزم:

- دم أسامة وغيره لن يُنسى. سيبقى خالداً في قلب كل واحد منا. ما دامت قلوبنا لم تمت، فإن غزة لن تفنى. لا تبكي يا أمينة سنواصل القتال لأن الحرية لن تهزم.

نظرت إليه أمينة بعينين ملؤهما اليأس: لكننا نموت من الجوع والقصف، حتى الماء أصبح نادراً." فأجابها:

- ليس الماء وحده ما نحتاجه للبقاء. نحن بحاجة إلى الإيمان لننجو، والإيمان هو الطريق لننتصر.

جلس يحيى وعيناه المتعبتان - اللتان شهدتا مئات الجنازات والمعارك - تلمعان جمرة في رماد. اقترب من الحاجة التسعينية أم مروان التي تقبض على حذاء ابنها الشهيد، على آخر ذرة من الأمل. وضع يده المتصلّبة على كتفها، فشعرت بحرارة إصراره تخترق ثيابها:

- دم مروان ودم كل شهيد لن يذهب سدى. اصمدوا يا أهل الإيمان. ما دام فينا قلب ينبض، فغزة لن تنحني.

دمعها يسقط على يده التي تحمل آثار حروق القنابل. فنظرت إليه بعينين جرحهما مفتوح:

- نحن لا نموت بالرصاص فقط يا يحيى -بصوت يذوب من الجوع- الطفل يموت وهو يبحث عن قطعة خبز، والعجوز يموت وهو ينتظر جرعة دواء. حتى الماء صار حلماً نراه في المنام.

- نعم الجوع قاتل والعطش قاتل. لكن هناك عطش أخطر من عطش الماء -يشير إلى صدره- عطش الروح للإيمان. وهذا ما لن يسلبه منا حتى ألف قنبلة.

خلفهم أحمد، طفل الأحد عشر ربيعاً، يملأ دلوين من ماء الأمطار. توقف لينظر إلى السماء، ثم قال ببراءة تكسر القلب:

- "خالي، يقولون إن الشهداء يشربون من أنهار الجنة. لو بعرف الطريق كنت جبت لكم شوية ماء منهم".

سكت الجميع. فالسماء نفسها تأخذ نفساً عميقاً من هول كلماته. التقط يحيى حجراً من الأرض، وحفر على الجدار المقابل للخيام: "غزّة لا تموت. إنها فقط تنزف كي تروي شجرة الحرية".

ثم التفت للجميع، وعيناه تشعان في قبو مظلم:

- من يريد أن يروي هذه الشجرة معي؟

وواحداً تلو الآخر بدأت الأيدي ترتفع. حتى يد النساء الهزيلة ارتفعت، وفي عيونهن شيء لم يظهر منذ زمن. شيء يشبه الأمل. مرت الأيام أطول من السنين والشهور قرون. المدينة صارت جثة متحللة تحت الشمس. يقول الناس بعضهم لبعض:

- حتى الموت قد يتعب منا.

والمجاعة ضربت الجميع، ولا أحد يبحث عن علاج. الأمهات يغرفن من قدور المذلة، ويطبخن أوراق الأشجار وقشور الفاكهة، وما يمكن أن يملأ بطوناً صغيرة تهتز من البكاء.

في بيت منهار ليلى ذات السبع سنوات تضم ركبتيها إلى صدرها الناحل، وبطنها يقرقر جوعاً يأكلها من الداخل:

- "ماما ليش ما في خبز؟"

صوتها مكسور وعيناها الكبيرتان تتبعان يد أمها وهي تحرك ماء ساخناً في إناء صدئ، لا شيء فيه إلا بعض الأعشاب البرية. أوقفت الأم الملعقة، فالسؤال قد ضربها في مقتل:

- "الطحين صار مثل الذهب يا حبيبتي، وأغلى منه."

قالت وهي تحاول أن تبتسم، لكن شفتيها المتشققتين لم تستطيعا تحمل ثقل الكذبة:

- والجوع صار يسكن فينا كلنا، بيته الثاني.

ثم خرجت ليلى تحمل جرة ماء تتنقل بها بين الأنقاض. الجرة تشبه قلبها المحطم، لا تزال تحاول أن تحتفظ بما تبقى بداخلها. رأت الكلاب الهزيلة تترنح بين الركام. كلب أبيض ببقع سوداء -ربما كان مدللاً- وقف أمام جثة شاب، وأنفه يرتعش وهو يشم رائحة اللحم البشري. نظر إلى ليلى والأطفال الجوعى الذين يراقبونه من بعيد، وعيناه تفيضان دموعاً –يبدو أنه يعتذر- قبل أن ينقض على ما تبقى من ساق الشهيد.

- لماذا تتعبين نفسك يا حلوة؟

سألتها أمها وهي تعود منهكة، قدميها الصغيرتان تنزفان من كثرة السير بين الحطام. توقفت الطفلة ونظرت إلى أمها بعينين تكادان تختفيان في محجريهما.

- "لأنه سامر يبكي، وأنا ما بقدر لدموعه ثانية..."

لم تستطع ليلى الصمود أكثر، وبعد أيام قليلة ارتقت ميتة مع جوعها وبؤسها، قذيفة أبقتها راكدة بين الحطام، تاركة وراءها جرتها مكسورة، والحي يغرق بالقبور والأم تبحث عنها، سمعت صوت خدش خلف الأنقاض. كلب أسود كبير واقف عند جثة ليلى الصغيرة، عيناه تلمعان في الظلام. نظرت إليه الأم من بعيد، لم تصرخ أو تبكي:

- "تعال. تعال كل... هي لم تعد تحتاج هذا الجسد..."

لكن الكلب لم يقترب. أدار رأسه بعيداً وبدأ ينبح بصوت مبحوح ينعى إنسانيةً مفقودة قبل أن يختفي في الظلام.

في الصباح وصلوا لجثتها، ووجدوا الكلب الأسود ممدداً جانب ليلى. مات منتحراً بالجوع رافضاً أن يعيش في عالم لم يعد فيه حتى للحيوانات أن تحتفظ بوحشيتها. فهناك من هم أكثر توحشاً منها.

وفي يد ليلى المقبوضة حفنة من القمح - جمعتها من بين الأنقاض طوال أيام- كان يمكن أن ينقذها لو أكلتها، لكنها اختارت أن تخبئه لأخيها.

سامر لم يبك عندما وجدها. جلس بجانبها وأخذ يلعب بجرتها المكسورة، منتظراً أن تعود كما تفعل كل يوم. لكن الشمس غربت ثم أشرقت، وليلى لم تعد والجرة بقيت.

فوجئ العدو الذي توقّع سقوط غزة سريعاً بالمقاومة الشرسة. تحطّمت خططه واحدة تلو الأخرى، ورغم حصاره القاسي ووعوده الزائفة لم ينحن أحد. حتى حين عرض "الرحمة المسمومة"، نهضت عجوز شمّاء والتقطت حجراً وهزّته في وجههم وهي تصرخ:

- "يا أحفاد القردة والخنازير لن نركع ولن نموت إلا أسياداً..."

في أطراف رفح، الظلام كثيف في نفق تحت مزرعة، ولا يخترقه سوى وهج شمعة تتلوى، وروحها تحترق مع ثلاثة ظلال تتحرك حول نورها الضئيل.

خالد دمه ينزف تحت ضمادته، وعمار الذي لم يعد يذكر لون السماء، وياسين يحمل في جيبه آخر رصاصة معه. فهزَّ خالد كتفه المجروح وهو يستند إلى الحائط الرملي:

- أتذكرون غزوة الأحزاب؟ حين أحاط المشركون بالمسلمين كالضباع الجائعة. يحصون أنفاسهم. حتى قضاء الحاجة صار مغامرة؟

فانعكس لهب الشمعة في عيني عمار الواسعتين: وكيف انتصروا وهم محاصرون في المدينة؟

أدار خالد وجهه نحو الظلام، ليرى ما فوق عين النفق:

- إنها السماء، عندما بلغت القلوب الحناجر من الخوف. لم يعد هناك مكان للفرار. حينها ينزل النصر مطراً بعد القحط. -سعل سعلة جعلت ضلوعه ترتجف- الشدة تصنع الأبطال يا رفاقي. مثل النار التي تصنع من الحديد سيفاً.

رفع ياسين رأسه ليستطلع صوتاً في البعيد:

- وإذا اجتمعت قوى الأرض ضدنا؟ نحن لسنا سوى حفنة من الرجال بين أنقاض غزة وفي أنفاقها؟

أطفأ خالد الشمعة. في الظلام الدامس اشتعل صوته:

- في تلك الغزوة هناك صخرة وقفت في وجه الصحابة أثناء حفر الخندق. عجز من اليأس فوق الصخرة رافق الصحابة. ثم انفجرت ضربة معول في الظلام، الأحجار والصخور تهتف باسمه في الأقصى، لم تكن كلمات النبي (ﷺ) عن فلسطين أحاديث فقط. كانت بذور أمل تُغرس في قلب الأمة. حين ذكر عسقلان رسم خريطة للعودة، وحين تحدث عن المسجد الأقصى، أضاء درب المحررين عبر القرون. "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..." كان يقول (ﷺ)، فيجعل من الأقصى قبلة للقلوب قبل أن يكون قبلة للأقدام. وفي حديثه عن الرباط في أرض فلسطين، كان يمنح كل حجر فيها قوة صمود: "أرض المحشر والمنشر، والرباط إلى يوم تقوم الساعة"

حتى تلك الصخرة التي ضربها في غزوة الأحزاب فتناثرت منها مفاتيح الشام واليمن وفارس، نبوءة أن صخرة قبة الصخرة تحمل مفاتيح القدس التي ستعود يوماً. وكل ذرة تراب في يافا وحيفا، وكل حجر في عكا يحمل ذكرى كلماته وقال ياسر:

- لن تزول قدم مرابط في ثغر فلسطين حتى يشرق الفجر. هذه الأرض وصية النبي الأخيرة، كتبها بدماء الشهداء ودموع الثوار.

ضربة واحدة منه -قال عمار- أعطيت مفاتيح الشام. وضربة أخرى تهز النفق. والحجارة تتناثر أعطيت مفاتيح فارس. ارتجفت الأرض تحت أقدامهم وضربة أخيرة فانفجار التراب والصخر. أعطيت مفاتيح اليمن..."

أشعل عمار الشمعة مرة أخرى. وفي الضوء المتذبذب رأوا دموع خالد تسيل على ندوبه:

- تلك الصخرة التي ظنوها نقمة صارت مفتاح الفتوحات.

التقط ياسين حجراً من الأرض، ونظر إليه يتأمل حالهم في نفق المدينة أم نفق غزة، قلبه معول يهتز:

- إذن. دباباتهم ليست سوى صخور ينقصها ضرباتنا.

ضحك خالد ضحكة جعلت جرحه ينزف من جديد:

- بالضبط، كل ضربة منك يا ياسين، وكل رصاصة من عمار، وكل شهيد هو ضربة جديدة في صخرة الظلم. وسيرد الله المحتلين بغيظهم ولن ينالوا خيراً.

ومن بعيد سمعوا دبابة تقترب. التقطوا أسلحتهم بابتسامات لم تظهر على وجوههم منذ أشهر. النفق الضيق صار أوسع من كل ساحات القتال. وقالوا:

- الآن تعالوا لنُكمل ما بدأه الأجداد.

أدركوا أن الشَّدائد بداية النصر، وأنّ الله لا يتخلى عن عباده أبداً، وهو معهم حتى في أحلك لحظاتهم. ويكمل علي روايته:

- هنا في غزة. تحت القباب المحطمة، يولد الأمل من اليأس كل صباح.

كان عليٌّ يعرف أن الأذن التي ناشدوها لا تسمعهم، لكن غزة ظلت تحكي قصتها كل ليلة بالدم، تقف خلف الجدار تنتظر قادماً ما. ظل يصف للعالم رائحة الخبز تحت الأنقاض، وصراخ الأمهات اللواتي يبحثن عن أطفالهن بين الحطام، ودويّ القنابل. في إحدى الليالي كان يروي لها قصة الطفلة "لمى" التي رفضت ترك بيتها المدمر لأنها تنتظر عودة أبيها، ولاحظ شيئاً غريباً. قطرة ماء انحدرت وسالت على خدّ الجدار العتيق بالقرب من رفح. أدرك عليٌّ يومها أن بعض القصص لا تحتاج إلى أذنٍ تسمع.

الأنفاق الضيقة التي حفرتها أياد متورمة من التعب صارت شرايين مقاومة تنقل الدماء والذخيرة وقصص النصر.

النساءُ الثكالى اللواتي دفنَّ أطفالهن يخبزن اليوم خبز الصمود من طحين القهر والشعير. والأطفال الأيتام الذين رأوا الموت قبل أن يعرفوا الحياة، يحملون في حقائبهم دفاتر مدرسية مكتوبة بالدم.

العدو يحاصرنا، ولكنه لا يعلم أن كل بيت مهدم تحول إلى قلعة من لحم ودم وعزيمة. يحاول تجويعنا فيكتشف أن بطوننا الممتلئة بالإيمان أقسى من الحجارة. يمنع عنا الماء فيتفجر من عيوننا ينابيع كرامة لا تنضب والعالم يتفرج ويتناقش ويتخاذل، لكن غزة تعلم الأرض معنى جديداً للقوة.

الخوف هنا لا يقتل الشجاعة. يذوب فيها، والجوع لا يكسر الإرادة. يحولها إلى سكين يشق طريق النصر. والدموع لا تسقط سدى. تنبت زيتوناً في كل أرض يطؤها المحتلون. حتى الموت نفسه يقف حائراً في غزة:

- كيف لشعب أن يموت ألف مرة. ويقف في كل مرة أكثر صلابة من الحجر؟

العدو يحاربنا بأسلحة الدمار، ونحاربه بأرواح لا تعرف السقوط. يحاول إغراقنا في الهزيمة، لكنه ينسى أننا تعلّمنا السباحة في طوفان النصر، غزة حيث الضعف قوة واليأس أمل، والموت بداية حياة جديدة. هنا تكتب النهايات بدماء الأحرار، ليُفتتح أول فصل من تاريخ النصر.

في تلك الأيام الصعبة التي عاشها علي بين الأنقاض، صار صوت القصف هو النشيد اليومي، فتذكر قصة الطوفان العظيم. لكنه لم يعد يرى الماء ذلك العذاب الذي أغرق الظالمين. رأى في طوفان نوح أول مقاومة في التاريخ. سفينة تقف أمام جبروت الماء، مثلما تقف غزة اليوم بسفينتها المحطمة لكنها لا تغرق.

الطوفان ماء غسل الأرض من الكفر والضلال، وها هو طوفان غزة نار تطهّر العالم من يهود. ذلك الزمن أغرق الكفار بالمطر، وهذا الزمن يغرق الظالمين بدموع الثكالى ودماء الشهداء. ويرددها علي على مسمع الجميع:

- اللهم لا تذرْ على أرض فلسطين من المحتلين ديارا.

هي الكلمات نفسها، لكنّ الأبطالَ اختلفوا. نوح كان يدعو عن ظهر سفينة، ونحن ندعو من باطن نفق من رمال.

سفينة نوح حملت الأبرار إلى بر الأمان، وسفينة غزة تحمل أيتاماً يصنعون من جراحهم أشرعة الأمل. نوح يعرف متى سينتهي المطر، أما أطفالنا يعرفون أن السماء ستمطر حريّة ولو بعد حين.

يخاطب صديقه عبد القادر مبتور القدمين:

- الطوفانان يتشابهان في شيء واحد: كلاهما تحذير للعالم أن الظلم لا يدوم. وطوفاننا في غزة رغم كل الدمار لم يغرق الضمير بعد، بل أخرجه من سباته العميق.

الأمواج التي تواجهها سفينتنا اليوم من نيران المحرقة وتخاذل الأشقاء، وصمت البشرية، ومع ذلك السفينة لا تزال تبحر، لأنها تعرف أن كل طوفان في التاريخ يسبق فجراً جديداً.

- الفرق بيننا وبين قوم نوح -يمسح غبار القنبلة عن وجه صديقه- أننا لن ننتظر النجاة. نحن سنغير الخريطة.

خرج علي من تحت الأنقاض حافي القدمين ولم يكن وحده. هناك العشرات والمئات، بل الآلاف من الشباب الذين نزعوا رداء الخوف كما تُنزع ثياب الموتى قبل الدفن.

- انظروا -صاح ويشير إلى البحر المحاصر- هذا ليس طوفان ماء يغرقنا. إنه طوفان رجال سيغرقونهم في جحيمهم.

المعارك التي ينفذونها برقاً يخطف الأبصار قبل الأسماع. ضرباتهم تذكر العالم بقانون قديم. "الأمم لا تُدفن تحت الأنقاض. بل تُولد من بينها."

انحنى علي فوق خريطته حين انشقّ الظلام بسحابة سوداء تتحرك فوق مواقع العدو. لكنها لم تكن دخاناً بل طيوراً سوداء تحمل في مناقيرها حجارة من غزة، الأرض نفسها تقذف بذور ثأرها.

علي يعدّ العدة لضربة جديدة، رأى في السماء شيئاً أغرب من الخيال، سحابة سوداء تتشكل فوق مواقع العدو من طيور "أبابيل" تحمل بين أجنحتها قذائف.

عبد القادر -مغروراقاً بالضحك والدموع-:

- حتى الطيور صارت تقلع من أرضنا بحمولتها.

يقول مقاوم آخر: ما هذا الذي سمعناه.

علي يتأمل هدير الأمواج: هذا صوت ميناء الظلم وهو يغرق. يظنونه حصناً، فإذا به تابوت.

عبد القادر مسبل جفنيه كي لا تُرى دموعه:

- عجيب، إمبراطوريات تدمر نفسها بأيديها، ونحن -بلا جيش- نعلمهم معنى الصمود.

علي مشيراً إلى الغيوم البيضاء الأولى منذ سنوات:

- انظروا، هذه المرة نحن الماء الذي يغسل عار التاريخ والعروبة لا ضحاياه.

في الشمال، كان لبنان -الجبل الذي صار سحابة- يصرخ عبر الحدود:

- خذوا ذخيرتنا وخبزنا وحتى أنفاسنا.

وفي الجنوب، اليمن يوزع صواريخه في كل مكان: ها هو الدواء الوحيد الذي نملكه.

أما العراق فقد انتفض من كرسيه المنهار: خذوا دمنا. ففي كل قطرة ذاكرة انتصارات.

دوي هائل يسمع في الأفق، و"مجاهد" يستطلع: أهذا صوت سقوط السور يا علي؟

- لا. ليس بعد، هذه أصوات قلوب محاصرة خلفه انفجرت غضباً.

لم يكن علي وحيداً في خندقه الضيق تحت الأنقاض. حين يقبض على سلاحه بيد متورمة من الجوع، يسمعها همسات التضامن القادمة من وراء الحدود، نداءات غريقين في بحر واحد. ثم همسات من الراديو المكسور تعلن: تونس... الجزائر... مصر... الملايين في الشوارع.

عبد القادر مبتسماً للمرة الأولى منذ أشهر: غزة لم تعد أرضاً غزة صارت نبضاً.

علي ملقِياً ببصره نحو الأفق حيث تلوح الأعلام: الطوفان ليس عقاباً هو الولادة الجديدة.

في ساعات الفجر الأولى رفح تستيقظ على دوي القصف، خرج يحيى من بين أنقاض منزل يحمل عصاه الخشبية التي رافقها إحدى وستين عاماً. في السماء طائرة مسيرة تطن كذبابة عملاقة، تبحث عن فريسة جديدة بين الأطفال العزل. رفع يحيى عصاه نحو السماء بيد تنزف لكنها صلبة من صخر القدس، صارخاً:

- يا أعداء الله لن تطيروا فوق أرضنا إلى الأبد.

أدار يحيى رأسه نحو الطائرة وابتسم ابتسامة يملؤها الرضا:

- سأريكم اليوم كيف تصنع العصا من الطائرة خردة.

في مشهد أبكى الحجر قبل البشر، بدأ يحيى يلوح بعصاه في الهواء ليصطاد حشراتهم، بينما الطائرة تقترب منه وصوتها أعلى من صوت وحش الجائع. وفي حركة بطولية ضرب العصا نحو الطائرة بقوة جعلتها تترنح في الجو سكرانة من الرعب.

- انظر يا أحمد، هكذا نطرد الذباب من بيوتنا.

صرخ يحيى بينما الدم يسيل من جرح في كتفه: وللحرية الحمراء باب بكل يد مدرجة يدق...

الفرحة لم تدم طويلاً. من بعيد سمع هدير دبابات تقترب. القائد الصهيوني صرخ من داخل إحداها:

- "اقتلوا هذا الرجل.."

انطلقت ثلاث قذائف مدفعية واحدة تلو الأخرى. الأولى دمرت ما تبقى من جدران المنزل. الثانية أطارت الكرسي الذي يجلس عليه يحيى. أما الثالثة، فحولت جسده الطري إلى شهيد شاهد.

وعصاه بقيت مرفوعة في يده كما لو كانت تحيي العالم. قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد، همس بكلمات سمعتها قلوب سكان رفح:

- خذوا عصاي. فهي أطول من كل طائراتهم. واجلسوا على كرسي فهو أبقى من كل دباباتهم.

في اليوم التالي انتشر الخبر ناراً في الهشيم. فلسطيني يعلم العالم معنى المقاومة الحقيقية بعصاه.

في رفح أصبح المكان الذي استشهد فيه يحيى مزاراً للثوار. والأطفال يأتون كل صباح ويرفعون عصيهم نحو السماء، يرددون: نحن جيش يحيى. وجنود العصا.

يحيى لم يمت. لقد صار أسطورة ترويها العصي لكل طائرة تحلق في سماء غزة هذه الأرض لا تحتل. وهذه السماء ليست لكم. لم يكن موت يحيى النهاية. في صباح اليوم التالي وقف أيمن بين الأنقاض حاملاً راية صديقه وعيناه تحترقان بنار لم تكن هناك من قبل فهتف:

- يحيى استشهد وروحه تسكننا الآن، وما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة.

ظهرت أمينة وسكينها اللامع في يدها يتحدى كل منطق:

- سأقاتل حتى ألتقي بأسامة ويحيى"

وبرز ملثم بكوفية حمراء مشبعة بدماء الشهداء:

- لن نبقى في القاع، -زمجر بصوت يشق الضباب ويعشقه الملايين-، "سيغادر كل الدخلاء أرضنا. والخزي والعار لمن وقفوا متفرجين.

ظن العدو أنه يحطم غزة، فوجد نفسه محاطًا بكراهية أشد من نيرانه. عند الفجر لم تكن المدينة سوى أطلال. وفي قلب تلك الأطلال، راية بيضاء متروكة علامة هزيمة. التقطها أيمن وكتب عليها بدمه كلمة واحدة:

- "نصر".

صارت الراية كفناً لكل شهيد رفض الانحناء. وصور الأمهات وهن يدفنّ أطفالهن هزّت العالم. ليلى، يحيى، أيمن... أسماء صارت أساطير تُروى في الخفاء. وبدأت أصوات الغضب تعلو أكثر: غزة لن تموت.

تدفقت المساعدات والشباب يبنون بيوتهم من جديد بحجارة الكبرياء. العدو وجد نفسه محاصراً بمقاطعة عالمية جعلت بضاعته لعنة يتوارى منها الناس. وبعد سنوات، وقف علي متكئاً على آلية مدمرة، ونظرة انتصار في عينيه.

- لم نربح بالرصاص، -قال لنفسه- بل بإرادة جعلت الموت نفسه يرتجف.

أشرقت شمس جديدة على غزة لم تكن تعرفها منذ زمن. المدينة التي تشبه سفينة نوح العظيمة، رست أخيراً على قمة أعلى من الجودي، إنه العالم لتروي لهم قصة الأمل الذي لا يموت.

في الزوايا بدأ الأطفال يلعبون بين أشجار النخيل الجديدة، والشيوخ يحكون لهم عن زمن كان الدم فيه يزرع الحياة، والحجارة تلد الأبطال. غزة تنفست أخيراً هواء الحرية وهواء النصر.

عاد عليٌّ إلى منزله المدمر، لكنه لم يعد ذلك الشاب الذي كاد اليأس يبتلعه. لقد صار أشبه بجذع زيتون ظنّه العدو ميتاً وجذوره تنبض بالحياة تحت الرماد. أخذ الموت أصدقاءه واحداً تلو الآخر، لكنه يعرف:

- هم ماتوا كما أحبوا واقفين لا راكعين.

الطوفان نقطة تحول في حياته. ذلك اليوم الذي أعاده إلى جذوره، إلى قيم الجدّ الذي حفر بيديه بئراً في الصخر، والأم التي علّمته أن دمعتها على شهيد تنبت زيتونة وقف الآن على شاطئ البحر مع رفاقه، ينظرون إلى الأفق كما لو أنهم يرون المستقبل ينبثق من بين الأمواج قال رفيقه محمد بصوته مع ضوء الفجر الأول بعد ليلة دامسة:

- ظننت الطوفان نهاية كل شيء. لكنه البداية الحقيقية لنا.

أدار عليٌّ وجهه نحو البحر: لولا الطوفان. لما عرفنا أن العزة تشترى بالدم، ولا تمنح بالعطايا.

لم يكن عليٌّ يلقي خطبة، كان يعلن ولادة قانون جديد، فانبرت المحامية فاطمة تكمله بحماس:

- الطوفان علّمنا أن قوتنا مخبأة فينا. نارنا تشتعل تحت الرماد.

أما عليّ فقد أمسك بحفنة رمل من الشاطئ، ثم أطلقها بين أصابعه لتحملها الرياح:

- لم يأخذ الطوفان منّا شيئاً يستحق، لقد أعطانا كل شيء، أعطانا أن الأوطان تبنى بأيدي لا تخاف الأمواج، وأرواح لا تقبل أن تعيش على الركبتين.

تحت شجرة ليمون محترقة، محمود وسعيد يتناقشان. رمى محمود بحصاة على الأرض ليسقط نظرية قديمة:

- يا سعيد. العروبة وحدها لا تكفي، جيش بلا عقيدة أوهن من قصر على رمال. سيجرفه أول طوفان.

أما سعيد، فقد حدّق في الأفق حيث الشمس تتوارى خلف الدخان المتبقي:

- أتعرف لماذا انتصرنا؟ لأن رصاصاتنا كتب عليها ‹لا إله إلا الله›. لأننا حاربنا بسيف القدس، لا بمجرد الحقد.

لقد فهم الجميع الآن أن النصر يقاس بعدد القلوب التي تؤمن أن الموت في سبيل الحق. هو الحياة الحقيقية.

في جباليا وبين أنقاض المنازل التي ما زالت تحكي قصص الصمود، جلس الجد أيمن محاطاً بأحفاده. أخرج صندوقاً من خشب الزيتون مغطى بطبقة من تراب المعركة، عليه بقع دماء متحجرة. الصندوق بحجم الكفّ، لكنه يحمل الكثير من الذكريات.

- هذا الصندوق ليحيى -قال بصوت يهتز بين الحزن والفخر-. صنعته يدا أبيّه من خشب شجرتنا هذه، قبل أن يستشهد.

فتح الصندوق ليظهر محتوياته. مصحف جيب صغير تظهر على أطرافه آثار تآكل من كثرة الاستخدام. إحدى صفحاته مفتوحة على سورة الأنفال، وبها بصمة إصبع دماء جافة. وقلم حبر أزرق كان يحيى يستخدمه لتدوين آيات قرآنية على جدران الأنفاق. حفنة تراب من باحة المسجد الأقصى، ملفوفة بعناية في قطعة قماش. ساعة يد متوقفة عند الساعة (4:17) لحظة استشهاده.

ومسبحة صغيرة من "عجم زيتون" القدس. رسالة أخيرة من ورقة صفراء من دفتر مدرسي، كتب عليها:

- إذا قرأتم هذا، فأنا الآن تحت الشجرة، جذوري مع جذورها. لا تبحثوا عن جسدي، بل عن أفكاري بينكم.

تناول أحد الأحفاد المصحف الصغير وقبله باحترام، وقالت الحفيدة "تالا" الصغيرة وهي تلمس القلم:

- لكنه يبدو عادياً جداً يا جدي.

ضحك الجد بعينين دامعتين:

- العظمة ليست في الأشياء يا تالا، بل في الأيدي التي تمسكها. هذا القلم البسيط كتب به يحيى آيات الحرية على جدران السجون. ثم أضاف وهو يمرر أصابعه على الساعة المتوقفة:

- هذه اللحظة لم تتوقف في الحقيقة، إنها تستمر في كل قلب يحمل الروح ذاتها.

أخذ مازن الحفيد الأكبر الصندوق بحرص وقال: سأحافظ عليه لأخبر أبنائي عن القائد يحيى.

لكن الجد هز رأسه: لا يا بني، ليس للحفظ، بل للاستخدام. خذ القلم وأكمل ما بدأه، واترك المجال لغيرك ليضيف إلى الصندوق.

مع غروب الشمس بدأ كل حفيد يأخذ شيئاً من الصندوق: واحدة أخذت المصحف لتكمله، وآخر أخذ حفنة التراب ليزرع فيها بإناء صغير، بينما قرر مازن ارتداء الساعة المتوقفة ليتذكر الماضي، ويعيش الحاضر بنفس الروح.

وفي الليل والجميع نيام فتح مازن الرسالة الأخيرة مرة أخرى. لكنه هذه المرة وجد سطراً إضافياً كتبه الجد قبل أن يسلّمه الصندوق:

- الآن أصبحت المسؤول عن كتابة الفصل التالي من القصة.

رحلتـــي مــــع العصـــا
(قصة عن الاستغفار)

يرفع رأسه من السجود، يستيقظ من حلم عميق. شمس الربيع تمدُّ خيطاً من دفئها ليلامس طرف وجهه المُجعَّد، ذلك الوجه الذي صار كتاباً مفتوحاً، وتحكي تجاعيده قصص الأيام التي مرت، وأخاديد الدموع التي حفرت طريقها إلى لحيته، أنهار صغيرة من الحكمة والتضرع.

أظلُّ أراقبه كما أفعل دائماً حتى ينهي صلاته. حركاته بطيئة، فالزمن يتباطأ حوله، ويمنحه ما يحتاج من وقار واطمئنان. يرفع يديه نحو السماء، يهمس لها بهمومه، ثم يمسح وجهه بلطف حتى آخر خصلة من لحيته البيضاء. تساءلت:

- هل هذا الارتعاش هو مجرد أثر من الزمن الذي لا يرحم؟ أم ترنيمة ترافق كلمات الاستغفار والدعاء التي يهمس بها بعد كل صلاة؟

يمسك بعصاه بحنان صديق قديم لا يفارقه. تلك العصا التي يقول عنها:

- من زيتونة البلاد، يكاد زيتها يضيء.

هي ليست مجرد عكاز يسنده، هي جزء من روحه تحمل رائحة الأرض، وذكريات الزمن الذي مضى. بها يشق طريقه، وبها يتذكر جسراً بين ماضٍ عاشه، ويعيش حاضراً بإيمان عميق.

جدي الحاج صبحي، أو "أبو رافع" كما يعرف في المخيم، يقترب من نهاية العقد الثامن من عمره. لا أعرف إن هو من يصحبني إلى المسجد، أم أنا أحب رفقته. في انحناء ظهره أرى تاريخاً طويلاً، ربما استقامة ماض مضى، أو اعوجاج حاضر لا أفهمه تماماً. بعد كل صلاة أقول له بعفوية:

- تقبَّل الله صلاتك يا جدي.

فيجيبني بهدوء: تقبَّل الله منا ومنك صالح الأعمال والأقوال، وغفر الله لنا ولك.

أحياناً عندما أراه متعباً، تدفعني الشفقة، فأسأله:

- لماذا لا تصلي في البيت؟

فيبتسم ابتسامة تضيء وجهه، ويعاتبني بلطف:

- ألا نجيب دعوة من ينادي علينا في اليوم خمس مرات؟

هذه الإجابة أربكتني. لم أفكر بهذه الطريقة من قبل. جدي الأزهري بفصاحته وطيب معشره، يعرف وضع الكلمات في مكانها الصحيح. ثم يتابع كلامه الدافئ:

- إنها النداء اليومي إلى اللقاء، ولبث الهموم والدعوات، لشحن النفس استعداداً للقاء القادم.

ازداد ارتباكي. وكلماتي تتدافع على شفتيَّ، ولا أعرف أيها يجب أن يخرج أولاً. قَلِقٌ عليه يتعب كثيراً في طريقه إلى المسجد، وكاد أن يقع أكثر من مرة. أنا وعصاه نتناوب على الإمساك به، وإجاباته دائماً تحيرني:

- من يقع في طريقه إلى لقاء خالقه، أفضل ممن يقع في معصية عدم اللقاء.

ويطمئنني بأنني لا داعي للقلق، فطالما سمع النداء وسار متكئاً على عصاه فلن يوقفه شيء إلا الموت.

تساؤلاتي تزداد كلما تحدث عن عصاه. يخاطبني بـ "صغيري"، وهذا يزيد من حيرتي:

- بماذا أنا صغير وقد قاربت على العشرين؟

يواصل حديثه. لو بقي يوم واحد من عمره فلن يتخلى عنها. كيف لا وهي الرفيقة له، كما اعتاد أن يصفها.

عبارتان قالهما جعلتني أدخل في متاهة من الأسئلة: ما سرّ هذا الارتباط بين العصا والمسجد؟ خيوط معقدة يصعب عليّ فكّها، فقررت أن أحفر في ماضي جدي؛ لأفهم حقيقة هذا الارتباط.

أسمعه كل يوم يدعو ويستغفر بعد الصلاة، وأنا أؤمّن على دعائه. لكن اليوم لاحظت أن جُمَلَ دعائه المعهودة غابت، وبدلاً منها يكثر من الاستغفار. ثم صمت وغاص في ذكريات الماضي، وطلب مني أن أتعلم منه، وألا أستهين بشيبه وكبر سنه. يقول دائماً:

- الدهن في "العتاقي"، ولكل مقام مقال، ولكل حاجة طريق وباب.

لم أستطع بعد أن أفهمها تماماً. كل ما أعرفه أنني أحبه وأحب رفقته، وسأظل أحفر في ماضيه؛ لأفهم سرّ هذه العصا، وذاك الاستغفار الذي لا ينتهي.

دعوت جدي إلى الجلوس جانب المحراب ليريح ظهره. أصدقاؤه ينتظرونه أو من بقي منهم. شيخ المسجد يحادثهم ويروي لهم حكايات من زمن مضى.

ساعدت جدي على النهوض، يسير بعزيمة رغم أن صوت طقطقة عظامه يسمع بوضوح. الألم لم يظهر على شفتيه، كما لو أن قوة خفية تحميه جعلته مميزاً بين الناس.

جلس جدي، واحتضن عصاه ثم طرح سلامه مبادراً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرد الجميع بصوت واحد: وعليك السلام يا حاج أبا رافع، وداعين الله أن يديم عليك الصحة والعافية.

وقتها، قلت في نفسي إن مشاركة الحديث مع الكبار أصعب الأمور. كلامهم تبادل للتاريخ أكثر من الحديث عن المستقبل. ورموز كلامهم مفاتيح للماضي، لنفهم من خلالها المستقبل.

نظر إمام المسجد إلى جدي ثم قال:

- ما شاء الله يا حاج، القوة من الله لك دائماً. أنت من أهل المسجد ورواده الذين نعتز بهم بيننا.

اعتدل الجدُّ في مَجلِسه ووضع يده على كتف الإمام بحنان الأبوة وحكمة الشيخوخة، وقال لهم:

- سألني حفيدي قبل قليل عن سر استغفاري اليومي. لماذا أكثر منه حتى فاق دعائي؟ أحببت أن تجيبوه معي لعل قلبه يزداد يقيناً.

فالتفت الإمام وتلألأت عيناه وقال:

- الاستغفار والدعاء جناحا مناجاة.. لكن أتدرون ما قال الشيطان حين رأى بني آدم يسقطون في الذنب، ثم ينهضون بالاستغفار؟ -هزَّ رأسه كما لو يُحدِّثهم بسرٍّ- لقد اعترف عدو الله بقوته، فقال: أهلكتهم بالمعاصي، فأهلكوني بـأستغفر الله ولا إله إلا الله.

فلما أيقن أن الاستغفار يُذيب ذنوبهم تحت شمس التوبة بثَّ فيهم الأهواء. حتى يظنوا الخطأ حسناً، وينسيهم التوبة.

قال رجل جالس في المحراب: ألا ترون كيف تُثقِل الذنوب الصدر؟ إنها أمراض القلوب التي لا دواء لها إلا التوبة. والاستغفار هو النَّفس الذي تعود به الروح إلى ربها.

فابتسم الجدُّ ورفع إصبعه منبهاً ليُعلِّمهم درساً من دروس الحياة والتجربة:

- الدعاء بيت الله الواسع، ندخله كل يوم لنحدثه عن همومنا ونشكره على نعمه، ونسأله من فضله. هو تحيتنا لبعضنا وتهنئتنا، وحتى دمعتنا على فراق الأحبة، ألم تسمعوا كيف كان النبي (ﷺ) يعلّم الصحابة أن يقولوا: "بارك الله لك" أو "أعاذك الله من الشرور"؟ الدعاء هو الحياة.

انفتح قلبي بنور جديد. كم مرة دعوت دون أن أشعر بأنني أتنفَّس بذكر الله؟ كم مرة قلت "بارك الله فيك"، ولم أعرف أنها دعوة صادقة ترتفع إلى السماء؟ لكن سؤالاً بقي يطرق باب روحي. إذا كان الدعاء هو الحضن الدافئ لجميع مناجاتنا. فما موقع الاستغفار؟ أهو مجرد طلب للمغفرة. أم أنه سرٌّ أعظم؟

كأن جدي قرأ ما يجول في قلبي قبل أن ينطق به لساني، أمسك عصاه فتشابكت عروق يده عليها، ثم رفع رأسه وقال بصوته الذي يُذكِّر بزهوِّ الأزهر الشريف في أيامه الذهبية:

- إذا دخلت بيت الدعاء، فادخله بضعف العبد ورجاء المؤمن، وادخله بطمع الطفل في كرم أبيه، وتيقن أن فيه غرفة لا يملك مفاتيحها إلا أنت. -ثم أومأ بيده نحو صدره- إنها غرفة الاستغفار بابُها قلبك، ومفتاحها دمعك، وجدرانها أسرارك بينك وبين خالقك. لا يدخلها إلا القويُّ بضعفه، ولا ينجح فيها إلا الضعيف بقوته، الاستغفار نسمات الروح التي ترفرف نحو العرش.

احتككت الأكتاف في المجلس، ومال الجميع نحو كلماته. حتى الإمام مال ليسمع هذا الكلام، كيف لا وجدي -يُلقبونه في المخيم "بالأزهري"- يحمل بين طيات حديثه عبق الأزهر.

- كيف يكون الدعاء بيتاً والاستغفار غرفة؟ اندفعت بالسؤال قبل أن أتمالك نفسي.

فتنحنح وابتسم وأشار إلى المحراب:

- في بيوتنا غرفة نخلع فيها أثوابنا المتسخة. وفي غرفة الاستغفار نخلع ذنوبنا واحدة واحدة، نضعها أمامنا ونتألم من جراحها، نستحي منها، ثم نغسلها بدموع الندم حتى تبيضّ من جديد.

سكت الجميع حتى كدت أسمع دقات قلوبهم. وارتفعت همسات الاستغفار. قد جعلنا نرى الاستغفار جراحة للقلب لا كلمات تقال.

- في هذه الغرفة أنت وحدك أمام مرآة روحك تُجرد نفسك من الكبرياء. تقف عارياً أمام الله، تخلع الذنب بعد الذنب، حتى تشعر أن ثقلاً يحطم صدرك قد زال.

فهمت أخيراً...

- الدعاء هو أن تطلب من الله كل شيء. أما الاستغفار فهو أن تتطهّر من كل شيء يمنعك من الله.

لكن جدي قطع ذهولي بتشبيه هزَّ أعماقي:

- الذنوب وحل ملتصق. إن تركتها على ثوبك جفَّت وصارت جزءاً منه، لكن دمع التوبة الماء الذي يذوب فيه الوحل حتى يزول -ضرب عصاه على الأرض- فإن أغلقْتَ غرفتَك وهربتَ من ذنوبك مات القلب، وانهار البيت.

اغرورقت عيون الإمام ولم يتمالك نفسه، فقام وهو يمسح دموعه بكفّه:

- الاستغفار أيها الأحبّة أن تنظر إلى ذنبك تحت مجهر الخوف من الله، تحتقره وتتألم منه، ثم تحاصره بالاستغفار حتى يختفي.

وأكمل جدي ليهدئ الجميع: بالدعاء تسأل النعمة. وبالاستغفار تحفظ النعمة، لذلك كان النبي (ﷺ) يستغفر الله في اليوم مئة مرة وهو المعصوم.

سكت وغاص في ذكرياته، حتى ظننا أنه لن يكمل. لكنه أخرج لنا كنزاً من الماضي:

- سألني شيخي في الأزهر يوماً: لماذا الحزن يا رافع؟

فقلت: أبحث عن حلٍّ لمشكلتي. فغاب عني أياماً ثم عاد وسألني: هل وجدت الحلَّ يا رافع؟ فقلت: نعم دعوت الله واستغفرته. فضحك وقال: الاستغفار هو الحلُّ الذي نبحث عنه. فهو المذيب الأعظم للذنوب.

ما تعلمته في المدرسة قد يكون سطراً بعد كل ما سمعته اليوم، أو حتى عنواناً. أستاذنا محمود كان يحدثنا عن أمور ديننا، وأن الاستغفار من أعظم أنواع الذكر، ومعناه طلب المغفرة. وحفظنا منه عبارة سيد الاستغفار: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"

خرجنا من المسجد والشمس تميل للغروب، وظلُّها يسير أمامنا:

- ألا تأكل معنا؟ -سألته وأنا أعلم أن جدتي تنتظرنا- الخبيزة بالليمون، والفجل والبصل والشطة -طعامه المفضل- سيبخُر على المائدة.

- أخاف إن تأخرت أن تُغلق الباب" قالها وهو يغمز بعينيه.

توقفنا عند سور البيت وأسند ظهره ونظر إلى السماء يبحث عن شيء بين السحب.

- الشيخ حسن كان يقول لي: الدنيا بحر من الحماقات، وأنت فيه بلا قارب، إما أن تصنع لنفسك مجدافاً أو تغرق.

- وكان يضربك بهذه العصا؟ قفز السؤال من فمي قبل أن أفكر.

انفجر ضحكاً حتى كادت دموعه تبلل شاربه:

- يضربني! -صاح ويمسك بأذني بلطف- لو كان يضربني بها لكنت كسرتها على ظهرك أنت.

دخلنا البيت وجدتي تقف على الباب بعينين تقولان: أدركْ طعامك. فغضبي سيكون إعصاراً. لكنها ما إن رأت جدي حتى تلاشت السحابة من وجهها.

في الحوش تحت شجرة التين جلس جدي ومدّ رجليه يستعد لحكاية من ألف ليلة وليلة. أسرعت أحضر له كأس الماء ونصفه يسيل على يديَّ من شدة تسرعي. شرب وحمد الله اللهم أسقنا من يد النبي (ﷺ) شربةً لا نظمأ بعدها أبداً. وأكمل لي القصة:

- بدأت الحكاية في السنة الثانية لي في الأزهر.. -يديّر العصا بين أصابعه- ديك ضائع في قنّ جديد، أخطئ وأتعثر، وأحياناً أقع في الذنوب جاهل في كل شيء إلا إيماني بالعلم. حتى جاء يوم رأيت فيه الشيخ حسن يقف أمامي بهذه العصا.

توقف ويصف مشهداً قديماً يعود أمامه:

- قال لي: يا رافع. هذه ليست عصا للمشي. هي عصا التذكير، كلما ضعفت تمسك بها فتذكرك بمن تركك لتوصل رسالته.

رفع العصا إلى نور الشمس المتسلل من بين أوراق الشجرة:

- انظر.. -يشير إلى نقوشها الخفيفة- هذه الخطوط ليست زينة. هي عدد المرات التي كدت فيها أن أضيع فأنقذتني.

فهمت، هذه العصا ليست خشباً. هي سيرة رجل وسيرة جدي والشيخ حسن، وكل من عرف أن الطريق إلى الله يحتاج أحياناً إلى عكاز.

عندما كان شاباً صغيراً أرسله والده ليتعلَّم في الأزهر. والزمان زمان حرب، وصل هناك وسكن في غرفة فيها تسعة أشخاص. الفقر علامتهم الوحيدة. سراويلهم شبه ممزقة، وطعامهم بعض الخبز والجبن، وحبات من الفول المدمّس، وحبة بندورة مجعّدة الوجه، وزيتوناً جفّ من قلّة الزيت عليه.

في أول يوم دراسي دخل عليهم شيخهم غرفة الفصل. تعلو رأسه عمامة بيضاء، ويلبس جبة صوفية وسروالاً أبيض، وبيده عصاه.

نظروا إليه بتمعّن، جالسين ملتصقين ببعضهم من ضيق الغرفة. هزّ رأسه دون أن يخاطبهم بأي كلمة، وتبادلوا النظرات. منهم من بدت عليه علامات الخوف، وآخرون اجتاح القلق مفاصلهم. يتساءلون:

- من هذا الشيخ الجليل، فحوله هيبة ترتجف منها القلوب؟

وقفوا جميعاً لرد السلام والتحية وقفة واحدة، والرؤوس إلى الأسفل والعيون تحاول أن ترتفع لأعلى لتسرق نظرات أخرى من وجه الشيخ. تجوّل بينهم يعدُّهم أو يتفقدهم. حتى أنهم أحسوا أنّه يبحث عن شيء ما بينهم أو فيهم.

- ماذا يريد؟

إنه أستاذهم وشيخهم حسن. وقتها لم يجرؤ أي منهم على الحديث أو حتى الاستفسار. هم في عالم لا يعرفونه ويجهلونه. منهم السعودي والفلسطيني والمصري، والأردني والسوداني، وغيرهم الكثير.

صقلهم هول الموقف والحضور بقالب الصمت والترقب.

- هل هو الخوف أم الاحترام ما جعلكم بتلك الحالة؟
- لا أكذب إن قلت لك نعم، كنا خائفين، ولكن لا نعرف من ماذا. لم نكن خائفين من شيخنا، ولا من عصاه التي يحملها، ولا من غربتنا. كنا فقط خائفين.

شعرت أنني أجلس معهم في غرفة الفصل -كما يسمونها في مصر- عندما بدأ شيخهم درسه عن الإسلام والإيمان والجنة والنار. وعقولهم الغضة تلاحق كلماته وتحفظ منها الكثير، ويشرد منهم بعضها. ليسوا معتادين على الحديث، أو حتى الاستماع لأحد باللغة العربية الفصيحة، حتى أن بعض كلماته حسبوها ليست عربية.

في نهاية الأسبوع الأول عندما هموا بالخروج عائدين إلى غرفتهم القريبة من الأزهر، وقف الشيخ على باب الفصل طالباً من الجميع المغادرة بهدوء، إلا رافع. طلبٌ أربكَ هدوءَ جدي وعزمه إلى الخروج.

- ابق هنا يا رافع، فأنا أحتاجك.

كان كمن حظي لحظتها بشأن ما ورتبة كبيرة، فأجابه بكلمات تغلفها رهبة كبيرة:

- حاضر يا شيخي.

اصطحبه إلى غرفة كبيرة مقوّسة تشبه المكتبة، وفيها طاولة عليها بعض الكتب والأوراق ومحبرة وريشة، وكرسي خشبي. ونافذة تطلُّ على السّاحة، تتزاحم خيوط الشمس فيها مع الستارة المتأرجحة من الهواء الداخل عند فتح الباب. جلس وتأمله بنظرات حانية:

- سأعطيك وظيفة.
- وظيفة لي؟

طلب منه أن يهتم بالغرفة وينظفها كلما احتاجت ذلك، وعند تخرّجه سيعطيه عصاه هذه أجرة له. سائلاً:

- هل توافق؟

تسارعت بتزاحم كبير الكلمات والتساؤلات في ذهن جدي وهل يجرؤ على الرفض؟

- أنا...؟

وما تلك الأجرة الغريبة؟ عصا الشيخ!

تبسّم شيخه وفهم حيرته بصمته، وتلك ابتسامة فرّجت خوف قلبه، وأزالت الرهبة التي تربط مفاصله. فنهض عن كرسيه حاملاً عصاه عارضاً إياها عليه:

- أنت من فلسطين، والعصا من شجرة زيتون مقدسية، أخذتها عند زيارتي إلى المسجد الأقصى، وهي أكثر ما أعتز وأفتخر به من ذكرى. وبما أنك فلسطيني فأنت أحق بها من غيرك. هذه العصا يا ولدي ميراث الدعوة والقضية.

شعر جدي بفرح غامر، فهو الموعود بأن يكون صاحب عصا الشيخ ومن أحبه. وأصبحت له واسطة، نعم شعر أنه يختلف عن الآخرين. كم كان صغيراً في كل شيء، حتى بنظرته إلى هدية الشيخ وقتها.

وباستعجال وافق وسيقوم بما يطلبه منه.

عصا جدي تنتمي إلى عالم آخر. شاهدة عصر مضى، وجسراً بين جيلين، ووصية من رجل لم يمت.

في ذلك المساء تحت شجرة التين التي شهدت حكاياته، مدّ يده نحو العصا يستأذنها قبل أن يتحدث.

- هل تعلم؟ يوم أعطاني الشيخ حسن هذه العصا، قال لي كلمة لم أفهمها إلا بعد سنوات. -توقف ونظر إليّ بعينين تعرفان وزن الكلمات- قال: هذه قضية.

في البداية ظننتُها مجرد كلمات، حتى رأيت الشيخ يُقتل وهو يعلم القرآن الكريم في قرية نائية، يومها فهمت أن العصا أول سلاح في معركتنا معركة حمل الرسالة والحفاظ على الدعوة.

دفعها نحوي: خذها فقد حان وقتُك!

ارتجفت يدي وأنا أمسك بها لأول مرة. خشبها الناعم يحمل أخاديد عميقة:

- لكن.. أنا لست أزهرياً!

- أتعرف لماذا اختارها الشيخ حسن من شجرة زيتون؟ -قاطعني بنبرة لم أسمعها منه من قبل- لأن الزيتون شجرة لا تموت، يقطعون أغصانها فتنبت من جديد.

أدركت أنه لم يكن يعطيني عصا. كان يُسلّمني مشعلاً.

- في كل مرة تسمع فيها صوتها على الأرض. تذكر أن لها لغة -قال ويضربها بلطف على البلاط- انظر هكذا تتكلم.

- الضربة الأولى تذكيرٌ بأن الدعوة لم تنتهِ. والثانية أن القضية لا تموت. كما أن الاستغفار يُجدّد الإيمان، فإن العصا تجدّد العهد بحمل الأمانة.

لم أستطع الكلام. فقد رأيت كل شيء، الشيخ حسن الذي زرع البذرة، وجدي الذي رواها بعرقه هنا، العصا التي سارت في دروب الأزهر، ستسير يوماً في أزقة القدس بعد تحريرها، الاستغفار يطهر القلب ليكون أهلاً لحمل همّ الأمة. وأنا الذي عليه أن يحمل المشعل الآن باستغفار يزكي، وعصا تواصل المسير، وقضية لا تنسى.

- لكن كيف؟

العمّ ربيـع

تتكدس الفاكهة تحت شمس الصعيد الحارقة، العم ربيع يقف أمام بسطته يمسح بكمّ "جلابيته" عرقه، وعيناه تتجهان نحو الشارع بتعب. لم تكن تلك حركة الناس الهادئة التي يعرفها، يرفع رأسه نحو السماء لتُذكّره مرة أخرى بسماء غزة التي تختنق بدخان القنابل وصرخات الأمهات. تساءل في نفسه:

- كيف تُشرق الشمس هناك؟ وكيف ينام الجوعى وأطفالهم يبكون؟

انحنى على جيبه وأخرج منه قطعة نقدية، نظر إليها طويلاً فهي آخر ما تبقى. ثم ضحك بمرارة وهو يتذكر خطاب الرئيس الذي سمعه على المذياع ويتحدث عن "الصمود" و"الحدود الآمنة"، بينما تغلق المعابر وتحجب المساعدات خلف أسلاكهم الشائكة. فقال لجاره:

- حدودنا تفصل الجائع عن الخبز، والمحتضر عن الدواء.

مرّت أمامه صورة طفل غزيّ على شاشة هاتف جاره، يحمل علبة فارغة يبحث فيها عن بقايا طعام. لم يعد يرى الطفل، بل رأى حفيده الصغير "سليم" الذي يلهو ببراءة في حوش البيت.

- لو كان سليم هناك. لكان هو الجائع.

أطبق يده على القطعة النقدية بقوة، يمسك بقلبه قبل أن يُلقيها في الجرار.

في اليوم التالي وقف العم ربيع أمام بسطته، يبيع برتقالاً ويتمتم بكلمات صعبة:

- هذا ليس مالاً. هذا عار الحُكّام الذين يشبعون بينما هم هناك يموتون.

غزة التي كانت تعج بالحياة والفرح، أصبحت الآن محاصرة بقوات الاحتلال. القذائف تتساقط كل دقيقة، والسماء لم تعد تعرف سوى الحرب وصراخ الأطفال. المجاعة ضربت أطنابها، وأصبح الخبز حلماً بعيد المنال.

على بعد مئات الكيلومترات، ما زال الفلاح المسن في قريته النائية في صعيد مصر، أمام بسطته وبالكاد توفر لقمة العيش لأسرته. رغم فقره قلبه واسع كالنيل يمتد إلى قلوب الغزيين، يجلس يفكر مع نفسه:

- ما الذي يمكنني فعله؟ كيف يمكنني أن أُسهم، حتى لو بشيء بسيط؟

لم يملك ثروة، نظر إلى البرتقال أمامه، وشعر بأن هذه الحبات رغم بساطتها، قد تكون بمثابة شمعة تضيء عتمة حياة طفل جائع.

في يوم مشمس شاحنات المساعدات تستعد للانطلاق إلى غزة، وقف العم ربيع بجانب الطريق، وبدأ يرمي حبات البرتقال إلى داخل الشاحنة، واحدة تلو الأخرى وهو يبتسم وينادي فرحاً، ونظر إليه صديقه الذي يقف بجانبه بدهشة، وقال:

- يا ربيع، كيف تعطي كل ما لديك؟ أنت بالكاد تجد قوت يومك.

- يا أخي، أطفال غزة أحوج إلى هذا البرتقال مني. إذا كان يمكنني أن أطعمهم ولو حبة برتقال واحدة، فهذه أعظم نعمة لي. نحن الفقراء نشعر بالجوع، ونعرف ماذا يعني أن تمد يدك ولا تجد شيئاً.

لم يعلم العم ربيع أن أحد المصورين التقط لحظة انكسار قلبه بين أصابعه المتشققة، وهو يدفع بحبات البرتقال نحو الشاحنة. "الكاميرا" التقطت صرخة ضمير في زمن صمت فيه الحكام بجبنهم وذلهم. انتشرت الصورة كالنار في الهشيم، لأنها كشفت المفارقة الأقسى على لسان المصور. رجل بلا اسم يضاء به وجه الإنسانية، بينما تُخفي "شهرة" الزعماء وجوهاً بلا ضمائر. أصبحت الصورة أيقونة تُحاكي بها الأمهات في البيوت، والشباب في المقاهي:

- انظروا، هذا الفعل الذي يُحرّك السماوات، لا خطابات المنصات المذهّبة.

لقد حوّل العم ربيع فقرَه إلى سلاح، بينما حوّل الحكام سلطتهم إلى جبن. صار اسمه يذكر في المنتديات قبل أسماء من يملكون الملايين، لأن التاريخ لا يحفظ من "المشاهير" إلا من أضاءوا شمعة في الظلام، لا من أضاءوا كاميراتهم بينما الظلام يقتل الأطفال. في تلك الأيام تعلم الناس أن الشهرة الحقيقية ليست في الظهور على الشاشات، بل الظهور في قلوب المظلومين. فشهرة العم ربيع كانت دمعة امتنان في عين أرملة غزية، بينما شهرة الآخرين رقماً في قوائم العار تُحصي ضحايا صمتهم. وهكذا صار البائس الفقير نجماً يُشار إليه بالبنان:

- هذا هو العربي الذي لم تمُتْ فيه إنسانيته.

وصلت شاحنة المساعدات إلى غزة، والأطفال في استقبالها. وسط الصناديق الثقيلة هناك حبات متناثرة من البرتقال. ركض الأطفال نحوها بفرحة لا توصف. أخذ أحمد الذي لم يذق طعم الفاكهة منذ أشهر حبة برتقال بين يديه وقال:

- من أين أتى هذا البرتقال؟

أجابه أحد المتطوعين: من رجل طيب من صعيد مصر. لقد أعطانا ما يملك ليصلكم.

قشّر أحمد البرتقالة بفرح عارم وقال:

- شكراً يا عم ربيع. البرتقال لذيذ، وجعلني أشعر أننا لسنا وحدنا.

وقال عبد الرحمن وهو يتذوق البرتقال:

- عم ربيع، البرتقال مميز. أشعر أنك أخي الكبير الذي لم ألتقِ به بعد. شكراً لأنك لم تنسنا.

وقالت مريم الطفلة المصابة على سرير المستشفى:

- عندما أكلت شعرت أن هناك من يحبنا. بارك الله فيك يا عم ربيع، أنت جعلتنا نبتسم.

أما يوسف الذي فقد عائلته جميعها:

- عم ربيع، أنت بطلنا. البرتقال في أيدينا أغلى من كل شيء. جزاك الله خيراً لأنك علمتنا أن العطاء لا يحتاج إلى ثروة، بل إلى قلب كبير.

وصلت الرسائل إلى العم ربيع، فاختنق صوته بالعبارات، وقال:

- الحمد لله. لقد وصلت حبات البرتقال إلى أيدٍ تستحقها. لو لدي أكثر لما ترددت يا أهلي.

بعد أن انتشرت قصة العم ربيع، قرر أحد الصحفيين زيارة القرية النائية في صعيد مصر لمقابلته. وقف الصحفي أمام البسطة، والعم ربيع يجلس بابتسامته الدافئة:

- عم ربيع، لقد أصبحت حديث العالم. كيف شعرت عندما رأيت تأثير حبات البرتقال التي أرسلتها إلى غزة؟
- العم ربيع يبتسم بتواضع. "والله يا بني، ما توقعت أن حبات برتقال بسيطة هتفرح ناس كتير. أنا ما عملتش حاجة كبيرة، بس أعطيت اللي أقدر عليه"
- لكنك أعطيت كل ما تملك! كيف تقول إنها ليست كبيرة؟
- العم ربيع ينظر إلى السماء. "يا ولدي، الفقراء هم أكثر الناس عطاء، لأنهم يعرفون معنى الجوع والحاجة. لما تكون فقير بتحس بغيرك اللي بيحتاج. العطاء مش بالمال، العطاء بالقلب."
- لكن ألا تخشى أن تعطي كل ما تملك وتحتاج أنت بعدها؟
- العم ربيع يهز رأسه. "لا يا بني، الإيمان اللي في قلبي أكبر من أي خوف. لما تعطي، الله بيرزقك من حيث لا تحتسب. أنا ما خسرت حاجة، أنا كسبت فرحة أطفال غزة"
- ما الرسالة التي تريد أن توجّهها للعالم؟

العم ربيع يحدّق في الكاميرا وعيونه تخترق شاشات التلفاز إلى قصور الحكام:

- "بدي قول للحكام المتخبيين ورا الجدران العالية والخطابات الفارغة، أنتو مش فقراء في المال، جميعكم فقراء في الضمير، وللشعوب التي تستنى معجزة لتتحرك: لا تستهينوا بحفنة دعم تقدموها، فاليد التي تزرع خيراً ولو مثقال ذرة ستسقط وجوه العاجزين عن فعل حتى ذلك. إحنا الفقراء نعطي لأننا نعرف أن الجوع ما بيستنى مؤتمراتكم، والدم ما بينمسح ببيانات التعازي، خلي عطاؤكم مهما قلَّ صرخة في وجه الخيانة، مش صمت يشبه موتكم"

ثم يلتفت للصحفي، وعيناه تلمعان بتحد: "العار مش إنك تعطي قليل، العار أنك تعطي القليل وإنت زعيم"

ظلال الشاشة والندم

في أحد الأحياء الشعبية تكافح الأسر لتأمين لقمة العيش، عاش مراد وزوجته مها حياة بسيطة تخلو من الرفاهية. مها موظفة عادية في شركة، تعمل بجد هي وزوجها لسدّ حاجات بيتهما. لديهما ابن صغير اسمه عمر، طفل بريء يحلم مثل أي طفل بألعاب وهدايا، غير مدرك لمعاناة والديه اليومية.

تربت مها على القيم المجتمعية السائدة التي تُعلّم الفتاة أجزاء من دينها، وأحياناً يتغلب العرف الاجتماعي عليها، يجب الحفاظ عليه أمام الناس، دون تأصيل ديني حقيقي يغرس الوازع الإيماني في القلب مع الرضا والشكر.

وفي غياب هذا الأساس المتين، تشعر مها بأن بيتها أرضاً جافة، وينقصه دائماً شيء ما، وهي مستعدة لأن تنبت أيَّ بذرة تسقط عليها لتكمل النقص، حتى لو من وساوس الشياطين. لتقلّد صديقاتها الأغنى منها.

ذات يوم وهي تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي في لحظة استراحة لفت نظرها نمط من النساء اللواتي حققنَ شهرة ومالاً سريعين عبر نشر محتوى مثير يتلاعب حول حدود الحياء.

في البداية قاومت الفكرة واستنكرتها، لكن الحاجة المادية والرغبة في التقليد بدأت تتسلل إلى قلبها كالسم الزعاف.

- لماذا لا؟ الجميع يفعلونه، فقط لفترة قصيرة. لن يعرف أحد، وسأحافظ على سمعتي أمام الجميع.

هكذا خاطبت نفسها غير مدركة أن الشيطان يزين لها الخطيئة خطوة بخطوة، وأن السقوط يبدأ بهذه الأفكار الصغيرة التي تفتح الباب أمام الكبائر.

نشرت مها مقطعها الأول، وبالرغم من أن ضميرها يصرخ بالخطأ، إلا أنّ الانبهار بالأموال والشهرة دفعها للاستمرار. ومع كل مقطع تغفل أن ما بدأ بخطوة يتسلّل تدريجياً ليصبح هاوية.

أما مراد، في بداية الأمر رأى هذا الخيار مخرجاً مؤقتاً، غير مدرك تماماً للثمن الذي سيدفعه. مع مرور الوقت بدأت مها تفقد احترامها لنفسها. تشعر بالذنب كلما نظرت إلى عيني عمر الذي بدأ يسألها أسئلة محرجة:

- أمي لماذا ترتدين هذه الملابس؟ أليس هذا عيباً كما علمتني؟

تحاول مها أن تبرر لنفسها. لكنها تعلم في أعماقها أنها تخسر شيئاً أهم بكثير. دينها وكرامتها.

مراد أيضاً بدأ يشعر بالندم. رغم أن الأموال بدأت تغير حياتهم قليلاً، إلا أن العلاقة بينهما أصبحت متوترة. الخلافات تتفجر باستمرار، خاصة عندما يرى تعليقات السخرية أو الاستمتاع على مقاطع زوجته. حتى عمله بدأ يتأثر، وبدأ زملاؤه ينتقدونه، وسمع خلسة مرة أحدهم يقول:

- زوجته أصبحت حديث المدينة!

سرعان ما بدأت عواقب الاستهانة بالخطأ تظهر. أصبح عمر هدفاً للتنمر من زملائه في المدرسة، الذين يلقون عليه تعليقات لاذعة، وسخرية قاسية. يعود إلى المنزل محملاً بالأسئلة:

- أمي، لماذا يقولون إنك تفعلين شيئاً حراماً؟ هل هذا صحيح؟

الكلمات تخترق قلب مها وتجرح كرامتها، حاولت تجاهلها مقتنعة بأن هذا الفعل مجرد مرحلة. ولكن، كل يوم يتضاعف الخطأ ليصبح عبئاً لا يمكن السيطرة عليه.

بدأ مراد يشعر بالخجل والخزي أمام نظرات الناس وأحاديثهم. يسمع جيرانه:

- زوجته أصبحت في متناول الجميع، كيف يمكنه السكوت على ذلك؟

وفي ليلة جلست مها أمام شاشتها تتصفح التعليقات، حتى وقعت عيناها على تعليق من امرأة يفيض بالنصح الصادق:

- يا أختي، هل فكرت في تأثير ما تفعلينه على دينك وأبنائك؟ هل ترضين أن يرى ابنك أو ابنتك هذا يوماً؟ تذكري أن كل خطوة صغيرة في الخطأ تؤدي إلى انهيار أكبر يصعب إصلاحه.

جرس إنذار بدأ يوقظها من غفلتها. نظرت إلى عمر الذي ينام بجوارها، ووجهه البريء يحمل أثقالاً لا تناسب عمره. أدركت أنها لا تخذله وحده وتخذل معه دينها وأخلاقها وأسرتها.

ذات يوم مراد ومها في المنزل يحاولان استعادة توازن حياتهما، طرقت أم مها الباب، وتحمل في وجهها مزيجاً من الحزن والغضب. دخلت بخطوات بطيئة وأغلقت الباب خلفها بغضب أكثر وقعاً من الكلمات. جلست الأم على الكرسي المقابل ونظرت إلى مها نظرة مليئة بالعتاب. قالت بصوت مليء بالأسى:

- مها، ما هذا الذي سمعته عنك؟ هل صحيح أن ابنتي التي ربيتها أقدمت على أمر كهذا؟

كيف يمكن أن تستهيني بتأثير ما فعلته على دينك وعلى ابنك، وحتى على سمعة عائلتنا؟

انخفضت رأس مها كحبة فاكهة أصابها العفن، وبدأت دموعها تنهمر دون أن تتمكن من الرد. حاول مراد التدخل قائلاً:

- خالتي، نحن نادمون، لقد كنا في ظروف صعبة وأخطأنا. لم نكن ندرك حجم ما فعلناه إلا بعد أن...

قاطعت كلامه، قائلة بحزم:

- مراد، أنت رب الأسرة والمسؤول عن بيتك ودينكم. كيف رضيت؟ كيف سمحت للمال الحرام أن يدخل بيتك ويهدم قيمه؟ ألم تفكروا في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل جسد نبت من السحت فالنار أولى به) كيف غاب عنكما أن الخطأ مهما كان صغيراً يزداد ويتراكم، حتى يدمّر كل شيء.

نظرت إلى مها وواصلت حديثها، وقد بدأت عيناها تمتلئان بالدموع:

- مها يا ابنتي، هل فكرت في عمر؟ هل فكرتِ في تلك العيون البريئة التي ترى فيكِ القدوة والمثل الأعلى؟

هل ما تريدينه لطفل أن يعيش معاناة التنمر والعار بسبب تصرفاتك؟

رفعت مها رأسها وقالت بصوت حزين متقطع:

- أمي، أعلم أنني أخطأت. شعرت بأنني أغرق وأبحث عن أي شيء ينقذني، لكنني اخترت الطريق الخطأ. ندمت كثيراً وسأغلق الحساب، وقررت أن أعود لحياتي القديمة مهما كان الثمن.

وضعت الأم يدها على يد ابنتها بحنان رغم الألم:

- يا ابنتي، المال الحرام لا يجلب إلا الخزي. يمكن أن تضيعي حياتك ودينك وأسرتك بسبب لحظات من الطيش. تذكري دائماً أن مواقع التواصل نافذة يدخل منها الخير أو الشر. والأبناء مرآة لنا، ما نفعل اليوم سيؤثر عليهم غداً. فكوني قدوة لعمر وأعيدي بناء ما تهدم.

ثم توجهت إلى مراد وأضافت:

- وأنت. لا تسمح للضغوط أن تكون مبرراً للتفريط في الدين. كونوا سنداً لبعضكما، واحموا بيتكم من كل ما يمكن أن يشوهه.

أومأ مراد برأسه، وقال بخجل: أعدك يا خالتي أننا لن نسير في هذا الطريق مرة أخرى. سنبني حياتنا بما يرضي الله.

ابتسمت الأم رغم الحزن الذي ما زال يغمرها: الحمد لله أنكما أدركتما خطأكما. عودا إلى الله واطلبا عفوه، وتذكرا أن البداية الصحيحة ستعيد النور إلى بيتكم.

في صباح اليوم التالي بكت مها وهي تتحدث مع زوجها: لقد دمرنا كل شيء بأيدينا. أريد التوقف قبل أن نخسر أنفسنا تماماً.

وافق مراد والندم ينهش روحه، وقال: علينا إصلاح ما تبقى. ربما فات الأوان لبعض الأمور، لكن لم يفت لكل شيء.

قامت مها بحذف جميع مقاطعها وأغلقت حسابها إلى الأبد. بدأت في البحث عن عمل جديد يعيد لها كرامتها، بينما حاول مراد استعادة احترامه لنفسه بين الناس. قررا معاً تعليم عمر أن الخطأ مهما كان صغيراً في البداية، يمكن أن يؤدي إلى الانهيار إذا لم يتم تداركه.

وذات يوم عاد عمر من المدرسة بابتسامة وقال لوالدته:

- أمي، أنا فخور بكِ.

شعرت مها أن كلمات ابنها بمثابة نجاة وشفاء من كل الأخطاء التي ارتكبتها. أدركت أن الأسرة والأبناء والقيم أهم من أي مال يمكن أن تجلبه الشهرة أو وسائل التواصل الاجتماعي، وشعر كل منهما أن كلمات الأم نور يضيء طريق العودة إلى الحق والدين. بدأوا من جديد، والأم داعمة لهما بخبرتها وحكمتها، تذكرهم دائماً أن كل خطأ صغير إن تُرك سيتراكم ليصبح دماراً كبيراً.

وكتبت مها في مذكراتها: "احذروا من خطورة التهاون في الأخطاء البسيطة، خاصة فيما يتعلق بمواقع التواصل الاجتماعي. فهي ليست مجرد منصة ترفيه، بل نافذة يدخل منها الخير أو الشر إلى حياة العائلة."

وأضاف لها مراد:

- علينا أن نكون واعين لما يشاهده أبناؤنا ومن نشاهده نحن، فما نشاهده نحن على مسمع أطفالنا، يحمل موافقة لأبنائنا ليشاهدوه، وأن ندرك أن الاستهانة بالقيم، قد تؤدي إلى انهيار الدين والأخلاق والأسرة. كل خطوة صغيرة في الخطأ، تُراكم حتى تشكل دماراً يصعب ترميمه.

هند... لم تكن مجرد رقم

أنا هند رجب، طفلة من غزة، عمري ست سنوات، عشتها بما يكفي لأروي للعالم قصة وحشية لا تنسى. عن عائلة تسير بسلام في سيارتها، قبل أن تتحول حياتها إلى جحيم في لحظة واحدة. اليوم الذي فقدت فيه كل شيء لم يكن يوماً عادياً حتى بمعايير غزة، حيث دويّ الانفجارات جزء من الحياة اليومية.

أجلس في المقعد الخلفي بجانب النافذة أراقب السماء الزرقاء. أحلم بيوم لا نسمع فيه صوت القنابل، يوم نلعب فيه بحرية دون خوف. عم والدتي يقود السيارة ويحاول أن يبدو قوياً لأجلنا. وعمتي تحتضن ابنها الصغير، وابنتهم "ليان" تجلس بجانبي، نضحك ونحاول أن نلهي بعضنا عن الخوف الذي أشعر به في قلبي.

فسمعنا صوت انفجار قويّ، السماء انشقت إلى نصفين. السيارة اهتزت ثم انقلبت. شعرت العالم قد توقف عن الدوران. كل شيء أصبح مظلماً.

عندما استيقظت وجدت نفسي محاصرة بين الحطام والجثث الممزقة. حاولت أن أنادي أمي وأبي وعمي، لكنني لم أسمع أي رد. نظرت حولي ورأيت الدماء في كل مكان. الصغار بجانبي لكنهم لا يتحركون.

"ليان" تصرخ ألماً ثم توقف صوتها فجأة. كنت أعلم أنني الوحيدة التي ما زالت على قيد الحياة، بقيت وحيدة في قلب السيارة المحطمة، محاصرة بين جثث أحبائي، الذين كانوا يوماً ما مصدر أماني وضحكاتي.

اثنا عشر يوماً مرت عليّ. عمر كامل، كل ثانية فيها كابوساً لا ينتهي. الليل وحش يتربص بي، ويلفني بظلامه الكثيف الذي لا يخترقه إلا صوت الرصاص البعيد، ونباح الحيوانات الجائعة التي تقترب من السيارة، وأنيابها قبل عيونها تلمع في الظلام، تعلم أن هنا طفلة صغيرة ترتجف خوفاً بين الجثث. أو وجبة سريعة في قطاع كل شيء فيه جائع. أسمع صوت أنيابها وهي تمزق لحم أحبائي، وصوت تمزيق الجسد يتردد في أذنيّ، صوت متوحش قادم من عالم آخر. أحاول تغطية أذنيّ بيدي، لكن الصور المرعبة تلاحقني حتى في ظلام عينيّ المغمضتين. كل نفسٍ آخذه يحمل رائحة الموت، وكل دقيقة تذكرني بأنني قد أكون التالية.

أخاف من النوم لأنني أعلم أن النوم قد يكون رحلة بلا عودة. أحاول البقاء مستيقظة، وأتحدث إلى نفسي، أغنّي أغاني حفظتها من أمي، والخوف يغلبني. أرى وجوه أحبائي المليئة بالدماء، أو أن أسمع صوت "ليان" وهو يناديني من بعيد. أعلم أنني إذا غلبتني عيناي، قد لا أستيقظ مرة أخرى، وقد أظل محاصرة في هذا الكابوس إلى الأبد.

الليالي معارك بين جسدي المنهك وروحي التي تحاول أن تبقى قوية، والخوف يزداد شراسة. أنفاس ليان تضعف، حاولت أن أغني لها أغنية كنا نرددها معاً، أغنية تملأ أيامنا بالفرح. صوتي يرتجف والدموع تخنقني.

أغني بصوت خافت خوفاً من أن يسمعني الجنود، خوفاً من أن يكونوا قريبين. بكيت بصمت والدموع تسيل على خديّ، وأنا أحتضنها لآخر لحظة، محاولة أن أعطيها بعض الدفء في عالم أصبح بارداً بلا رحمة.

في إحدى الليالي أحاول أن أبقى مستيقظة، شعرت بها تتحرك قليلاً. فرحت ظناً مني أنها عادت إليّ، وأن الحياة عادت إلى جسدها. فقط آخر ما تبقى من حياتها حركة صغيرة. لفظت أنفاسها الأخيرة في حضني، تحاول قول شيء، وكلماتها لم تخرج. عيناها مفتوحتان تنظران إليّ. تعتذر لأنها لم تستطع البقاء معي.

ليان ابنة خالي جثتها باردة بجانبي، جسدها الذي كان يوماً ما يملأ المكان ضحكات وحركة، أصبح الآن ساكناً بلا حياة. أحاول أن أمسك بيدها الباردة الصلبة، وأتحدث بصوت مرتجف لأخبرها أنني خائفة، وأطلب منها أن تستيقظ وأن تعود إليّ، أن تحميني من هذا الظلام الذي يخنقني. لكنها لم ترد. روحها تهمس لي بأنها لم تكن تريد أن تتركني، لكنها رحلت تاركة إياي مع ذكريات لن تغادر قلبي أبداً.

في اليوم التالي وجدت هاتفاً بين الحطام. بطاريته شبه فارغة، تمكنت من الاتصال بالهلال الأحمر. رنّ الهاتف عدة مرات قبل أن ترد عليّ مندوبة بصوت هادئ وحنون:

- مرحباً، هنا الهلال الأحمر، كيف يمكننا مساعدتك؟

قلت بصوت مرتجف والدموع تملأ عيناي:

- "تعالي خذيني.. أنا خايفة كثير. أمانة، تعالي خذيني"

ردت المندوبة بصوت حزين:

- "عمو سيأتي ليأخذك، لا تخافي"

- لكنني خائفة جداً "رني على حدا ييجي يوخذني.. أنا خايفة"

ردت المندوبة محاولة تهدئتي:

- "طيب يا حبيبتي، راح آجي أوخذك. بس نقدر نيجي؟ في حواليك ضرب رصاص؟"

نظرْتُ من النافذة وسمعت صوت الرصاص يملأ الهواء:

- "اه.. هنا ضرب رصاص. تعالي خذيني، أنا خايفة"

ردت المندوبة بصوت مكسور:

- "يا حبيبتي، والله بدي آجي أوخذك، بس مش بإيدي هلّا"

تلك كلماتها الأخيرة قبل أن تقطع الاتصال. بكيت بحرقة لأنني أعلم أنهم لن يتمكنوا من الوصول إليّ. لقد أضعت الوقت كما أضعت عائلتي، ولم أعد أعرف للزمن معنى ولا قيمة، هل بعد ساعات أو أيام من الانتظار، كان سماعي لأصوات رجال الإسعاف يقتربون. ويصرخون:

- "هند.. أين أنتِ؟"

رفعت يدي بضعف: "هنا.. أنا هنا"

لكن قبل أن يصلوا إليّ سمعت صوت انفجار قويّ. نظرت من النافذة، ورأيت سيارة الإسعاف ممزقة وتحترق. والجنود يطلقون النار بلا رحمة، لم يروا من حقدهم أنهم يحاولون إنقاذ طفلة صغيرة. رأيت المسعفين يسقطون واحداً تلو الآخر، والنيران تلتهم سيارتهم. بكيت بحرقة لأنني أعلم أنهم كانوا آخر أمل لي.

بعد ذلك سمعت صوت دبابة ضخمة ومرعبة، وصوت محركها يهز الأرض. وقفت بالقرب من السيارة، وحش يتربص بي. أخاف أن تطلق النار على السيارة، أحاول أن أختفي بين الحطام والجثث.

في إحدى الليالي سمعت صوت انفجار قويّ، ورأيت الدبابة نفسها تقصف كل شيء حولنا. أرتجف من الخوف، وأحاول أن أتنفس بصمت حتى لا يسمعني الجنود.

بعد أيام من العذاب الذي لا يطاق، بدأت أشعر بالتعب يغزو جسدي، كل ذرة من قوتي تتسرب مني مع كل نفس آخذه. والألم يزداد يوماً بعد يوم، الجوع وحش يفترسني من الداخل، والعطش يلتهم ما تبقى من طاقتي وأملي. أشعر بثقل كبير على صدري، والحطام الذي يحيط بي يضغط على قلبي ويخنق أنفاسي.

ساقاي المحطمتان تشعلان ألماً لا يُحتمل، ومع كل حركة بسيطة أحاول القيام بها. أحاول أن أتحرك، أن أخرج من هذا الكابوس، لكن جسدي يخونني. يقول لي: "لا يمكنكِ الاستمرار بعد الآن."

كنت أعلم أنني لن أستطيع المقاومة لفترة طويلة، وأن جسدي قد بدأ يستسلم للألم والإرهاق.

أفكر في أمي وفي أبي، وفي أخوتي الصغار الذين رحلوا عني. أتساءل عما إذا كانوا ينتظرونني في مكانٍ ما، في عالم آخر حيث لا يوجد خوف ولا ألم. أحلم بيوم نلتقي فيه مرة أخرى، يوم نلعب فيه معاً تحتً أشعة الشمس الدافئة، دون أن نسمع صوت القنابل أو نرى الدموع. أعلم أن هذا الحلم لن يتحقق وأشعر بالنهاية تقترب، والظلام يغلق عليّ شيئاً فشيئاً. نظرت إلى السماء، وقلت بصوت خافت:

- أمي أنا أحبك. أخبري أبي وأخوتي أنني أحبهم أيضاً.

ثم أغمضت عينيّ واستسلمت للنوم الذي أخشاه طوال أيام. أعلم أنني لن أستيقظ مرة أخرى، وأعلم أيضاً أنني سأجد السلام أخيراً.

في صباح اليوم التالي والألم يلتهمني والنار تشتعل في كل جزء مني. أحاول أن أتنفس الهواء الذي يحمل معه رائحة الموت. فسمعت صوت الدبابة تقترب وتتربص بنا تريد أن تنهي ما تبقى.

لاحظ الجنود حركتي داخل السيارة، لقد رأوا ظلي الصغير يتحرك في جانب السيارة الأيمن بين الحطام. لم يترددوا، وأطلقوا نحوي أوّل ثلاثين رصاصة، كل واحدة منها صاعقة تخترق جسدي الصغير. أشعر بكل رصاصة وهي تمزق لحمي، وتقطعني إرباً.

ثم أطلقوا المئات من الرصاصات بعضها أصاب السيارة فأصبح الألم لا يحتمل وجسدي يشتعل من الداخل. أحاول أن أصرخ، لكن صوتي يختنق في حلقي من الدماء، والدموع تملأ عينيّ. ثلاثمئة وخمس وثلاثون رصاصة جعلت جسدي والسيارة كالمنخل.

نظرت إلى السماء للمرة الأخيرة، وأشعر بكل دمائي تسيل وتحمل معها أحلامي وحياتي، تمنيت لو أنني أستطيع أن أرى وجه أمي مرة أخرى، وأن أسمع صوتها يهدئ من روعي. لكنني أعلم أن هذا لن يحدث.

أقف أمام دبابة ضخمة بجسدي الصغير لا يزيد عن ذرة في مواجهة آلة حرب لا تعرف الرحمة. لكنني رغم كل شيء، لم أنكسر. رحلت وقصتي ستظل حية.

أنا هند رجب التي ستظل حية في قلوب من يقرأون قصتي، تذكيراً بأن الحرب لا تحترم الطفولة، ولا تحترم الأحلام.

بعد اثني عشر يوماً من رحيلي، تمكن فريق من المتطوعين والمدنيين من الوصول إلى منطقة تل الهوى، حيث السيارة تقبع تحت الأنقاض. الوصول إلينا صعب بسبب القصف المستمر والرصاص الذي لا يزال يملأ المنطقة. عندما وصلوا وجدوا السيارة وقد تحولت إلى كومة من الحديد المشوه، ومحاطة بالأشلاء والدماء.

داخل السيارة جثثنا الخمسة ممددة بلا حراك. وأنا لا أزال في مكاني محتضنة ابنة خالي "ليان"، وتحاول حمايتي حتى في لحظاتها الأخيرة.

جثتي الأخيرة عندما رفعها أفراد الدفاع المدني، لاحظوا أنني لا زلت أحمل هاتف خالي بيدي قائلين:

- بعد موتها ما زلت تحاول الاتصال بهذا العالم الظالم الذي لم يأت أبداً.

المسير

في فجر ذلك اليوم خرجنا من المخيم. كنت أحفظ أزقته الضيقة، وعدد الدرجات المؤدية إلى بيتنا، وأسماء الباعة في السوق الذين تتعالى أصواتهم كل صباح. كنت أظن أن المكان الذي نكبر فيه يصبح جزءاً من أجسادنا، لكنني اكتشفت لاحقاً أن الأمكنة تشبه الناس؛ لا نعرفها حقاً إلا عندما نبتعد عنها.

أمسك أبي بيد جنى وأحاط كفّها بأصابعه، كانت تضم دميتها القطنية إلى صدرها، وتتوكأ على كتفي حين تتعب. وكلما تعثرت شدها برفق يُنهضها لتسير بجواره. قال دون أن يلتفت:

- لن يطول المسير يا أبنائي، تابعوا المشي، فظل الأقصى ينتظرنا.

مسبحته المصنوعة من نوى الزيتون تتدلى من بين أصابعه. يمرر حباتها واحدة تلو الأخرى، كأنه يعد سنوات عمره:

- هذه تذكرني بشجرة لعبت تحتها طفلاً، وهذه بصلاة فجر في أيام منع التجول، وتلك بدموع أمهات شهداء المخيم التي لم تجف على وجه الأرض.

كان الثلاثة يسيرون كما اعتادوا في أزقة المخيم، يتبع بعضهم بعضاً. لكن الطريق هنا أكثر اتساعاً ووحشة. وعند القوس المعدني الصدئ، الذي أكل الزمن أطرافه، توقف الأب ولوّح نحو القمم البعيدة.

- أتريان تلك البيوت؟ كانت أنوارها تلوّح لنا من بعيد، واليوم لم تعد ترسل إلا نارها.

حتى العصافير هجرت الأشجار المحاذية للأسلاك الشائكة، وتركت الصخور تتدحرج وحدها نحو الوادي، تبحث عن مكان تستقر فيه فلا تجد سوى غبار وطن مسلوب. قفزت جنى فوق حجر كما اعتادت في المخيم، ثم توقفت عند نبع يتسرب من بين الصخور، تحيط به خضرة داكنة. رفعت رأسها وسألت ببراءة:

- هل تبكي الصخور يا أحمد؟

ابتسمت وقلت لها: ربما جرحتها جرافات الاحتلال، أو لعلّها تشتاق لمن كانوا يشربون من مائها.

واصلنا السير على الطريق الترابي الذي يلتف بين التلال، أما الطريق المعبد فكان يبتعد عنا ويدور حولنا في حلقات أطول.

سألت أبي مستفهماً وأنا أراقب سيارة تمر مسرعة: لماذا أصبح الوصول يحتاج كل هذا الوقت؟

أجاب واضعاً يده على كتفي: لأننا لا نسير في أي طريق. هنا لكل خطوة ذاكرة، ولكل درب ثمن. سيحاولون أن يجرّوك إلى طرقهم السهلة، لكن من يمشِ في ظل غيره لن يعرف أين تقع شمسه.

مضينا ولا يقطع سكوننا إلا صوت الحصى تحت الأقدام. قال أبي بعد لحظات وأنا منشغل بمراقبة الجبال: من يعرف غايته لا يضيع، ولو طال الطريق.

ثم استند إلى القوس الحديدي المائل: على هذه الدروب ذئاب كثيرة. قد يسرقون أرضك أو زيتونك أو بيتك، لكن لا تسمح لأحد أن يسرق قلبك وإيمانك. ما دام ينبض فأنت لم تُهزم.

تعلقت جنى بيد أبي أكثر، وأمشي إلى جواره وأسرح متى نصل. قال وهو ينظر إلى الأفق:

- الحياة تشبه النهر، ستمضي سواء شئنا أم أبينا، لكن المهم ألا نتركها تجرفنا بعيداً عن ضفتنا.

وفي أعماقنا كان المخيم يمشي معنا. لم يكن مجرد مكان أقمنا فيه، المخيم ذاكرة كاملة. سقوف منخفضة تحمل خزانات المياه، أزقة بالكاد تتسع لطفلين يركضان، ورائحة خبز ونعناع، وصراخ أمهات على أبنائهن. يعرفهم الجميع بأصواتهم قبل وجوههم. فيه يصبح العمل كفافاً والنوم هدنة قصيرة، والزواج محاولة للبقاء، والموت راحة مؤجلة. وحتى الطعام يحمل طعم الاختصار؛ عدس قليل وخبز بالكاد يكفي، وماء يحاول أن يقنع الطحين بأن يتحول إلى رغيف. هناك كانت الحجارة تحفظ أسماء أصحابها، والجدران تسمع البكاء وتخبئه في شقوقها. كان أبي يحاول أن يمنحنا حياة أوسع من مساحة المخيم، يذوب كل يوم من أجلنا كما يذوب الجليد ليصنع نهراً.

نظر إليّ وقال: نحن أصحاب قضية، لكن بعض الناس اختصروها حتى صارت مجرد كلمة سلام يرددونها.

ثم أشار إلى البيوت المتلاصقة: لا تخلط بين التعايش مع الواقع والاستسلام له. هذه الجدران ليست قدراً أبدياً، وسيأتي يوم تصبح فيه حجارة تحت أقدام الأحرار.

من خلف السور المائل ظهر رجل يحمل على ظهره سنواته كلها. يمشي وعلى وجهه هموم العمر. اقترب منهم بعدما سمع طرفاً من حديثهم. قال وهو يعدل نظارته: أدركت أن المخيم بالنسبة لكم ليس مكاناً بل حياة كاملة.

أجبته: لأنه يحمل كل شيء. الوجع والأمل معاً.

وأضاف أبي: ومن بقي يحلم بالغد، لن يقبل أن يجعل اللجوء نهاية حكايته.

هز الرجل رأسه موافقاً، ثم قال: المهم ألا نخطئ أول خطوة في طريق الخروج.

أعجب أبي برده: لهذا أراقب الاتجاه أكثر مما أعد المسافات.

عرفنا أنه البقال صاحب الدكان في طرف السوق القريب من المسجد، حيث اعتاد المصلون التبضع منه لعائلاتهم. حفظ أسماءهم كما حفظ ديونهم، وحتى ما يشترونه كل شهر. دكانه مليء بطحين الوكالة وحليبها، وعلب السردين، ولفائف المحارم الزرقاء الخشنة، وبعض الأقلام الصفراء والدفاتر.

قال البقال: تعلمت من الدكان أكثر مما تعلمت من الكتب. الناس لا يكشفون وجوههم حين يفرحون، بل حين يضيق بهم الخبز أو تضيق بهم الحياة.

ابتسم أبي وأضاف لكلامه: والأوطان أيضاً.

نظر البقال إليه ملياً ثم تنهد: رأيت رجالاً قبلوا بالمخيم بيتاً أخيراً، ورأيت آخرين ظلوا يحملون مفاتيح البيوت القديمة في جيوبهم حتى ماتوا، كأنهم يخشون أن ينسوا الطريق.

سألته: وهل يكفي الحلم وحده؟

أجاب أبي: لا، لكنه يمنع القلب من الصدأ.

- لماذا تقلّص عدد الذاهبين عاماً بعد عام يا أبي؟

- هم وعثاء الطريق ولأنّ السائرين أنفسهم صاروا أوراقاً صفراء تذروها الرياح قبل أن تصل

أو الشوارع -حسب رأي البقال- مكتظة في مكان ما، أم حاجز يمنع القادمين والذاهبين.

أو كما قال أبي: إنَّ القلوب والمشاعر هي المكتظة دائماً، تتزاحم فيها هموم الماضي لتتعثر مع خطوات الحاضر، وتنظر دائماً إلى المستقبل، من كان قلبه مرتبطاً بالمدينة سيجد ألف طريقة وطريق إلى الوصول.

ويتمتم الأب: من كان هدفه الوصول لن تعجزه الحيلة.

عاش في المخيم كما يعيش السجين في زنزانته، كل ماضيه هنا وقليل من أحلامه، وطيف من المستقبل قد لا يأتي. صار المخيم في جسد الوطن جرحاً. بقعة بنية باقية تنزف كلما حاول أحد نزع قشرتها الجافة، وإن أبقيتها لا يمكنك نسيانها، ولا تنفك تدعوك لحكها دون أن تستطيع قشطها. هنا الحياة مختزلة فالعمل كفاف اليوم، والنّوم هروب مؤقت، والزّواج اتفاقية بقاء، والموت راحة أخيرة. والجرائم ردود أفعال مكبوتة وتبريراتها مختصرة، والعدل لافتة معلقة في المحكمة. حتى طعامهم صار فيه العدس يمد يده للأرز، والماء يتوسل للطحين ليصير خبزاً. من ذاق مرارة المخيم عرف أن الألم ليس كلمة في كتاب، بل طعم في الفم ولون في العين، ورائحة تلتصق بالملابس. هم أكثر الناس معرفة بالجوع، وأعمقهم فهماً للحرمان، وأصدقهم تعاطفاً حين تدق نواقيس المصائب. من جرب طعم المخيم تذوق طعم الألم، وأكثر البشر تعاطفاً مع الآخرين وقت المصائب من يعيش فيه.

- أنا وأنت يا أحمد وهي أصحاب قضيَّة اختصرها أصحابها بكلمة، كمن يؤدي التّحية للقاتل ليطيل في عمره.

ذات يوم سيستيقظ الوطنيون ليجدوا أحلامهم كبيت من ورق. ذاب في أول عاصفة لهم. لم يبق سوى الظل لحياة ممكنة. حلموا بهذا البناء وابتسموا له، ناموا تحت ظلّه الوارف، لكنهم وجدوا أنفسهم بلا بناء، كل ما تبقى هو الفكرة التي يحتفلون بها كل عام.

واصلنا السير، وأخذت المدينة البعيدة تكبر في الأفق، والمخيم يصغر خلف ظهورنا دون أن يغادر صدورنا. أشار البقال إلى التلال: الحكيم لا يقيس الطريق بطوله، بل بالاتجاه الذي يقوده إليه.

رد أبي: لأن التراجع يبدأ بخطوة صغيرة يظنها المرء بلا أثر.

قال البقال: زارني المختار يوماً، وبدأ يدق بيده على طاولة الدكان قائلاً:

- برأيي المتواضع، أنتم روّاد المساجد بارعون في الفرجة على أحداث الوطن. نسميكم تجار الأزمات، قدمتم عملاً هامشياً لا يعدو كونه تنظيراً فارغاً.

فأجبته: وأنتم الطبقة العليا التي وضعت الأهداف، فتلك قصة أخرى، وضعتم لنا أهدافاً للتخزين. سراب في الصحراء أفضل منها، صعبة المنال ومستحيلة التنفيذ. والنتيجة؟ حصاد مر من الخيبات، ووعود كالفقاقيع تتبخر عند أول احتكاك بالواقع.

فأمسك بعلبة سردين أبو شنب من على الرف، وقال بنبرة حادة: صبرنا طويلاً حتى ضاعت منا الطرق. ولكن. -أشار بإصبعه إلى صورة الأقصى- الفرصة ما زالت تتلمس طريقها بين الأنقاض ولم تمت بعد.

هكذا أحاديثهم، مزيج من الألم والأمل ومن الخيبة، يعيشون في عالم يبحثون فيه عن معنىً للحياة، بينما يمسكون بخيوط رفيعة من الأمل، قد تنقطع في أي لحظة.

جرافات الاحتلال تمتحن الرجال، فمنهم من ارتقى صفائح الدبابات كالأسود، وحوّل عجلاتها إلى قبور. وهناك من ركع خائفاً فسحقته أحذية الجنود. لم تكن معركةً بين جيشين -قال البقال- بل كانت محكاً للرجولة. بعضهم خرج منها كالفحم المتوهج، والبعض الآخر - أولئك الذين باعوا شرف الوطن بثمن بخس - صاروا مجرد دمىً تتحرك بإرادة المحتل، يلوكون كلام المقاومة بينما هم في الحقيقة حراس.

قال أبي وهو يفرك أسنانه بالسواك: صاحب القضية يتألم لكنه لا ينكسر. قد يبطئ أو يخسر جولات، لكنه سيصل. النصر ليس مجانياً.

هززت رأسي كأني أحفظ الجملة في مكان خفي من ذاكرتي. ثم هبطنا نحو منعطف تحيط به أشجار زيتون عجوز، جذوعها ملتوية لكنها ما زالت تضرب عميقاً في الأرض. وقفت جنى والتقطت ورقة زيتون سقطت عند قدميها، وأخذت تتأمل خطوطها الدقيقة: لماذا لا تسقط الشجرة كلها إذا سقطت أوراقها؟

انحنى أبي إلى مستواها وربت على رأسها: لأنها تعرف أن جذورها باقية.

ثم نظر إليّ وقال: الناس أيضاً هكذا. من كانت جذوره في الأرض لا تقلعه الرياح.

شعر البقال أن الكلمات التي كان يسمعها في المسجد أو النادي أو السوق لم تمت، بل كانت تختبئ في صدور الرجال حتى تجد من يوقظها. قال: أكثر ما أخشاه ليس أن نخسر معركة، بل أن نعتاد الخسارة.

رفع أبي بصره إلى السماء، وقد بدأت الغيوم تتفرق: لذلك لا يجوز أن نربي أبناءنا على انتظار الشفقة. من ينتظرها يشيخ قبل أوانه.

استرحنا قليلاً قرب صخرة كبيرة ينساب من جوارها خيط ماء رقيق. أخرج أبي من حقيبته قطعة خبز وبعض الزيت والزعتر، وقسمها بيننا. ابتسمت جنى وهي تأكل: كلما خرجنا من البيت صار الطعام ألذ.

ضحكت للمرة الأولى منذ بداية الرحلة. أما أبي فاكتفى بالنظر إلينا. كان يشعر أن اللقمة التي نأكلها تشبعه أكثر مما تشبعه أي مائدة. قال البقال وهو يغمس قطعة خبزه في الزيت:

- الفقير يعرف قيمة الرغيف لأنه يعرف معنى الجوع.

أومأ أبي موافقاً: ومن عرف الجوع، عرف كيف يشعر بجوع الآخرين.

بدت الطريق أكثر انحداراً، وفي نهايتها ظهر الجدار الإسمنتي الضخم يشق الأرض كما لو أنه جرح طويل لم يلتئم. توقفت جنى أمامه وقد اتسعت عيناها: هل ينتهي الوطن هنا؟

أجاب أبي دون تردد: لا يا صغيرتي. عند بعض الناس ينتهي هنا. أما نحن فالذي ينتهي هو الطريق، أما الوطن فيكمل سيره داخل الناس.

مرر يده على الإسمنت الخشن، ثم سحبها: هذه الجدران لا تمنع الأرض من تذكر أصحابها.

اقترب البقال من الحبال المتدلية فوق الجدار، وظل ينظر إليها وقال: كم من أقدام عبرت من هنا وهي تعرف أنها قد لا تعود.

- وكم من قلوب بقيت هناك، بينما أجساد أصحابها عادت.

رد عليه وظللت أحدق في الجدار طويلاً. كنت أشعر أنه يقسم المكان ويقسم الذاكرة أيضاً. لكن أبي مضى إلى الأمام دون أن يتوقف. وكأنه يخاطب الطريق أكثر مما يخاطبنا، قال:

- لا تضيعوا أعماركم في عدّ الجدران. ابحثوا دائماً عن الباب، وإن لم تجدوه فاصنعوه.

تذكر أبي حصة في المدرسة، والجميع يسرع إلى الصفوف بانضباط ورؤوسهم مرفوعة، تلاميذ تحت قيادة رجل واحد. المدرسة جمعت خليطاً من رجال اليوم. منهم من استشهد ومنهم من سُجن، وآخرون ارتقوا مناصب زائفة، تعلموا القراءة والكتابة، ولغة الصمود والمقاومة. تعلموا الحساب بالأرقام وحساب المواقف. حفظوا الآيات وصلّوا بها نحو الكعبة، وتلَوْها عند الصخرة.

وتذكر كذلك حين طلب مسؤول من الشيخ ناصر الابتعاد عن السياسة في حصصه. لكن الشيخ ناصر لم يكن من نوعية المعلمين الذين يروّضون أو يخنعون. كان يرى السبورة مقاومة والكتاب سلاحاً. قال للمسؤول يومها:

- إما تخرّج المدرسة الطلاب من هاوية الذل، أو تمضي بهم في عالم الأوهام.

لم يفهم المسؤول -كعادة أي مسؤول-، فكتب ملاحظة حرمتهم من معلمهم. لكن كلمات الشيخ ناصر بقيت جداريات مقاومة، تذكرهم بأن الثقة بالنفس ليست إعجاب الناس، بل الإرث الذي يحملونه، وعزيمة الثبات والتحرر.

ظللنا نمشي بمحاذاة الجدار حتى بدا كأنه لا نهاية له. كتلة إسمنتية ترتفع من الأرض وتشق التلال، فيما كانت أشجار الزيتون على الجانب الآخر تلوح لنا كأقاربنا الذين يفصل بينهم زجاج لا يُكسر. رفعت جنى رأسها وسألت: هل ترى الأشجار أصحابها؟

ابتسم أبي بأسى: الأشجار تحفظ وجوه من غرسوها أكثر مما يحفظ الناس وجوه بعضهم.

مال البقال على عصاه وقال: لذلك يخافون منها، لأنها شاهد لا يكذب.

عند منعطف الطريق لاح لنا رجل مسن يجلس على حجر عريض يراقب المارة. كانت يداه المتجعدتان تستندان إلى عصا زيتون، وعيناه غارقتين في مكان أبعد من الأفق. حيّانا بإيماءة خفيفة، فرددنا السلام وجلسنا غير بعيد عنه.

قال الشيخ دون مقدمات: منذ ثلاثين عاماً وأنا أراقب هذا الطريق. الناس يتغيرون، أما الطريق فلا يتغير إلا إذا غيّر الناس أنفسهم.

سألته: وهل رأيت من وصل؟

- رأيت كثيرين وصلوا بأقدامهم، لكن قلوبهم بقيت تائهة. ورأيت آخرين لم يبلغوا النهاية، ومع ذلك كانوا أقرب الناس إليها.

كانت الريح تعبث بأوراق الزيتون فوق رؤوسنا، حتى خُيّل لجنى أن الأشجار تتحدث لغة لا يفهمها الكبار. فاستأنفنا السير بعدما ودعنا الشيخ. قلت: كل من نلقاه يقول الشيء نفسه بعبارة مختلفة.

رد أبي: لأن الحقائق الكبيرة لا تتغير، نحن فقط نبدل كلماتها. انظر هناك... المدينة.

بدت البيوت البيضاء معلقة فوق التلال يلفها الضباب حتى حسبتها جنى مدينة خرجت من حكاية قديمة. قالت: تبدو قريبة.

ضحك البقال: المدن يا صغيرتي تشبه الأحلام، كلما اقتربنا منها اكتشفنا أن الطريق أطول مما ظننا.

أخذ المطر يتساقط خفيفاً، قطرات متناثرة تبلل الغبار وتوقظ رائحة الأرض. مدت جنى كفيها نحو السماء، وأخذت تجمع الماء في راحتيها. نظر إليها أبي وقال: المطر لا يختار بين أرض وأخرى، لكنه يعرف أين تنبت البذور.

تأملت وجه أبي وسألته: وهل سيأتي يوم تنبت فيه كل هذه التضحيات؟

أبطأ خطواته: ونظر للسماء إذا بقي من يزرعها، نعم. المشكلة في الذين يتركونها قبل أن يخرج أول غصن.

عند أول أطراف المدينة خفتت أصوات الرياح، وحل محلها ضجيج السيارات والباعة والناس. وقف أبي وأدار رأسه إلى الخلف. كان المخيم قد اختفى تماماً خلف الجبال، لكن شيئاً منه ظل معلقاً في عينيه. وقال:

- الغريب أن الإنسان كلما ابتعد عن المكان، ازداد المكان اقتراباً منه. وهكذا هي القدس وفلسطين.

ربت على كتفي وجنى تمسك بطرف ثوبه كي لا تضيع وسط الزحام. أما البقال فابتسم وهو ينظر إلى وجوهنا:

- يبدو أن الرحلة لم تبدأ اليوم.

سألته: ماذا تقصد؟

قال وهو يشير إلى صدورنا: لأن أطول الطرق ليست تلك التي نسيرها بأقدامنا بل تلك التي نقطعها داخل أنفسنا.

في الساحة كانت الحجارة الملساء تلمع بعد المطر. مرّ رجل يبيع الكعك، ويعقبه طفل يحمل إبريق شاي، وعجوز يجر عربة خشبية تصدر صريراً يشبه الأنين قلت: الحياة هنا تبدو طبيعية.

رد أبي: أخطر ما يفعله الاحتلال أنه يجعل الناس يعتادون غير الطبيعي حتى يظنوه طبيعياً.

فقال البقال وهو يقلب زجاجة ماء في يديه: ذات يوم في نادي المخيم مع الشيخ حسن راشد وعبد الرحمن وغيرهم، أدركنا متأخرين أن فصول قضيتنا رمالها متحركة، تتغير مع تقلبات العمر، أو بتغير العالم من حولنا، ووجوه أعداء جدد. لكن الاكتشاف الأقسى حين رأينا هواننا وتقصيرنا في الفصل الأخير من سفر حياتنا.

تحرير أولئك الحمقى من الأغلال التي يقدسونها مهمة مستحيلة، كانوا من الأوائل في نهاية السبعينات، يعودون من غربة دينهم، جادلوهم في ندوات النادي السياسي بين قادة الفكر والمادية، ناقشوهم في حلقات العلمانيين والاشتراكيين، وحتى على أبواب المساجد بعد خطبة الجمعة. لم يستطيعوا نزع فتات الأمل الواهي من بين أنيابهم الصغيرة، تلك المرحلة تحولت من أمل إلى سلطة موبوءة بهم تنضح مكرهة وطنية.

رفضوا الاستسلام وأسر الماضي، وقاوموا الحاضر بقلوب ممزقة بين الشك واليقين، وواجهوا المستقبل بلا خوف. لكنهم أنفقوا من رصيد صبرهم أكثر مما يملكون، ودفعوا الثمن من أعصابهم وقلوبهم حتى بدا لهم أنهم خسروا أنفسهم قبل أن يخسروا القضية.

جلسنا قرب نافورة صغيرة تتوسط الساحة. مدت جنى يدها تلامس الماء، فارتجفت الدوائر على سطحه. سألها أبي: ماذا رأيت؟ قالت: رأيت وجهي. ابتسم: إذا ألقيت حجراً، ماذا سيحدث؟ قالت: سيختفي. قال: لكنه لا يختفي، سيتشوه قليلاً ثم يعود. هكذا الإنسان أيضاً. قد تهزه الحياة، لكنها لا تستطيع أن تمحو حقيقته إن كانت راسخة.

عند زقاق يفضي إلى درج حجري وقف أبي عند أول درجة ومسح عليها بكفه: كنت أصعد مثل هذا الدرج وأنا في عمرك يا أحمد.

نظرت إليه بدهشة: وهل كنت تعرف أن كل هذا سيحدث؟

- لو عرف الناس المستقبل لما زرع أحد شجرة ولا أنجب ولداً، ولا بنى بيتاً. نحن نعيش لأننا نؤمن بما لم نره بعد.

كان البقال يسير خلفنا بخطوات أبطأ. المسافة أثقلت ركبتيه، لكن الحديث كان يخفف حمل العمر. قال:

- أبي مات وهو يردد اسم القرية، ولم يترك لنا سوى مفتاح صدئ.

ثم أخرج من جيبه مفتاحاً علق الصدأ بأسنانه: كلما نظرت إليه، أشعر أنه لا يفتح باباً من الخشب، بل باباً في القلب.

تناولته بحذر وتأملته. كان بارداً وثقيلاً. يحمل في داخله أعماراً كاملة. وأعدته إليه: بعض المعادن لا يصدأ مهما طال عليها الزمن. ابتسم: وبعض الذكريات كذلك.

أحمد الذي نضجت رؤيته، قال لأبيه: كلامك هذا يطرق أبواب الماضي بقوة، ويفتح نوافذ المستقبل بحكمة.

في طفولته كان أحمد يقف مطولاً عند زجاج النافذة يرقب كيف يلامس الضباب الزجاج. تارة تهمس قطرات المطر على سطحه، وتارة تضربه عواصف غاضبة بالبرد تمطر حجارة. لكن أعز اللحظات عليه عندما يرفع كفيه الصغيرتين الدافئتين نحو الزجاج البارد، فيذوب الضباب تحت أنامله مخلِّفاً وراءه مساحات شفافة تكشف الحارة. الغريب أن وضوح الرؤية يجلب معه البرد. كلما اتسعت الدائرة الشفافة في الزجاج تسلل الهواء الجليدي إلى أصابعه. لكنه لم يكف عن المسح، لأن الحقيقة - كما فهم لاحقاً - لا تحتاج إلا لحركة يد ونظرة ثاقبة، وقلب لا يخاف من لسعة البرد.

هكذا كانت قضيته. وهكذا أراده والده أن يكون. كتلك الأصابع التي لا تكلُّ عن مسح الضباب، حتى عندما يعلم أن الوضوح سيجلب له البرد والمسؤولية. لأن الحقائق الكبرى غالباً ما تكون مختبئةً خلف طبقة رقيقة من الغموض، تكفيها لمسة مؤمن ليظهرها.

مع اقتراب المساء أخذت الشمس تنخفض خلف التلال، وامتدت ظلالنا على الطريق حتى بدت أطول من أجسادنا. نظرت جنى إليها وضحكت: أصبحنا عمالقة.

قال لها أبي ممازحاً: الإنسان يكبر حين تطول رسالته، لا حين يطول ظله يا جنى.

وأشار إلى قرص الشمس وهو يهبط: انظرا جيداً. الشمس لا تموت عندما تغيب، بل تذهب لتشرق في مكان آخر. وكذلك القضايا العادلة، قد يظن الناس أنها انتهت، لكنها تعود مع جيل جديد أكثر إشراقاً وإيماناً.

أذن العشاء. وقف أبي عند باب المسجد في طرف القرية، والتفت إلينا: الإنسان يحمل وطنه في قلبه، لكن قلبه يحتاج بين حين وآخر إلى أن يعود إلى خالقه حتى لا يتيه.

دخل بخطوات هادئة وتبعته. بقيت جنى عند الباب تراقب الحمام الذي يدور فوق المئذنة: إنها لا تضيع. ابتسم البقال: لأنها تعرف بيتها. رفعت الصغيرة عينيها إلى السماء، وبثقة: ونحن أيضاً سنعرف الطريق مهما طال.

خرجنا من المسجد وقد حل الليل. وقف أبي ينظر إلى طريق العودة التي بدت مظلمة، ثم قال:

- الآن بدأت الرحلة. لأن الطريق لا ينتهي عند قرية ولا مدينة، الطريق الحقيقي يبدأ كلما ظن الإنسان أنه وصل.

وبدأنا ننزل من التلة عائدين. في الطريق مررنا بجانب منزل انفتحت إحدى نوافذه وخرج منها صوت امرأة تغني لطفلها لينام. توقفت جنى تستمع: أمي كانت تغني هكذا. خفض أبي رأسه: كل الأمهات يعرفن لحناً واحداً، وإن اختلفت الكلمات.

قبل وصولنا إلى المخيم توقف أبي عند مرتفع أخير. من هناك كانت البيوت تظهر متلاصقة عند السفح البعيد. كل شيء بدا أصغر مما تركناه، وربما بدا أوضح. وقفت إلى جواره، لم أكن بحاجة إلى سؤال، ولا كان بحاجة إلى جواب. كأن الطريق قالت ما يكفي. قال وهو يحدق في العتمة:

- عجيب أمر الإنسان. يظن أن أصعب ما في الرحلة هو المسافة، ثم يكتشف في النهاية أن أصعب ما فيها أن يحافظ على قلبه كما كان يوم انطلق.

- أبي هل تخاف؟

توقف ولم يجب مباشرة. رفع بصره نحو السماء التي بدأت تتلون بالنجوم:

- أخاف أن نعتاد الخطأ حتى نظنه صواباً، وأن نعتاد الذل حتى نسميه واقعية.

دخلنا المخيم مع أولى ساعات الليل. لم يتغير المكان خلال يومنا هذا، لكننا تغيرنا. صرنا نرى خلف الجدران ما هو أبعد من الجدران، وخلف الحارات ما هو أبعد من الحارات. أدركت أن المخيم لم يكن نهاية الحكاية، كما أن الطريق لم تكن بدايتها. كلاهما كان جزءاً من شيء أكبر.

جلست على سطح المنزل تلك الليلة. أضواء المدينة تتلألأ في البعيد. تذكرت كل شيء: البئر القديمة والقرية، وشجرة الرمان وعين الماء والجسر، الشيخ على حجر الطريق، البقال ومفتاحه الصدئ، وصوت المرأة تغني لطفلها. بدت الرحلة كأنها يوم واحد طويل، لكن أثرها لم يكن عابراً.

شعرت أن أبي أخذني لأرى الأرض ولأفهم أن الإنسان يصبح أضعف حين ينفصل عن حكايته، وأن الحكايات قد تحفظها الكتب وبشكل أدق تحفظها الطرق والأشجار والآبار والبيوت القديمة، وكل من يواصل حملها من جيل إلى جيل. كان أبي يقول: ما دامت لهذه الأرض رائحة، فلن يستطيع أحد أن يقنعنا بأنها ليست أرضنا.

وهكذا انتهى اليوم. أما الحكاية فبقيت تمشي مع الذين يأتون بعدنا. لأن الحكايات التي تصنعها الأقدام الصادقة لا تنتهي عند آخر صفحة، بل تبدأ هناك.

ما دمنا نسير، فنحن لم نخسر بعد.

الخاتمة

في النهاية، هذه القصص ليست سوى شظايا من مرايا كثيرة...

كل قصة منها تشبه نافذةً مفتوحةً على عالمٍ قد نعرفه، أو نعتقد أننا نعرفه، حتى ننظر من خلالها فنجد أنفسنا في الزجاج.

لقد حاولت عبر هذه الصفحات أن أمسك بتلابيب اللحظات الإنسانية التي تتراوح بين الألم والأمل، بين الواقع والرمز، بين الجمرة والفراشة. هي قصصٌ كتبتها بدم القلب، وحفرتها بحروفٍ تؤمن أن الكلمة قد تكون أحياناً سلاحاً، وأحياناً أخرى ضماداً للجراح.

لكم أيها القراء:

شكراً لأنكم منحتم هذه الحكايات أعينكم وقلوبكم. فالقصة لا تكتمل إلا بمن يقرأها، كما الفلسطيني لا تكتمل قصته إلا بمن يسمعها. ربما تجدون في "أشجان المرايا" صدىً لضحكتكم، أو دمعةً لم تُذرف بعد، أو حلماً لم يُولد بعد.

وعد أخير:

هذه ليست النهاية... بل محطة في رحلة الكتابة التي سأواصلها، لأن تحت أقدامنا أرضاً تنزف قصصاً، وفوق رؤوسنا سماء تهمس بحكايات جديدة.

دمتم أوفياء للقصص التي نكتبها، والتي تكتبنا أحيانًا دون أن ندري

غنام محمد غنام
مخيم الجلزون - رام الله
2026